اهداءات ٢٠٠٣

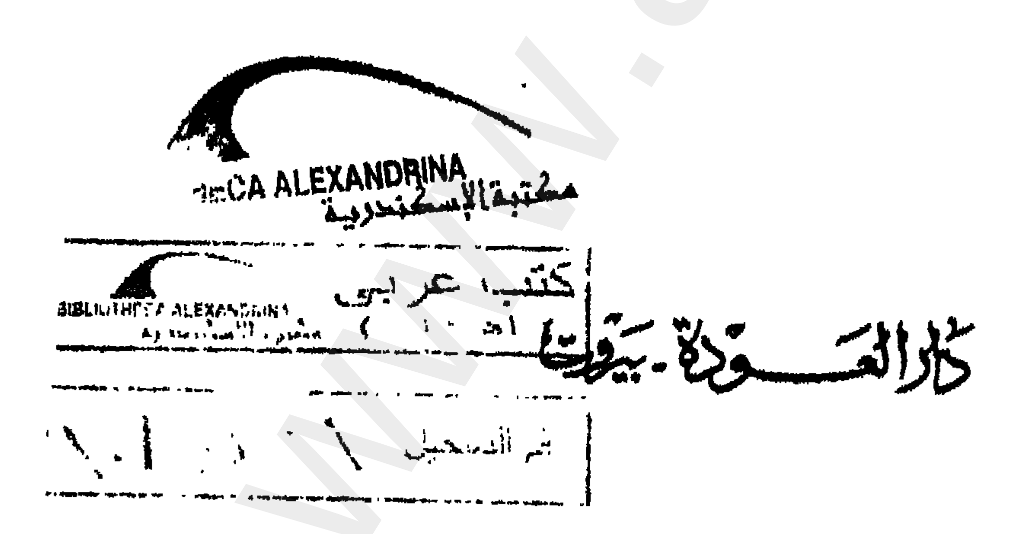
الدكتورة /صفاء الحمامى

الإسكندرية

أسئلة حرجة ...
وأجوبة صريحة

الشيخ محمد متولي الشعراوي

أسئلة حرجة ...
وأجوبة صريحة

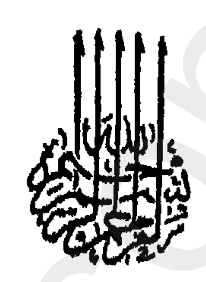


دار العودة - بيروت

دار العودة - بيروت
كورنيش المزرعة
بناية الريفيرا سنتر
هاتف : ٣١٨١٦٥ - ٣١٠٨٤٠
تلكس : LE AWDA ٢٣٦٨٢



حوار مع الشيخ الشعراوي



مقدّمة

لماذا أجريت هذا الحوار

في كثير من الأحيان تحدث في حياة الانسان أشياء لا يستطيع أن يفهمها . . أو يعرف مدلولها الا بعد أن تحدث بفترة طويلة . . حينئذ يحس أو يعرف لماذا وقع هذا الحدث بالذات . . أو ما التي جعل ما أسماه صدفة . . تتم بالصورة التي تمت عليها . . ومنذ عدة سنوات . . ومنذ ثماني سنين على وجه التحديد . . عندما بدأت أكتب في اليوميات عن الناحية الدينية اصطدمت بمئات الخطابات التي أوضحت لي ما يعانيه الشباب في مصر . . وخصوصا شباب الجامعة من تمزق وحيرة . . بسبب عدم الفهم الحقيقي لبعض الأمور الدينية التي صور لهم خطأ أنه يوجد تناقض بين الدين والعلم . . وبين الدين والتقدم . . وبين الدين والحضارة . . واستغل بعض الناس الذين يهمهم هدم كل القيم في المجتمع . . استغلوا هذه المفاهيم الخاطئة . . ليلصقوا تهمة التخلف بالدين . . ويضخموا التناقض الذي يدعونه ويأتوا بنظريات علمية خاطئة وغير ثابتة . . وغير يقينية ليواجهوا بها القرآن . . ولقد أدى ذلك الى عكس ما كانوا يريدونه . . فبدلا من أن تنهار القيم وينصرف الشباب عن الدين . ازداد الوعي الديني التهابا عند الشباب . . وأصبح هناك ما أسميه « بالجوع » الى التفسير الديني السليم الذي يشبع الشباب . . ويزيل التناقضات من نفوسهم . . كانت هناك حاجة سديدة الى تفسير عصري للقران تدخل الراحة الى صدور الشباب . . ولقد استمعت الى فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي مرات في التليفزيون . . ومرات في اذاعة القران الكريم . . ثم التقيت به مرة عند معالي الدكتور عبده يماني وزير الأعلام السعودي . . وجاء الى خيمتي مرة أخرى . . عندما أصبت بأزمة صحية أثناء الحج . . وأحسست أن الشيخ محمد متولي الشعراوي يحمل حلا

حقيقيا لمشكلة الشباب الحائر . . فمنهجه القرآن وتفسيره عصري . . وحجته قوية . . ولا يهاب المناقشات .

وعندما عين الشيخ الشعراوي وزيرا للأوقاف . . كتبت في يوميات الأخبار . . قلت انني أتمنى ألا يصرف منصب الوزارة الشيخ الشعراوي عن الدعوة . . ذلك أن مهمة الدعوة الاسلامية هامة في هذه الفترة التي تتصادم فيها المدنيات وتتصارع الأفكار . . ويحاول الالحاد والكفر أن يأخذا طريقهما الى القلوب . . بل انني أجريت حديثا أخذ صفحة كاملة في الأخبار مع الشيخ الشعراوي وسألته فيه هذا السؤال . . وقال الشيخ الشعراوي : ان الوزارة لن تشغله عن الدعوة الدينية . . وإنه مقتنع أنه يستطيع تنظيم العمل الروتيني في الوزارة خلال أشهر . . والتفرغ للدعوة . . وخلال هذا اللقاء قلت للشيخ الشعراوي إنني أتمنى أن أجري معه حوارا حول أهم ما يشغل الناس من المشاكل الدينية . . ولنبدأ هذا الحوار . . ونخصص له الصفحة الأخيرة من يوم الجمعة في يوميات الأخبار . . وبدأنا الحوار منذ ثلاثة شهور . . وما زال مستمرا حتى الآن . .

أحمد زين

تفسير القرآن

عندما نتحدث عن تفسير القرآن . . فان الرأي عادة ينقسم الى فريقين .. فريق يقول : ان التفسير في عهد النبي والصحابة . . هو تفسير نهائي غير قابل لأي اضافة . . وان الاضافة فيه هي نوع من تحميل القرآن الكريم أكثر مما يحتمل . . وتعريض كتاب الله الى نظريات علمية أرضية قد يثبت عدم صحتها بعد عشرات السنين . . وفريق آخر يقول : ان القرآن له عطاءان . . عطاء الفروض والأحكام . . وعطاء آخر في معجزاته . . فعطاء الفروض والأحكام واضح لا لبس فيه . . والتفسير الذي حدث في عهد النبي ﷺ . . ملزم حتى تنتهي الأرض ومن عليها ؟ . . أما معجزات القرآن فهذه يزداد لها العالم فهما . . كلما تقدم العلم كشف الله للناس عن آياته في الأرض . . ومن هنا فان عطاء القرآن في هذه الناحية هو عطاء متجدد . . لا ينتهي أبدا . . أعطى الأجيال التي قبلنا . . وسيعطي الأجيال التي بعدنا . . وله عطاء مستمر لا ينتهي الا بقيام الساعة . . ومن هنا فان المعجزة مستمرة . . ونواحي الاعجاز في القرآن في كل عصر وزمان ومكان موجودة . . والأيام القادمة قد تكشف تفسيراً لبعض الآيات نكون نحن عاجزون عن فهمها الفهم الصحيح . .

وخلال الشهور الماضية . . كانت لقاءاتي كلها مع الشيخ محمد متولي الشعراوي وزير الأوقاف وشؤون الأزهر . . تتناول ناحية تفسير القرآن . . ذلك أنني أحس أن هذا الرجل قد أعطي من العلم والبصيرة ما يجعله يستطيع تبسيط معاني الكتاب الكريم . . لتدخل الى كل عقل . . والرد على كل ما يثار ضد الاسلام من مفكرين . . وشرقيين . . وغربيين . . يحاولون بقدر الامكان تشويه هذا الدين . . والنيل منه بالباطل . .

وقلت للشيخ محمد متولي الشعراوي : ان هناك أسئلة حائرة في أذهان الشباب لا تجد لها التفسير الذي يتلاءم مع مفهوم العصر . . ولقد قدم بعض المفكرين اجتهادات في

التفسير . . بعضها أجاب على أسئلة . . وبعضها جانبه الصواب . . ولكنني من متابعتي لأحاديثك كل ما تقوله أرى أنك أكثرهم التزاما . . ودقة في التفسير . . وأنني أتمنى أن تقوم بتفسير للقرآن يطبع ويوزع . . لأن هذه خدمة جليلة للدين . . معنية للشباب على ألا ينحرف . . وتجرفه التيارات المختلفة التي تزين له الدنيا . . وتزين له المعصية . وتصور له الدين على أنه تخلف وسلفية ورجوع الى الماضي . . وبعد عن الحضارة وأفيون للشعوب . . الى آخر هذه التعبيرات التي يحاول كل من يحارب هذا الدين أن يلصقها به .

قال : انني خلال لقاءاتي التي قمت بها أحسست بقوة الدين في نفوس الشباب . . وتعطشهم لتعلم دينهم . . وهذه بشرى تجعلنا نؤمن أن الخير قادم . . ولقد مر وقت كان فيه العلماء يهانون ولا يكرمون . . والآن . . فان علماء الدين يكرمون في كل مكان . . وهذه بشرى ثانية . . وهذا متمشي مع طبيعة شعب مصر . الذي أعطى فيه النبي الحكم من قديم في حديث شريف . . إن أهل مصر في رباط الى يوم القيامة . . ومعنى ذلك أن الخميرة هنا ايمانية .

ولذلك يجد الناس الذين يحاولون اخراج الدين من وجدان هذا الشعب وكيانه . . أن محاولاتهم فاشلة . . وعليهم أن يريحوا أنفسهم . .

والذي أحب أن أقوله ان العلم واسع . . وواسع جدا . ولكن السلوكية هي القليلة بمعنى أنه غالبا ما تستطيع أن تعطي النتائج . . ولكن قليلاً جدا وقليلاً أولئك الذين يعطون القدوة في السلوك . . بمعنى أنني أريد ممن يقول كلاما أن يطبقه أولا على نفسه . . اننا في عصر جرب فيه العالم كل شيء . . جرب فيه جميع النظريات والأشياء التي تعرضها الدنيا . . وتبدو براقة . . ووجد فيها الشقاء والتعاسة . . وبدأ يعود للدين . . ولكن العودة للدين يلزمها القدوة فيمن يقدمون النصيحة . . أو كما قلت أن يطبق الانسان ما يقوله على نفسه أولا . . ولقد قال الرسول ﷺ . . أنا لم آمركم أمرا أنا عنه بنجوى . . وأنا عندما يأتيني رئيس عمل ولا أراه متميزا عني الا بالشقاء في عمله . . وبكثرة العمل . . فاذا طلب مني أي شيء فانني أقوم به فورا وبطيب خاطر . . ذلك أنني أحس أنه غير متميز ولا بكثرة مسؤولياته . . وهو في هذا يعطيني القدوة السلوكية التي طالب بها الاسلام . .

والاسلام دين الحق . . ولقد قال لي أحد المستشرقين الذين اعتنقوا هذا الدين . لقد درست الاسلام ووثقت أنه رسالة الحق . . وأن محمدا رسول الحق . . لشيء واحد فكل كاذب له هدف من وراء كذبه . . والهدف من وراء الكذب لمن يدعي أنه رسول . . انه يريد أن يسيطر أو يحكم هؤلاء الناس الذين يدعوهم الى الدين الجديد . . والا فما هو الهدف الذي يسعى اليه . . ولقد عرض على الرسول في أول أمره بدون تعب . . عرض عليه الملك إنْ أراد . . فرفض وعرضت عليه الثروة والجاه والسلطان . . وكل ما تستطيع الدنيا أن تهبه . . كل ذلك وهو في أول الطريق . . ولكنه رفض هذا كله . . اذن الغلبة التي يكذب من أجلها رفضها من أول الطريق . . وأحيانا تكون المثل عند الانسان أكبر من حجم الدنيا . . لأنه لم يذق حلاوة الدنيا . . ولكن بعد ذلك حينما تدخل الدنيا عليه قد تغير من مثله وقيمه . . بعد ذلك جاءته الدنيا وليس لنفسه فقط . . وانما له ولذريته . . فقال : لا لنفسي ولا لذريتي . . لا نورث . . ما تركناه صدقة . . واذا كان هذا خلقه . . فلا بد أن يكون صادقا . .

تحليل آخر أعجبني . . لسيدة أسلمت قالت انني قبل الاسلام قرأت كثيرا عن هذا الدين . . ووجدت أن محمدا كان يحرسه أصحابه مخافة أن يعتدى عليه . . فأتى يوما وقال لحراسه : اذهبوا عني فقد تكفل الله بحراستي . . مصداقا للآية ﴿والله يعصمك من الناس﴾ فلو أن هذا الرجل يخدع الناس جميعا ما خدع نفسه في حياته . . وما عرض نفسه للعدوان عليه . . ولو لم يكن واثقا من أن الذي قال له هذا الكلام هو الله سبحانه وتعالى . . وهو قادر على أن يحميه ويعصمه . . لم يكن يفعل هذا . . هذه أشياء تمر عليها نحن . . وقد لا نلتفت الى تلك المعاني . . ولكن سيدة دارسة استخرجت منها هذا المعنى العظيم .

وقصة ثالثة . . عن رجل مستشرق شهر اسلامه . . انه يقول : ان الناس الذين يكذبون محمدا في أنه رسول . . ويقولون إنه أتى بالقرآن من عنده . . ويضيف أنني أتحدى أن توجد عبقرية تصنع لنفسها ثلاثة أساليب . . أسلوب يقال عنه القرآن . . وأسلوب يقال عنه حديث قدسي . . وأسلوب يقال عنه حديث شريف . . ويعزل هذا الأسلوب عن هذا الأسلوب بدقة متناهية بحيث أنك عندما تسمعه تميزه وتقول هذا قرآن . . وهذا

حديث قدسي .. وهذا حديث نبوي .. لا أحد من البشر يستطيع أن يصنع لنفسه هذا .. ثلاثة أساليب متميزة ومختلفة بهذه القدوة والقدرة .

وكثير من الناس يريد أن يناقش الدين والقرآن بشكل عقلي .. ويترك الأساسيات ليبحث عن أشياء يضيف اليها ويستخرج منها اساءة للدين .. ومن بعض هؤلاء الناس أعجب وأعجب كثيرا لأن سلوكهم مع البشر للأسف الشديد يختلف عن سلوكهم تجاه الله .. فأنا اذا مرضت مثلا ذهبت الى الطبيب ليعالجني .. فأختار أبرع الأطباء وأكثرهم شهرة وخبرة في علاج هذا المرض .. وعندما أثق في الطبيب وخبرته وسمعته .. أذهب اليه .. فيكشف علي ويقول : أنت تأخذ وتتناول دواء كذا وكذا .. وأنت تأكل كذا ولا تأكل كذا .. وآخذ هذا قضية مسلمة .. فاذا جاءني صديق يزورني .. وسألني ما هذا الذي تتناوله بعد الغداء أو بعد الطعام .. أقول له : ان هذا دواء قد كتبه الطبيب لي ... فلا يناقش ولا يتكلم .. وانما يسلم بالأمر .. فاذا كان هذا يحدث مع الطبيب وهو بشر .. فماذا يحدث مع الله سبحانه وتعالى .. اذا كنا متأكدين من وجوده .. فلماذا نريد أن نناقش كل شيء .

قلت : أنا معك في هذا المثل .. ولكن بعض النفوس قد تخدع .. وبعض الكلام والمبادىء الذي يوضع في قالب معسول لقلب هذا الدين قد يصل الى عقول الناس .. وهناك بعض الذين جعلوا هدفهم النيل من هذا الدين بالباطل .

قال : ان هؤلاء الناس موجودون وسيظلون موجودين .. ذلك أن هناك حكمة في وجود الشر بجانب الخير .. الشر هو الذي يغري بالخير .. ولذلك تجد أن الوعي الديني في بلد مثل بلدنا قد يظل خامدا فترة .. الى أن يهاجم الدين في أي شيء .. فتجد الشعور الديني قد التهب .. وهب الجميع للرد على هذا الهجوم .. لأن الخير لو ظل راكدا في النفس بدون ما يهيجه قد يبهت ... بدليل أننا مثلا في بعض الأمراض الذي ليس عنده ميكروب المرض نعطيه له .. حتى نربي فيه المناعة والقوة .. فاذا جاء المرض من أي طريق تكون عنده هذه المناعة .. واعطاء الميكروب شر .. ولكنه في نفس الوقت يؤدي رسالة الخير في إحداث المناعة عند الانسان ..

كان السؤال الأول : لماذا الدول الاسلامية متخلفة . . بينما الدول الأخرى التي لا تدين بالاسلام أكثر تقدما ؟ . . وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي . . ان الاسلام قبل أي شيء هو سلوك . . الانسان المسلم يجب أن يسلك سلوك الاسلام . . لكن كثيرا من الناس لا يفعلون ذلك . . بل ان بعض المسلمين الذين يعيشون في بلاد غير اسلامية تجرهم تلك البلاد بعاداتها وتقاليدها . . فيبتعدون عن الاسلام . . وأعتقد أن واجبنا الأول أن نثبت الاسلام في نفوس المسلمين . . معظم الذين اعتنقوا الاسلام قد رأوا القدوة في السلوك الاسلامي . . وأحسوا بعظمة هذا الدين . . وما يقدمه من سلوك طيب . . ومنهج كريم للحياة . .

وفي هذا الكون . . هناك أشياء تفعل لك . . وهناك أشياء تنفعل بك . . فالشيء الذي يفعل لك في الكون يستوي فيه الناس جميعا . . كافر ومسلم . . يستوي فيه الناس كل الناس . . هذه الأشياء هي : كالشمس مثلا . . الشمس تشرق كل صباح ولا تخص بنورها كافراً أو مسلماً . . أو شاكرا لله . . أو جاحدا بنعمه . . كلهم سواء . . عطاء الشمس للجميع . . سواء وهي لا تفرق بين شخص وشخص . . والهواء مثلا تتنفسه كل الكائنات الحية دون أي تمييز . . والماء مثلا يشرب منه كل كائن حي بصرف النظر عن دينه وعقيدته وايمانه بالله أو كفره . . هذه الأشياء تفعل لك كثيرا . . الشمس تعطينا النور والطاقة وأسباب الحياة . . الى آخر ذلك . . والأوكسجين والهواء يعطينا أسباب الاستمرار في الحياة . . والماء يعطينا الحياة نفسها . . ﴿وخلقنا من الماء كل شيء حي﴾ . . فهذه الأشياء تفعل لك . . وتفعل لك بلا تمييز . . أي أنها لا تميز في عطائها بين عاص . . وعابد . . ومؤمن . . وكافر . .

نأتي بعد ذلك الى الأشياء التي تنفعل بك . . وارتقاء الانسان في الكون يتم فيها ينفعل بك لا فيها يفعل لك . . ان ما ينفعل بك إن فعلت فيه ينفعل . . اذا حرثت

الأرض حرثا جيدا ثم وضعت فيها البذرة . . ثم واظبت على رعايتها وتوليتها تعطيك ثمرا جيدا . . ومحصولا وفيرا . . ان بحثت عن المعادن الصالحة لحياة الانسان في باطن الأرض تعطيك معادنها . . ولو لم تفعل فانها لن تنفعل معهم . . فالذين يعملون ويجدون في الأشياء لتنفعل معهم . . والذين لا يقومون بأي جهد مع الأشياء التي تنفعل للانسان في الأرض لا يتقدمون . . ويظلون متأخرين . . وهنا يحدث الخلاف بين ارتقاء عدد من الناس . . وتخلف عدد منهم . . يحدث هذا الخلاف في التعامل مع الأشياء الموجودة في الكون التي تنفعل بك . . ولا دخل للدين في هذه المسألة . . فالأشياء التي تنفعل لك . . كالشمس والهواء والماء . . وما في الأرض . . لا تفرق في عطائها بين مؤمن وكافر وملحد . . والأشياء التي تنفعل بك . . والتي يجب أن تقدم لها عملا لتحصل على النتيجة . . هذه الأشياء أيضا لا تفرق بين مسلم وكافر ومؤمن وملحد . . فالكافر الذي يحسن حرث أرضه وريها . . ويحصل على أجود أنواع البذر . . ويتعهد الزرع . . يجني محصولا وفيرا . . والمؤمن الذي يهمل الأرض ولا يزرعها ولا ينفعل معها لا تعطيه الثمرة . . لأنه لا يطبق قوانين الكون . . ولا يعمل لينفعل مع الأشياء التي تنفعل به في الدنيا . . والملحد أو الكافر الذي يستخدم أحدث الأساليب العلمية . . ويجد ويسعى ليكشف عن المعادن في باطن الأرض . . تظهر له هذه المعادن . . لأنها تنفعل به . . والمؤمن الذي يترك المعدن في باطن الأرض . . ولا يبحث عنه . . لا ينفعل به . . ولا يخرج له .

تلك حقيقة كونية يجب أن نعيها جيدا . . .

ولقد جعل الله ما على الأرض زينة لها . . ليجذب الانسان الى العمل . . فما هي الزينة في حقيقتها . . هي ما يخلع على ذاتيات الأشياء ليجعلها أكثر جاذبية . . فالمرأة مثلا تتزين لتصبح أكثر جاذبية للرجل . . وزينة الأرض هي أن تصبح أكثر جاذبية للانسان ليعمل . . فالانسان حين يرى حديقة جميلة أو عمارة فخمة . . يتمنى أن يبني أو يعمل مثلها . . فتكون هذه الزينة حافزا له للعمل . . فكأن الله قد جعل ما على الأرض زينة لها ليجذبني اليها . . ثم بعد ذلك هل تكون هذه الزينة هي الغاية . . أم لا تكون . . وهنا الابتلاء . . ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿هو أنشأكم من الأرض

واستعمركم فيها﴾ . . معنى استعمركم . . أي طلب منكم عمارتها . . وذلك لا يتأتى الا بأمرين . . أن تبقي الصالح على صلاحه . . لا تفسده . . وأن تصلح الفاسد وتزيد اصلاحه . . وأقل ما تأمر به هذه الاية . . هو أنك لا تأتي للصالح وتفسده . . معنى استعمر الأرض . . أي أبقى الصالح على صلاحه . . أو زاد في اصلاحه . .

والله يخاطب الشيء بالقوة . . والشيء بالفعل . . زينة الله على الأرض من أثرين . . آثار خلق الله . . والطبيعة التي وهبها لنا . . واثار ما فعله الانسان بما علمه الله له . . ليضيف الى ذلك . . وعندما نقرأ في سورة الكهف . . ﴿ويسألونك عن ذي القرنين . . قل سأتلو عليكم منه ذكرى﴾ . . انا مكنا له في الأرض واتيناه من كل شيء سببا . . فاتبع سببا﴾. ومعنى ذلك أننا أعطيناه أسباب المنعة والقوة والحكم في الأرض . . ولكنه لم يقتصر على ما أوتي . . لم يقتصر على ما فعل له . . اتبع هو سببا . . فيما ينفعل له . . ولقد أورد الله هذه الاية الكريمة ليقول لنا : ان الانسان مهما يعطى لا يجب أن يكتفي بما أعطي له ولا يفعل شيئا . . بل يجب أن يأخذ هذا العطاء . . ويعمل من أجل أن يضيف اليه . . وينفعل به . . مع العناصر التي خلقها الله لتنفعل بعمل الانسان في الأرض . . وذلك مصداقا للحديث الشريف " لا خير فيمن لا يضيف . . والاضافة هنا بمعناها العام . . أي أنك أنت ان استفدت من الكون . . وجعل الله الكون في خدمتك . . فلا بد أن تعطي عطاءً للكون . . ان تضيف إليه شيئا . . والا أصبحت الحياة جامدة وغير متحركة . . ولا متطورة . . وتوقف تطور البشرية ونموها . . اذ ان الحياة تتطور من أن يضيف الانسان من ذاته ما تفاعل به مع بيئته . . ومع الكون ليصنع شيئا جديدا . . أي أن الله سبحانه وتعالى ينهانا أن نقف أمام قطعة من الأرض . . ولا نفعل شيئا ننتظر المطر ثم يظهر نبات . . أي نبات . . فنأكل منه . . أو ترعى منه الماشية . . ثم بعد ذلك لا شيء . . لا بد أن يعرف الانسان ويدرس كيف يحرث هذه الأرض . . وما هي النباتات الصالحة لها ليحصل على أجود النتائج . . لا بد أن يتعلم كيف يجعل هذه العناصر التي خلقها الله في الأرض لتنفعل به . . وتعطيه أحسن النتائج . . وهذا معنى الآية الكريمة . . فأتبع سببا . . أي أنه لم يقف ولم يقتصر على العطاء الذي أعطي له من الله . .

والذي يجب أن نعرفه .. أن منازل الدنيا لا علاقة لها بالآخرة .. فقد يكون رجل ذو جاه ومال في الدنيا .. أخذ من نعم الأرض الكثير .. ومع ذلك مصيره النار .. وقد يكون رجل ليس له حظ في الدنيا رزقه يكاد يكفي قوته .. هو من أهل الجنة .. تلك حياة .. وتلك حياة .. بل ان المترفين في نعيم الدنيا هم عادة أكثر بعدا عن الله من غيرهم .. ولذلك ضرب الله عدة أمثلة في القرآن .. ولكن هذا لا يجب أن يلهينا عن الحقيقة .. وهي أن من يتبع القوانين التي وضعها الله في الأرض .. بالنسبة للحياة الدنيا .. يأخذ نصيبه منها .. ومن يتبع قوانين الله بالنسبة للحياة الآخرة .. يأخذ نصيبه منها .

وكما أوضحت .. فان الله قد أمرنا أن نضيف من الأسباب التي أعطاها لنا في سبيل الرزق .. عملا .. لنحصل على أحسن النتائج .. وهذا العمل هو نوع من العبادة .. لأننا نطيع قوانين الله في الأرض .. وهو أعطانا أسباب الرفعة في الدنيا .. وفي الآخرة .. وعلينا أن نأخذ بهذه الأسباب .. ونعمل من أجل الدنيا .. ومن أجل الآخرة .. مصداقا لقوله تعالى : ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ .. فاذا كان هناك تخلف في الدول الاسلامية .. فالاسلام نفسه بريء من هذا التخلف .. لانه وضع أمامنا كل أسباب الرقي والتقدم .. وطلب منا العمل في الحياة الدنيا .. حتى يتحقق لنا ثمرة هذا العمل .. فاذا كنا قد تركنا أسباب التقدم التي هي موجودة في الاسلام .. فليس هذا عيب الاسلام .. وانما العيب في عدم تطبيق تعاليم الاسلام التطبيق الصحيح والسليم .

وانني أعجب من بعض الناس الذين يفسرون التوكل على الله بأنه دعوة الى عدم العمل والجهاد .. بينما هو في الحقيقة .. دعوة للجهاد والعمل .. والتأكد من أن النتيجة طيبة .. لأن الله يبارك هذا العمل .. ويبارك هذا الجهاد .. الصادر من قلب المؤمن .. ولكن بعض الناس يريدون أن يضعوا في الدين ما ليس فيه .. واذا كانت المسألة كذلك .. من أن نترك كل شيء لله .. ولا نعمل .. فلست أدري .. لماذا يتخلى هؤلاء الناس عن مبدئهم في أبسط الأشياء .. وهو الطعام والشراب .. فاذا عطش .. فهو يقوم ليشرب .. واذا جاء الطعام .. فهو يأكل ويبذل جهدا في تناول

الطعام ومضغه . . لماذا لا يترك كل هذا لقدر الله . . اذا كان المطلوب هو عدم العمل . . وعدم بذل أي جهد للانسان . . ولماذا يأتي الى هذه النقطة بالذات . . ويضيف عملا الى ما أعطاه الله .

هل جزاء الاحسان . . الاساءة ؟

كلنا نشكو من الجحود . . نحن جميعا نحس أن أحدا لا يقدر . . ولا يقدر ما نعمله من أجله . . نحس أننا مهما عملنا من طيبات للناس . . فان جزاءها في كثير من الأحيان لا يكون مثل العمل . . كل انسان منا في قلبه مرارة من ذلك . . وعلى لسانه شكوى . . ونلتفت الى السماء ونقول : يا ربي أنت قلت هل جزاء الاحسان الا الاحسان . . ولكن في هذه الدنيا نجد أنه في كثير من الأحيان يكون جزاء الاحسان الاساءة ونكران الجميل . . ونحن حائرون . . لا ندري كيف نفعل الطيب . . ثم نواجه بالخبيث . . ولا نعرف هل هذه قوانين الكون حقيقة . . أم أننا مخدوعون . . قال الشيخ محمد متولي الشعراوي : ان قوانين الله أزلية . . بمعنى أنها لا تتأثر بالزمان ولا بالمكان . . وانها لا يمكن أن تتصادم مع الحقائق الكونية . . لأن الله سبحانه وتعالى هو خالق الكون . . وهو الذي وضع قوانينه ونواميسه . . وما أخبرنا به في القرآن هو الحقيقة . .

هذه بداية يجب أن نعيها جيدا . . ليس فقط عما سنتحدث عنه اليوم . . ولكن عن كل شيء في هذا الكون . . فلا يمكن أن تتصادم حقيقة علمية مع ما ذكره القرآن . . الا في حالتين . . اذا لم تكن هذه الحقيقة قد بلغت مرتبة اليقين . . وبالتالي فهي ليست حقيقة علمية . . ولكنها في طور التجربة . . أو أن يساء تفسير الحقائق العلمية التي ذكرها الله في القرآن . . وهناك مثل بسيط لذلك . . سأقوله لك على أن لنا عودة في هذا الموضوع بتوسع . المثل هو قول الله تعالى : والأرض مددناها. ومددناها معناها بسطناها . . وعندما اكتشفت أن الأرض كروية . . وعرف ذلك يقينا . . هلل المهللون بأن هذا يتصادم مع الحقائق الموجودة في القرآن . . فالأرض كروية . . ومع ذلك يقول الله : اننا مددناها أي بسطناها . . بل ان بعض الناس كانوا يعتبرون مجرد ذكر . . ان الأرض كروية هو نوع من الكفر . . والحقيقة غير ذلك تماما . . فما معنى قوله سبحانه وتعالى الأرض مددناها . . معناه أنك في أي مكان تصل اليه من العالم تجد أمامك الأرض ممدودة . . أي منبسطة . .

اذا ذهبت الى القطب الشمالي . . أو القطب الجنوبي . . أو خط الاستواء . . . أو الى أي بقعة في الأرض تجد الأرض منبسطة أمامك . . وهذا لا يتأتى الا اذا كانت الأرض كروية . . فلو كانت الأرض مربعة . . أو مسدسة . . أو مثلثة . . أو على أي شكل آخر من الأشكال . . لوصلت فيها الى حافة . . الى مكان تجد أن هناك حافة للأرض . . ونهاية لها . . ولكن لكي تجد الأرض منبسطة أمامك في كل مكان تذهب اليه . . فلا بد أن تكون الأرض كروية . . اذن فقوله تعالى : والأرض مددناها . . يؤكد ويحتم أن الأرض كروية . .

يأتي بعد ذلك مسألة الاحسان . . وهناك نوعان من الاحسان . . نوع تبتغي به وجه الله تعالى . . ونوع تبتغي به وجه الانسان . . النوع الأول الله وعدك الحسنة بعشر أمثالها . . فأنت حين تقدم الاحسان مبتغيا وجه الله سبحانه وتعالى . . فانك ستحصل من الله على جزائك الحسنة بعشر أمثالها . .

ولكن بعض الناس يقدم الاحسان مبتغيا رضاء البشر . . لا رضاء الله . . فهو يحسن الى ذلك الانسان لأنه مخلص له . . أو لأنه ينفعه . . أو لأن له عنده خدمة يريد أن يؤديها له . . أو لأن له غرضا من ذلك . . بأن يطوق عنقه بجميل . . أو ينال منه شيئا . . ذلك الاحسان ليس لله فيه من شيء . . فأنت حين قمت به . . قمت ارضاء للبشر . . ارضاء للانسان . . واذا كنت تفعل شيئا لترضي بشرا . . فيجب أن تنال جزاءك من البشر . . والانسان خلق ظلوما . . ومن هنا فانك لا تستطيع . . وأنت تبتغي رضى الانسان أن تطلب الجزاء من الله . . لأنك لم تفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله . . ولا فكرت ثانية واحدة فيما يرضي الله أو يغضبه . . انما كان كل همك أن ترضي بشرا . . وان تحصل على رضى بشر . . وأن تنال غرضا من بشر . . ومن هنا كان الجزاء من نوع العمل . . جزاءً بشريا .

فالاحسان حين تقصد به وجه الله . . جزاءه الاحسان . والحسنة بعشر أمثالها . . مصداقا لقوله تعالى : ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله . . لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ﴾ . . فما دام هو لوجه الله . . وما دمت لا تريد جزاءً من بشر ولا شكرا . . فان ما تناله هو الاحسان في الدنيا والآخرة . . ولكنك اذا أرت بهذا الاحسان بشرا . . وأردت به رضاء بشر . . أو

الحصول على رضاه . . فانك تطلب رضى الناس . . ولا تطلب رضى الله . . فجزاؤك من الناس يخضع لمقاييسهم وأخلاقهم . والانسان الذي أنعم الله عليه بنعمة الحياة والرزق والأمن . . وكل نعم الدنيا التي لا تعد ولا تحصى . . أحيانا يكفر بخالقه واهب الحياة له . . ومعطيه كل هذه النعم . . فما بالك اذا كنت أنت تحسن اليه احسانا محدودا . . وتريد منه الجزاء عليه . .

قلت : هناك آية كريمة ﴿وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك في الكتاب مسطورا﴾ . . وهذه الآية يفسرها بعض الناس على أساس ان الدنيا كل قرية فيها ستهلك قبل يوم القيامة . . أي أن كل قرية مكتوب عليها الهلاك . . فهل هذا التفسير سليم . .

قال الشيخ محمد متولي الشعراوي :

عندما نستعرض حضارات الأرض . . فاننا نجد أنها تقوم على أسباب مختلفة . . أحيانا تقوم على أساس اقتصادي . . وفي أحيان أخرى على أساس عسكري . . في مرة ثالثة يستطيع التمكن من العلم أن ينشأ حضارة قوية تسود الأرض . . المهم ان الحضارة هي نظام أو منهاج أو طريق للحياة استولى على أسباب التمكن في الأرض . . وأحيانا يكون الاستيلاء بالقوة . . دون أن تكون أسس الحضارة نفسها ومقوماتها موجودة ومتأصلة . فهناك امبراطوريات قامت وسادت الأرض على أساس القوة العسكرية وحدها . . بينما لم تكن تملك من أسباب الحضارة الأصيلة شيئا سوى قدرتها على القتال والفتح وهناك حضارات كانت تملك بجوار القوة والمنعة التي مكنتها من أن تسود الأرض . كانت تملك أساسيات الحضارة نفسها . . والتاريخ شاهد على ذلك . . فهناك حضارات بربرية قامت على أساس الفتح العسكري وحده . . وهناك حضارات أقامت بجانب الفتح العسكري أسساً أخرى للتقدم في الحياة .

فاذا كانت أي حضارة أو أي أمة تسود . . فالمفروض أنها بعد ذلك بعد أن سادت ونمت تؤصل نفسها وتثبت بنيانها . . وتبقى شامخة قوية على مر التاريخ لا يستطيع الزمن أن ينال منها . . خصوصا اذا كانت هذه الحضارة تملك بجانب أسباب

التمكن في الأرض . . الأساسيات التي تجعلها متقدمة وسابقة لكثير من الأمم . . ولكن الذي يحدث أن كل حضارة تقوم تأخذ فترتها وتزول بعد ذلك . . مع أن هذا ضدمنطق الأحداث . . فالذي أقام حضارة من لا شيء . . وتمكن في الأرض . . أسهل عليه أن يثبت ما استطاع أن يصل اليه . . فاذا كان فد أنشأ فعلا حضارة من لا شيء . . واستطاع أن يسود . . وهذا أصعب الأمور . . فان الاحتفاظ بهذه الحضارة . . وهو سيد الأرض . . يكون عملا أسهل . . ولكن الحقيقة غير ذلك . . فاذا رجعنا للتاريخ . . نجد أن كل حضارة لها عمر . . وتنتهي كالانسان تماما .

ولكن لماذا تنتهي الحضارات . . الحقيقة ان الذين يقومون بها . . يدخلون على الحضارة . . وهم يعملون بجد واخلاص واجتهاد . . فأعطاهم هذا الجد والاجتهاد . . الحضارة التي طلبوها . . أو أرادوها . . وعندما وصلوا اليها تركوا هذا الجد والاجتهاد . . وتركوا المثل التي قامت عليها الحضارة من تضحية وشجاعة وعمل . . وبدأوا ينعمون بما تقدمه لهم الدنيا التي تمكنوا منها . . وينحرفون عن طريق العمل الى طريق المتعة والاسترخاء . . والظلم . . فضاعت منهم هذه الحضارة . . وزالت عنهم أسباب التمكن في الأرض . . وتكرار الحضارات عبر التاريخ . . خير دليل على ذلك . .

نأتي بعد ذلك الى الحكمة من الآية الكريمة . . فان الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا انه من الممكن أيها الانسان بجدك واجتهادك وتفانيك . . تستطيع أن تأخذ أسباب التمكن في الأرض . . ولذلك نجد أن كل مؤسسي الحضارات . . هم أناس تفانوا في الحق . . وتفانوا في الاخلاص لما يؤمنون به . . وعملوا وفي قلوبهم مثل وهبوا حياتهم لها . . ثم يأتي بعدهم قوم لينعموا بهذه الحضارة . . هؤلاء القوم ورثوها بلا تعب . . ولا جهاد . . ولا مثل . . وجدوها هكذا أمامهم توفر لهم أسباب الترف والعبث . . وعدم العمل . . وتختفي المثل التي قامت عليها الحضارة . . ليحل مكانها تمتع بلا حدود . . وتبدأ الحضارة في الانهيار . . ويستخدمونها في الفساد . . فانشاء الحضارات يتم من الذين لم يتنعموا بهذه الحضارة . . ويظلون طوال حياتهم يتفانون ويعملون من أجل ما آمنوا به . . دون أن يتمتعوا بأي شيء . . ثم يأتي الفساد على يد الذين من بعدهم . . الذين لم يتعبوا في هذه الحضارة . فتضيع منهم أسباب الحضارة . . وبالتالي فانها تزول .

والعجيب ان الذين ينشئون الحضارات . . لا يتركون أسرارها لأحد . . فقدماء المصريين مثلا لم يتركوا لنا سر بناء الأهرامات . . أو سر تحنيط الجثث . . أو غير ذلك من الأسرار التي مكنتهم من أن يسودوا في الأرض . . تركوا لنا حكاياتهم وقصصهم . . ونحن أحيانا نستنبط الأسباب . . لماذا قامت الحضارة . . ولماذا زالت . . ولكن هذه الأسباب في مجموعها . . قد تمثل جزءا بسيطا من حقيقة الأسرار التي وصلوا اليها . .

والمسألة كلها تتبع قانون الأزلية . . ان الانسان حين يحتفظ بقيمه تظل له السيادة في الأرض . . وحين ينحدر عن هذه القيم تزول عنه هذه السيادة . . ولذلك يقول ابن خلدون . . انك اذا رأيت الحضارة تصل الى قمتها . . فاعلم أنها في طريقها الى الزوال . . لماذا ؟ . . لأن الذين ينعمون بها وهي في قمتها . . غير الذين أقاموها . . بل انهم جيل آخر . . أخذها بلا قيم . . واستخدمها منحرفا . .

ونحس في معنى الآية الكريمة . . ان الله سبحانه وتعالى وهو الذي خلق الانسان ويعرفه حق المعرفة . . يقول له : انه ما من حضارة تقوم في هذه الدنيا إلا وهي ستزول . . وان من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة . . أو معذبوها عذابا شديدا . . كان ذلك في الكتاب مسطورا . . وأنها ستزول لأن الذين يؤتون أسباب هذه الحضارة ينحرفون عن الطريق . . ويلجأون الى الفساد . . اذا نظرنا حتى في التاريخ الحديث . . وفي الأحداث الأخيرة . . نجد أنه ما من بلد يسود فيها الفساد . . وتنهار فيها القيم . . ويتم فيها البعد عن الله . . إلا وتهلك حضارتها . . أو تصاب بعذاب شديد . . ذلك أن الأمانة في الدنيا هي في اتباع طريق الله . . وليس الأمان بمقاييس يستطيع الانسان أن يضعها مهما وضح فكره . . وحدد مقاييسه . . وفكر ودبر . . إنه يفشل في الوصول الى أين يكمن الأمان الحقيقي . . ولعل ما حدث في لبنان أخيرا التي كانت تعتبر قمة الأمن والأمان . . وتحولت اليها كل رؤوس الأموال . . وكان كل انسان يريد أن يكون آمنا على نفسه وماله . . يذهب الى هناك . . أو يرسل أمواله الى هناك . . ثم ماذا حدث . . انقلب الأمن خوفا . . ذلك أنه كان آمنا بمقاييس الدنيا . . وليس بمقاييس الآخرة . .

لقد خلقنا الانسان في كبد

ان الانسان يكابد في هذه الدنيا . . ويعاني . . حتى أولئك الذين وضعهم الله على قمة النعم الدنيوية . . وأعطاهم كل ما تستطيع الدنيا أن تهب . . يعانون ويكابدون داخل أنفسهم . . ذلك أن الانسان بطبعه يزهد ما في يده ولا يقدره . . وينظر الى ما في يد الناس . . . وكلما حرم الانسان من شيء أحس أن سعادة الدنيا فيه . . وقد يكون هذا الشيء يحمل اليه الشقاء . . ولكنه رغم ذلك يحس بسعادة الدنيا فيه . . لأنه محروم منه . .

فالذي يملك نعمة الصحة مثلا . . يرى السعادة في المال . . والذي يملك نعمة المال . . يعرف أن السعادة في الصحة . . والذي أعطاه الله نعمة الستر مثلا . . يرى أن السعادة ربما في كل شيء الا ما أخذ . . مع أن بعض الناس في لحظة من لحظات حياتهم يتمنون أن يأخذ الله كل ما أعطاهم . . . ويسترهم . . والذي أعطاه الله نعمة الطمأنينة . . لا يقدرها . . ويبحث عما ينزع من نفسه ما هو فيه من نعمة كبيرة . .

هذه هي سنة الحياة . . ولقد كان لقائي مع الشيخ محمد متولي الشعراوي وزير الأوقاف وشؤون الأزهر . . عن معنى الآية الكريمة ﴿لقد خلقنا الانسان في كبد﴾ وما هو معنى كلمة كبد الذي يعيش فيه الناس . .

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي . . ان الانسان بطبيعة تكوينه مكابد . . فالذي يريد أن يكون الانسان مرتاحا . . هو رجل لم يفهم سر خلق الله . . لأن الله سبحانه وتعالى خلق الانسان مكابدا . . خلقه طاقة . . وميزه فكرا . . طاقة مثل التي في الحيوان تماما . . فيه جزء حيواني . . ذلك الذي ينمو ويعيش بنواميس الدنيا التي تنطبق على الأجساد الحية . . والتي تشترك فيها بطبيعتها معظم الكائنات . . ولكنه ميزه عن كل هذا الخلق بالفكر . . أي أنه فضله على جميع مخلوقاته بإعطائه الفكر . . لماذا ؟ . . أرأيت جيلا من الحيوانات يقول انه يجب ان نرتقي بمعيشتنا . . وننشىء لنا زرائب على أحدث

نظام . . ونغير طعامنا بطعام أفضل . . ونخترع الدواء لأمراضنا . . ونحاول أن نحل مشاكلنا بأنفسنا . . أرأيت جيلا من الحيوانات يفعل ذلك .

أرأيت حيواناً حينما يوضع الطعام أمامه يقول : أنا آكل ذلك . . ولا آكل هذا . . أو يقول : ساوفر جزءا من هذا الطعام الى غد . . أو سادخر جزءا من الطعام الذي أمامي للأيام القادمة . . أرأيت حيواناً حينما يشبع يظل يأكل . . أو انك ضربته مهما ضربته ليأكل أكثر يستجيب لك . . أبدا . . إنه يأخذ حاجته فقط . . ثم بعد ذلك يترك الطعام . . ولا يأخذ عودا من البرسيم زيادة . . مهما كانت الوسائل التي تستخدمها معه . .

نأتي بعد ذلك للانسان في هذه الناحية . . اذا أكل وشبع . . ثم قلت له : هذا الصنف من الطعام جيد . . يجب أن تتذوقه . . أو أحضرت له طبقا من الطعام شكله مغري . . وزينته له . . فانه رغم شبعه يأكل . . ويأكل . .

فبينما الحيوان يأكل على قدر الغريزة فقط . . نجد أن الانسان تدخل فيه قدرة الاختيار الذي وضعه الله فيه . ليتخذ قرارا . . وأحيانا يكون هذا القرار ضارا به . . وأحيانا يكون نافعا . . ولكن له القدرة على اتخاذ القرار . . بحيث يستطيع أن يأكل . . أو لا يأكل . . بعد أن شبع . . وأن يفعل شيئا . . أو لا يفعل . . ليس مدفوعا بالغريزة . ولكن باختياره الخاص . . وقراره . .

نمضي بعد ذلك . . أرأيت حيواناً نم على حيوان . . ارأيت حيواناً أخذ منه ابنه وذبح وامتنع عن الأكل أو الشرب . . أرأيت حيواناً يريـد أن يبقى ابنه بجواره بعد أن أصبح هذا الابن يستطيع أن يعتمد على نفسه . . ويحصل على قوته بقدرته . . أنه يرعاه غريزيا . . طالما هو محتاج الى هذه الرعاية . . عاجز على أن يحصل على طعامه وشرابه بنفسه . . فاذا وصل الى القدرة على الحياة بمفرده . . انفصل عن الأب . . وانتهى كل شيء . . أي أنه لا يتعلق بأبنائه . . بعد أن انفصلوا عنه . . وأصبحوا قادرين على الحياة . . ولا يبحث عنهم . . أين ذهبوا . ولا الى أين اتجهوا . . ولا ماذا جرى لهم . . إن مهمته قد انتهت . . بمجرد أن اعتمد أولاده على أنفسهم . . أرأيت حيواناً له بدائل في الانفعالات . . أنت اذا آذيت الكلب مثلا . . يعضك . . والحمار أو الحصان

يرفسك . . أي أن انفعاله له شيء واحد لا يتغير . . بينما الانسان له عشرات البدائل من الانفعالات . . فاذا ضربك شخص . . فأنت تستطيع أن ترد الضربة . . أو تردها أشد . أو أقل . . أن تؤذيه أكثر . . أو تصفح عنه . . أو تحسن اليه . . بدائل لا حدود لها موجودة عند الانسان وحده . . وما دامت هذه البدائل موجودة . . فلا بد أن هناك في الانسان شيء يجعله يختار . . أو يميز بين هذه البدائل . . بحيث يتخذ القرار . . أما الذي ليس عنده سوى بديل واحد . . فهو غير محتاج الى فكر ليميز به بين البدائل التي أمامه . .

وهنا يأتي معنى الآية الكريمة . . ﴿لقد خلقنا الانسان في كبد﴾ . . فأنت وأمامك هذه البدائل كلها . . أو الانسان وهو أمامه هذه البدائل كلها . . مطلوب منه أن يختار . . ماذا يفعل ؟ . . هل يفعل هذا أم ذاك . . هل يرد الاساءة . . أم يواجهها بالاحسان . . هل يستقيل من وظيفة ويبدأ عملا حرا . . أو أنه قد يفلس اذا قام بهذا العمل . . وهل يضمن غده . . أمامه بدائل متعددة . . أيها خير . . وأيها شر . . لو اختار هذا . . هل اختار الصواب أم الخطأ . . لو اتخذ هذا القرار . . ما هو أثره على غده . . ومستقبله . . لو فعل كذا . . أيأتي يوم يندم على ما فعل . . اذا ضاعت هذه الفرصة . . فهل ستأتي فرصة غيرها . .

اذن . . فهو ان امتنع عن اتخاذ القرار . . فهو في كبد . . لأنه يحس أنه ربما أخطأ . . وربما فاتته الفرصة . . واذا اتخذ القرار . . واختار أحد البدائل فهو في كبد . . لأنه يحس أنه ربما قد أخطأ فيما فعل . . اذا قال نعم . . فهو في كبد . . ربما كان يجب أن يقول لا . . واذا قال لا فهو في كبد . . ربما كان الخير في كلمة نعم . . وهكذا لا يخرجه من الكبد أن يتخذ القرار . . أو لا يتخذ . . أو أن يقوم بالعمل . . أو يمتنع عنه . . انه يعيش في كبد دائم .

وهنا يجب أن نعرف أن كلمة الانسان حين تطلق . . يراد بها الانسان على اطلاق خلقه بدون تميز . . هذا الانسان هو الذي يكابد دائما اذا وافق أو امتنع أو اتخذ أي قرار . . ولكن ما الذي يصل بالانسان الى الراحة . . ويبعده ويذهب عنه هذا الكبد . . انه الايمان . . ولذلك عندما تأتي الى الانسان . . وتأخذه بغير ايمان . . وتطلقه لغرائزه . .

فانك تجد أن كل قدر يواجهه . . يعتبر شرا . فاذا لم يحصل على المال فهو شر . . واذا حصل على المال . . خاف من الحسد والسرقة . . أو ضياعه . . أو انفاقه . . ولذلك فهو في شر . . اذا كان صحيحا معافى . فانه لا يعتبر هذا نعمة . . وانما يأخذها على أساس أن ذلك هو المفروض . . ويبدأ بعد ذلك في النظر الى النعم التي أنعم الله بها على غيره من خلقه . . وفي نفسه مرارة وحسرة . . فاذا أصيب بالمرض أحس أنه شر . . وبدأ يعرف قيمة نعمة الصحة . . فكل قدر في نظره . . يمثل شرا . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى ﴿ان الانسان لفي خسر﴾ . . ﴿وان الانسان خلق هلوعا﴾ . . هذه هي طبيعة تكوينه . . طبيعة خلقه . . ما الذي ينزل السكينة على قلبه . . ويجعله لا يكابد في الحياة . . انه المنهج والايمان . . ولذلك فان الله سبحانه وتعالى استثنى وقال : في أكثر من موضع ﴿الا الـذيـن آمنوا﴾ . . اذن ماذا يخرجني من كبد الدنيا . . ومن المعاناة فيها ؟ . . انه الايمان . . ولذلك فان النبي ﷺ . . المؤمن بخير على كل حال . . فما دام قد آمن . . فالمؤمن يفسر كل شيء بالمنهج الذي يؤمن به . والله يقول في أكثر من موضع . . ﴿فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾ . . ويقول الله سبحانه وتعالى : ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير . . ومعنى ذلك أن الانسان لا يعرف مقاييس الخير التي وضعها الله . . وانما هو في دعائه وكرهه لأشياء تحدث له . . انما يستخدم مقاييسه الخاصة التي قد تصور الخير على أنه شر . . وتصور له الشر على أنه خير . . فيدعو من أجل الشر . . ومقاييس الانسان قاصرة عن الحقيقة . . أما مقاييس الله سبحانه وتعالى فهي المقاييس المطلقة التي يجب أن نلتزم بها . . والتي تميز الخير عن الشر . . كما لا نستطيع نحن بادراكنا المحدود أن نميزه . . ومن هنا فان الانسان قد يدعو بشيء . . ويقول ربي . . انني أريد هذا . . انني أطلب هذا ويقول الله سبحانه وتعالى أنت لا تعرف أين الخير . . ان ما تطلبه هو شر . . وأنا أريد لك الخير . . ولذلك لن أعطيك ما تطلب . . ويحزن الانسان لأن الدعاء لم يجب والطلب لم يتحقق . . ولو أوتي العلم لعرف أن الله كان رحيما به . . وانه منعه من شر كان سيأتي . . وان الله أراد أن يعطيه الخير . . فلم يستجب له . . ولأضرب مثلا بسيطا . . اذا طلب ابنك منك أن تشتري له مسدسا . . هو يعتقد أن هذا خير . . ذلك أن المسدس سيجعل له سطوة بين أصدقائه . . ويحميه من أي شخص يعتدي عليه . . ويجعله آمناً قوياً الى آخره . . هو يعتقد أنه خير . . ولكنك بمنطق الأب

ترفض أن تشتري له هذا المسدس لأنك تعلم أنه شاب صغير . . وأنه قد يتهور فيقتل أحدا . . أو يفقد أعصابه وسيطرته على نفسه حينها يتشاحن مع أي شخص أو يسبه أي شخص فيحدث ما لا تحمد عقباه . .

هو يتصور بأنك منعت عنه الخير . . لأنك لم تشتر له المسدس الذي يطلبه . . وأنت واثق أنك منعت عنه شرا . . وشرا كبيرا بعدم استجابتك لطلبه .

ولذلك فان المؤمن يجب أن يعرف أن الخير فيما اختاره الله . . وأنه ما دام الايمان في قلبه . . والاخلاص لله هو منهجه . . فان الله لن يتخلى عنه أبدا . . مصداقا لقول الله تعالى ﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم﴾ . . وقوله تعالى ﴿ان الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ وقوله تعالى ﴿ومن يتقي الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ وآيات أخرى في القرآن الكريم . . فالمؤمن بطبيعته يعرف أن الله معه . . وأنه لن يتخلى عنه أبدا . . وأن الخيرة فيما اختاره الله . . ولذلك . . عندما يحدث له . . ما يعتقد هو أنه شر . . فانه يعرف أن ذلك خير له . . وأن الله قد منع عنه ما طلب . . أو ما تمنى . . لأنه يريد أن يقيه من شر حقيقي . . وأعطاه غير ما يطلب لأن في ذلك خيراً وخيراً كثيراً وهكذا يعيش الحياة دون أن يكابد أو يعاني بل يعيش بنفس مطمئنة وقلب مرتاح . . فطريق الراحة في الحياة هو الايمان . . انه هو الذي يخلصك من تعب الدنيا ومعاناتها ومشاكلها . .

ان الحديث عن الرزق يشغل الناس في الدنيا . . بل يكاد يكون هو همهم الأكبر . . وما دام الرزق مقدرا . . ومكتوبا . . فلماذا العمل . . قال الشيخ محمد متولي الشعراوي . . انه ما دامت الدنيا هذا أملها المحدود . . فلا يجب أن نعطيها فوق طاقتها . . نعمل العمل . . ولا نطلب الا الثواب من الله . . ولقد أعطى الله في القرآن قضية اسمية في رسول الله . . في نساء النبي . . حين استتب الأمر لهذا الدين . . وكثرت الغنائم . . فأحببن أن يعشن عيشة يملأها زخرف الدنيا وبهجتها . .

ويمضي الشيخ محمد متولي الشعراوي في الحديث فيقول : حينئذ نزلت الاية الكريمة :

يا نساء النبي . . **﴿ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة . . فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما﴾** . . اذن فالقضية في أمر الدين . . أعلاما بها . . وصيانة لها . . وحملا للناس عليها . . فالجزاء هو الجنة . . والذي يريد ثمنا غير هذا . . يكون قد أرخصها . . فالذين يتأسون برسول الله . . وبحياة رسول الله . . يجب ألا يغيب عنهم هذا القول . . لأنه اذا غاب عنهم سيتعبون في الحياة الدنيا . . ويتعبون في كل ما يحدث . . وسعادته لا تنبع مما يحدث . . ولكن تنبع من داخله . . فالسعادة في حقيقتها لا تنبع مما يحدث للناس . . ولكن تنبع مما في داخلهم . . ومما في أنفسهم . . فقد يحدث حدثان متشابهان لشخصين . . فاذا أحدهما سعيد وراض بما حدث . . واذا الثاني شقي تعيس بما تم . . مع أن الحدثين واحد . . والشخصين ظروفهما متشابهة . .

فمثلا يحدث أن يتقدم شخصان متشابهان في كل شيء الى صفقة معينة أو شراء شيء معين بقصد التجارة . . وتفشل العملية . . أحدهما يكون شقيا يلعن حظه . .

ويلعن الحياة . . ذلك هو من يريد الدنيا . . فهو مؤمن بقصر نظره . . وعدم علمه . . وتفضيله العاجل على الآجل . . والعائد السريع القليل على العائد البعيد الوفير الكثير . . ذلك الانسان الذي يرى من الدنيا ظاهرها . . ويؤمن بأنه هو الحكم الوحيد على ما يحدث سواء خيرا أو شرا . . ومن هنا فهو يعتقد أن ما حدث له هو شر . . وشر مبين . . فتضيق نفسه . . وتضيق الحياة في وجهه . . . وتملأه الانفعالات . . ويوضع في قلبه السخط . . والتبرم والتشاؤم . .

ورجل آخر له نفس الظروف . . ولكنه يحترم قدر الله فيه . . ويعرف أنه مهما أعطي من العلم . . فقد أعطي القليل . . وأن علم الله لا تدركه العقول والأبصار . . ومن هنا فهو يؤمن أن ضياع هذه الصفقة هو شر أراد الله أن يبعده عنه . . وأن الله في قدره . . انما أراد له الخير لأنها لو تمت لكانت ربما قد أدت الى أحداث كثيرة لا يتمناها . . ولا يريدها . . ومن هنا فنفسه راضية . . وقلبه مطمئن الى قضاء الله . . وهو راض يعرف أن ما أذهبه الله عنه . . وإن كان ظاهره خيرا . . الحياة الدنيا . . ويتعبون في كل ما يحدث . . وسعادته . . الا أن باطنه وحقيقته هو الشر . . ويعرف أن الله قد ادخر له في المستقبل القريب ما هو أحسن من هذا . . وأكثر خيرا . . ويعرف أنه باحترام قدر الله فيه . . انما يكون من أهل الجنة الذين فازوا . . فازوا الفوز العظيم . . لأنهم اختاروا الجزاء من الله أولا وأخيرا . . وهذا الجزاء يصله لا بقدراته هو . . ولكن بقدرات الله . . ولا بوقته الضيق . . ولكن بالخلود الذي وعده به الله . .

وإذا كان الله في بالك . . فأحداث الدنيا كلها لا تؤثر فيك . .

قلت للشيخ محمد متولي الشعراوي : إن هناك قضية هامة في الاسلام هي قضية التوكل على الله . . وهناك خلط عند المسلمين بين قضية التوكل والتواكل . . فالذين يريدون أن يأخذوا بالمعنى الظاهر . . يقولون انه ما دام كل شيء بقدر . . فلماذا العمل والتعب . . وما دام الرزق مقدر . . ولكل انسان رزقه . . فلماذا نتعب أنفسنا في قضية الرزق . . وهذا التواكل في رأي بعض المستشرقين هو أحد أسباب تأخر الدول الاسلامية . . حيث لا يأخذ العمل جديته . . ومقاييسه الدنيوية . . وحيث لا يأخذ الحرص مكانه الحقيقي . . وحيث يترك كل شيء لقدر الله . .

قال : ان الانسان فيه أشياء لا دخل له فيها . . وأشياء أخرى تخضع للاختيار . . فمثلا نمو الانسان كونه يولد طفلا . . ثم ينمو شابا . . ثم رجلا . . ثم دور الكهولة . . حتى يأتي قدره . . مشكلة لا دخل له فيها . . فهو لا ينمو باختياره . . ولا يستطيع مثلا أن يوقف نموه . . ويقول : سأظل طفلا . . ولن أنمو لأصبح رجلا الى اخر هذا . .

يأتي بعد ذلك ما يحدث للانسان في حياته . . وهذا نوعان . . نوع يأتي من خارجه . . وهو قدر الله فيه . . لا يستطيع أن يوقفه أو يتحكم فيه . . مثل ذلك أن يكون الانسان يعمل في مصنع مثلا . . أو في مكان ما . . ثم يفقد وظيفته لأن الشركة أفلست . . أو لأنها تريد الاستغناء عن عدد من الموظفين . . ومثل ذلك أيضا ما يقع للانسان من عشرات الحوادث كل يوم . . التي هي تخرج عن ارادته . . ولا يستطيع أن يتحكم فيها . .

وهناك الجزء الاختياري . . الذي لإرادة الانسان دخل فيه . . وهذا له قوانين وضعها الله سبحانه وتعالى . . فالذي يعمل مثلا يحصل على نتيجة عمله . . كل شيء له أجر وله مقابل . . ورزقك لا بد أنه آتيك . . هذا هو موضوع البحث . .

كل عناصر الرزق موجودة في الأرض . . ولكن المهم أنها تصل اليك . . تماما كما تشتري لبيتك كل ما يحتاجه طوال الشهر . . وتخزنه وتضعه في البيت . . اذن الرزق موجود في البيت . . كل عناصره موجودة ومتوافرة . . وفي متناول يدها . . والذين يقولون التوكل . . ويثيرون هذه القضية بهذا المعنى . . انما هم أولئك الذين يريدون أن يفروا من كل عمل يورثهم تعبا . . أما كل عمل يورثهم لذة . . لا يؤمنون بالتوكل فيه . . فهم يناهضون أنفسهم . . ويحاولون الهروب من أي تعب . . انه يتوكل حتى يصل الرزق اليه . . ويوضع الطعام أمامه . . ولكن عندما يوضع الطعام أمامه . . وهو جائع . . فانه ينسى في هذه اللحظة ما كان ينادي به . . ويبدأ في تناول الطعام . . باذلا بذلك جهدا في تناوله ومضغه حتى يشبع جوعه . . فلماذا لا يتوكل حتى يدخل الطعام الى بطنه . . دون أن يبذل أي جهد . . ولماذا هنا في هذه النقطة بالذات التي تتعلق بلذة الطعام . . وإشباع الجوع . . لم ينتظر ويتوكل حتى تدخل اللقمة فمه . . ثم تنزل الى

معدته حتى تملأ بطنه . . اذن أنت توكلت فيما يتطلب منك مجهودا . . أما فيما يحقق لك لذة فعلت . . ولو كنت صادقا في التوكل عندما وضع أمامك الطعام . . ظللت جالسا بلا حركة . . ولا مجهود . . حتى يدخل الطعام في فمك . .

ومن هنا فان الله سبحانه وتعالى يوفر لنا أسباب الرزق كلها في الأرض . . تماما كما يقول صاحب البيت للمسؤولة عن البيت : ان كل ما تحتاجينه خلال الشهر موجود عندك في المخزن . . كونها لا تريد أن تتعب نفسها وتعد الطعام . . هذه مسألة أخرى . .

وأولا يجب أن نحدد ما معنى كلمة الرزق . . الرزق تنتظر حتى يصلك حلالا . . فوصل اليك عن طريق الحرام . . وأنت ستأخذه . . سيصلك حتما . . ولكنك تعجلت . . ولو لم تغتصبه . . وترتكب الذنب لكان قد وصل اليك حلالا . . ولكن الله سبحانه وتعالى يشاء في قدره أن يبين لنا أن الأسباب لا تملكه . . أنه هو الذي قرر الأسباب . . وهو الذي وضع لها نتائج . . مشيئته هي النافذة . . لكي تعرف وتؤمن أن قدر الله لا تملكه الأسباب . . يقول الله سبحانه وتعالى لكي تعرف أن الأسباب لا تملكني . . فسأحرمك من أشياء تسببت فيها وتعبت . . وذلك حتى لا تفهم أن عملك هو الذي يرزقك . . سأجعلك تعمل عملا . . ويفشل . . تزرع الأرض لتسقيها وتعتني بها . . وتبذل فيها كل جهدك . . وتأخذ بكل الأسباب . . ثم يهلك المحصول . . ثم بعد ذلك يأتي لك رزقك من حيث لا تدري ولا تحتسب . . وأمامنا الأمثلة كثيرة في الدنيا . . لا بد يكون لديها مساحة شاسعة من الأرض المزروعة المعتنى بها والجيدة المحصول . . ثم يأتي أعصار أو فيضان . . فيهلك كل هذا . . تصبح البلد لا تملك غذاء يومها . . ولا ما يكفي قوت أبنائها . . ثم تسارع الدول الأخرى الى نجدتها . . فيأتيها الرزق من حيث لا تحتسب ولا تدري . . وتفاجأ بهذه الدولة تعطي . . وهذه الدولة تعطي . . من حيث لم تكن تحتسب ولا تدري . . ان الرزق سيأتيها من هذا المجال . . وذلك حتى لا نفهم أن الأسباب وحدها هي التي تعطي . . وبعد ذلك يأتينا الرزق من مكان لم نكن نتوقعه . . كأن يظهر محصول وفير غير متوقع في منطقة أخرى من نفس البلد . . والانسان عنده أمران . . أمر أن يعمل لكي يصل الى الرزق . .

وهذا أمر صريح . . وأمر آخر ألا يتكل على العمل . . ويتجاهل قدرة الله وقدره . . ولذلك يقال : الجوارح تعمل والقلوب تتوكل . فالتوكل صفة القلوب . . وليس صفة الجوارح . . الجوارح مطلوب منها أن تعمل . . ولا أفهم أن هذا العمل يمكن أن يترك بحيث لا يؤدي بواسطة الجوارح . . وأن يعطي الانسان لنفسه صفة عدم العمل بحجة التوكل . . ولقد شرحت هذه المسألة بوضوح في الحج . . عند السعي مثلا . . وقلت : هذا أب يترك امرأة ووليدها في مكان ليس فيه السبب الأول من أسباب الحياة . . وهو الماء . . وعندما قالت له زوجته أين تتركنا في هذه الصحراء الجرداء التي ليس بها نقطة ماء واحدة . . أنت تفعل هذا بأمر الله . . أم بأمرك انت . . فلما قال لها ان ذلك بأمر الله . . قالت : اذن لا يضيعنا . . اذن فهي آمنت أن ما دام ذلك بأمر الله . . وما دام ذلك أمرا . . فان الله قد أعد مخرجا . . ولكن هل منعها ايمانها ذلك حين عطش وليدها أن تذهب الى الصفا والمروة لتبحث عن بعض المارة . . أو ظل . . أو طير تهتدي به الى الماء . . لا لم يمنعها . . فذهبت الى الجبل من ناحية الصفا . . ومن ناحية المروة . . لتبحث عن الماء علها تهتدي اليه . . وكان يكفيها مرة واحدة . لكي تبرر لنفسها أنها عملت . . وأخذت بالأسباب لتهتدي الى الماء . . ولكنها اجتهدت في ذلك سبعة أشواط . . وهو أقصى ما يمكن لمجهود امرأة مثلها أن تفعله . . ثم تعبت . . وربما لو لم تتعب لواصلت السعي . . اذن فهي آمنت بأن الله لا يضيعها . . وانها موجودة هنا بأمر الله . . ولكنها مع ذلك لم تترك العمل . . ولم تترك الأسباب . . وسعت بين الصفا والمروة حتى تعبت . . ولم تستطع مواصلة السعي . . سعت وسعت بقدر بالجهد . . ولقد أراد الله أن يبين لنا من هذا حكمتين . . فلو أنها وجدت الماء وهي تسعى . . لكانت هنا الأسباب وحدها تكفي . . . ولكنه أراد أن يبين لنا أنه رغم اليقين بأن الله سيجد لنا مخرجا . . فان السعي واجب . . أو العمل واجب . . والحكمة الثانية . . أنها بعد أن قامت بهذا المجهود . . وجدت الماء تحت قدمي طفلها . . وكأن الله أراد أن يقول لها . . . أنت سعيت وعملت ما في جهدك . . وأنا لم أضيعك وأخرجت لك الماء بضربة من قدم طفل وليد . . ولكنها رغم ذلك لم تضيع الأسباب . . وسعت . . ومن هنا فان التوكل هو عمل القلب . . وليس عمل الجوارح . . والناس تأخذ التوكل على أنه عمل الجوارح . .

الخمر هل هي محرمة ؟

لم أدخل في حياتي في مجالات حول موضوع ديني مثل موضوع الخمر . . وتحريمها . . ذلك أن هذا الموضوع تجد فيه أكثر من انسان يتطوع بالفتوى . .

بل انني شهدت بعض الناس بعد صلاة العشاء لا مانع عنده من أن يذهب الى حفل ويتناول كأسا من الخمر . . فاذا جادلته يقول لك : ان الخمر ليست محرمة . . انها مكروهة . . فاذا قلت : بل محرمة . . قال لو أنها محرمة لقال الله : حرمت عليكم الخمر . . ولكنه قال ﴿انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه . . ﴾ .

ولكن لا يوجد في القرآن كله حرمت عليكم الخمر . . وانما يقول الله : فاجتنبوه . . واجتنبوه في رأي بعض الناس معناه أنه مكروه أو غير مرغوب في تناوله ولكن التحريم هنا غير قاطع كالميتة والدم ولحم الخنزير . . وغير ذلك . . ويمضي الجدال . . بل أذكر أنني في مرة كنا نتحدث فقال أحد الحاضرين . . انه يتمنى أن يحج . . وأضاف أنه بعد الحج سيأتي ويشرب كأسا واحدة كما يفعل الآن . . وأنه لا يرى في ذلك اثما . . الى آخر هذه المسألة . . والعجيب أنني لاحظت أن الخمر هي اثم بالفطرة . . ما من مجلس فيه خمر وفيه انسان لا يشرب الا شعر جميع الحاضرين بالذنب . . وأحسوا أنهم يرتكبون اثما . . واثما كبيرا . . لمجرد وجود انسان معهم لا يتناول الخمر . . حتى ولو كانوا جميعا من غير المسلمين . . حتى لو كانوا من الملحدين الذين لا يؤمنون بالدين . . شيء داخلهم يؤرقهم .·. يعذبهم . . ويبدأ كل واحد منهم يبرر تناوله للخمر . . ثم يبدأون جميعا في محاولة اقناع ذلك الذي لا يتناول الخمر . . بتناولها . . بعضهم لا يفهمه ولا يعرف تأثيره . . انما المهم أن وجود شخص اقناعه بأنها ليست حراما . . وآخرون يحاولون اهانته . . في محاولة لدفع الألم الذي يرقد في داخلهم . . وهم جميعا في تصرفاتهم المليئة بالعصبية . . وعدم ضبط النفس انما يحاولون أن يدفعوا اثما فطريا يحسون به . . وان كان بعضهم لا يفهمه ولا يعرف تأثيره . .

انما المهم أن وجود شخص واحد لا يشرب وسط مجموعة ممن يتناولون الخمر . . يشعرهم بالاثم ولو لم يقل كلمة واحدة استنكارا لما يفعلون . وأعتقد أن الاثم الفطري في الخمر . . أقوى منه في أي من المحرمات الأخرى . . وقوة هذا الشعور بالاثم كانت تجعلني دائما أؤمن أن الخمر من أكبر الكبائر . .

ومهما قيل . . فما زال هناك من يجادل أن الخمر ليست محرمة . . وانها لو كانت محرمة تحريما قاطعا لقال الله سبحانه وتعالى : حرمت عليكم الخمر . . ولكن قوله تعالى : فاجتنبوه دليل على أنها مكروهة فقط . . او أنه مطلوب من الانسان أن يتجنبها . .

قال الشيخ محمد متولي الشعراوي : ان تحريم الخمر في القران تحريم قاطع لا شك فيه ولا يصح الجدال حوله . . بل ان قول الله سبحانه وتعالى . . فاجتنبوه أقوى وأبلغ وأشد تحريما . . مما لو قال الله سبحانه وتعالى حرمت عليكم الخمر . .

ولنبدأ القصة من أولها . . . لنعرف كيف أن الله سبحانه وتعالى قد حرم الخمر بشكل قاطع . . بل انه قد حرم حملها والجلوس على مائدة يتناول فيها الناس الخمر . . والجلوس مع من يتناولونها . . والاقتراب منها بأي شكل من الأشكال . . يلاحظ مثلا . . ومنذ بدء الخليقة . . ان الحق سبحانه وتعالى حين قال لآدم كل من كل شيء في الجنة . . ولا تأكل من هذه الشجرة . قال لآدم وحواء وهو يأمرهما بالامتناع عن الأكل من الشجرة المحرمة . . لم يقل لهما لا تأكلا من هذه الشجرة . . وانما قال الله : لا تقربا هذه الشجرة . . ما الفرق بين أن يقول الله سبحانه وتعالى : لا تأكلامن هذه الشجرة . . وأن يقول لا تقربا هذه الشجرة . . فكأن محارم الله يجب أن تبتعد عن نطاقها لا تقاربها أبدا . . لا تقترب منها أبدا لأن قربك منها قد يغريك بها . . قد يفتح باب الشيطان في نفسك فتقع في المعصية . . اذن لا تقربا أبلغ وأشد في الاحتياط من لا تأكلا . . لأنه اذا كان الله سبحانه وتعالى قد قال : لا تأكلا . . لكان من الممكن أن يذهب الانسان الى الشجرة ويجلس بجوارها . . ويتغزل في محاسنها . . وينظر الى ثمارها بحسرة . . ولكنه لا يأكل منها . . وحينئذ لا يكون مخالفا لأمر الله . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجنب البشر ذلك الذي يقربهم من المعصية ويفتح في نفوسهم باب الشيطان . . ومن هنا حين قال لآدم وحواء لا تقربا هذه الشجرة . . كان يعني : لا تقتربا منها أبدا . . لأن القرب منها هو بداية

المعصية . . وفتح الباب أمام هوى النفس واغراء الشيطان . . ولذلك يلاحظ في القرآن أن كل شيء محرم يقول الله سبحانه وتعالى : تلك حدود الله فلا تقربوها . . لكن في المحللات يقول فلا تعتدوها . . في الشيء المحلل يقول الله سبحانه وتعالى هذه حدود الله . . فلا تعتدوها . . أي لا تتعدوها ولكن في الحرمات . . يقول الله فلا تقربوها . . أي لا تقتربوا منها . . ابتعدوا عنها . . ولقد نشأت مشكلة عند كثير من الناس هذه المشكلة تتعلق بالخمر . . سمعت كثيرا من الناس يقولون : ان الخمر لم ترد في النص التحريمي للقرآن . . كما حرم الله الميتة والدم ولحم الخنزير . . لم يرد نص في القرآن يحرم الخمر هذا التحريم القاطع . . ولكن الله سبحانه وتعالى قال : اجتنبوه فقط . . ولم يقل انه محرم عليكم . . كأنه يفهم أن كلمة اجتنبوه . . أخف من التحريم . . بل لا يحمل معنى التحريم القاطع . . ونحن نقول لمن يردد هذا القول : انك لم تفهم مدلولات اللغة . . ولا مدلولات القرآن . . الاجتناب أقوى من التحريم . . بدليل أن الاجتناب جاء في قمة العقيدة . . في قمة الايمان . . قال الله تعالى : ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها﴾ . . وقوله تعالى : ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ . . اجتناب . . وفي ماذا ؟ . . في قمة الايمان . . في قمة العقيدة . . والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها . . هل معنى ذلك في منطق هؤلاء أن عبادة الشيطان غير محرمة . . بل مكروهة . . واجتنبوا الرجس من الأوثان . . هل معنى ذلك أن عبادة الأصنام غير محرمة . . بل مكروهة . . هل هذا منطق . . بل معناه الحقيقي والظاهر والواضح من نص القرآن . . ان الاجتناب أقوى من التحريم مئات المرات . . والا لم يكن الله سبحانه وتعالى ليستخدم هذا اللفظ في قمة العبادات وفي قمة الايمان . . لو أن معناه يحمل ولو ظلا يسيرا من الاباحة أو عدم التحريم . . بل لو أن معناه لم يكن يحمل التحريم القاطع . . وعدم الاقتراب من هذا الشيء تماما . . وكلية . . والابتعاد عنه وعن كل ما يقرب منه وكل ما يؤدي اليه . . إذاً فكلمة اجتنبوه وهذا مدلولها من القرآن الكريم لا تحمل فقط معنى التحريم . . بل تحمل معنى التحريم القاطع . . وعدم الاقتراب من هذا الشيء تماما . .

وانتقل الشيخ محمد متولي الشعراوي في حديثه الى النقطة الثانية وهي : لماذا لم يذكر تحريم الخمر بنص تحريمي مثل تحريم الميتة والدم . . لماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى في كتابه

العزيز حرمت عليكم الخمر . . وكان الى هنا ينتهي الجدل ويختفي كل انسان يريد أن يوهم الناس بأن الخمر ليست محرمة . . يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي : اذا قيل لك لا تكلم فلانا فيكفي لكي تنفذ هذا الأمر . . وتلتزم به أن لا تتحدث مع هذا الشخص الذي طلب منك عدم الكلام معه . . أو حرم عليك الكلام معه . . يمكنك مثلا أن تلقاه . . يمكنك أن تجلس معه في مكان واحد . . وأن تأكل معه . . وأن تعيش معه في حجرة واحدة . . والمطلوب منك فقط ألا تكلمه . . وحينئذ تكون منفذا للأمر الذي صدر اليك . . رغم أنك تعيش مع هذا الشخص وتعايشه . .

ولكن اذا قيل لك اجتنب هذا الشخص . فإنك لكي تنفذ هذا الأمر يجب أن تبتعد عن كل مكان يوجد فيه . . لا تستطيع أن تأكل معه . . ولا أن تجلس معه . . ولا أن تعيش معه في حجرة واحدة . . واذا وجد في مكان ما فعليك أن تغادره فورا . . واذا وجدته في الطريق . . عليك أن تتجنبه وتتخذ طريقاً آخر . . فأيهما أبلغ في التحريم . . ان يقال حرمت عليكم الخمر . . أو أن يقال فاجتنبوه . . طبعا الاجتناب أقوى كثيرا من التحريم .

ولذلك حينما استخدم الله سبحانه وتعالى كلمة اجتنبوه في تحريم الخمر . . كان يريد أن يجعل هذا التحريم في أقوى صوره . . وفي أقصى درجاته . . فلو قال الله سبحانه وتعالى حرمت عليكم الخمر . . في هذه الحالة قد يجوز لي أن أحمل الخمر لمن يشربها . . ولا أكون مخالفا لأمر التحريم . . قد يجوز لي أن أصنع الخمر أو أتاجر فيها أو افتتح ملهى أو مكاناً يشرب فيه الناس الخمر . . أو أن أقدمها لضيوفي في المنزل . . وأجلس معهم وهم يشربونها . . وأن أتواجد في المجالس التي يتناول فيها الناس الخمر دون أن أرتكب اثما . . أستطيع أن أفعل كل هذا . . وأقول إنَّ الله سبحانه وتعالى قال : حرمت عليكم الخمر . . وأنا لا أشربها وان كنت أصنعها أو أتاجر فيها وأقدمها لضيوفي فلا اثم عليّ ولا معصية ارتكبتها لانني ملتزم بالنص التحريمي .

ولكن قول الله تعالى : فاجتنبوه . . معناه أنه ممنوع على المسلم أن يتواجد مع الخمر في أي مكان . . معناه أن أجتنب أن أجلس في مكان تقدم فيه الخمر . . أو مع أناس

يشربونه . . أو احمله لمن يشربه . . أو أتاجر فيه واتخذه وسيلة للـرزق . . معناه أن أجتنب كل هذا . . ويأتي الحديث الشريف مفسرا لهذا النص . . لعن الله الخمر وشاربها وحاملها الى آخر هذا الحديث . .

ومن هنا تظهر الحكمة في قول الله سبحانه وتعالى اجتنبوه . . ولكن لماذا كان هذا التحريم القاطع . . لأن للمحارم حمى . . ومن حام حول الـحمى سقط فيه . . ولأن الخمر من الكبائر . . وأنت إن شاركت فيه بأية صورة من الصور حتى بالتيسير لمن يريد أن يتناول الخمر بأن تقدمها له أو تبيعها له . . فأنت ميسر لاثم يحدث . . ولأن مجلس الخمر يحدث فيه من المحرمات والمعاصي ما يمس كل الحاضرين . . حتى أولئك الذين لم يشربوها . . لأنه مجلس يكون فيه الاثم ميسرا . . والشيطان مسيطرا . . ومن هنا كان التحريم قاطعا وشاملا . .

فاذا قال لك أحد من الناس أنه لم يرد في القرآن نص بتحريم الخمر . . نص تحريمي واضح . . فقل له بل ان هناك نص يحرم حتى التواجد مع الخمر في مكان واحد . . هناك نص يقول لنا اجتنبوه . . وهو أقوى من التحريم لأن الله قد استخدم هذا النص في قمة الايمان . . في قمة العبادة . . استخدمه في تحريم عبادة الشيطان . . وعبادة الأصنام . . وكلاهما من أكبر الكبائر لأنهما يمثلان الشرك بالله . . وهذا أكبر خطيئة يمكن أن يرتكبها انسان .

النفس البشرية حين تأتي اليها أوامر الله . . افعل ولا تفعل . . فقد تنسى وقد تضعف . . وهذه هي طبيعة البشر . . ثم تعود النفس الى الله سبحانه وتعالى تطلب الصفح والمغفرة . . ولكي يقي الله النفس البشرية من ضعفها طلب منا أن نتجنب الكبائر . . أي لا نقترب منها . . لأن مجرد الاقتراب منها يؤدي الى السقوط فيها . .

هذه كلمة لا بد منها حتى يمكن الرد على تفسير خاطىء قد وضعه بعض الناس الذين ادعوا أن القرآن لم ينص على تحريم الخمر . . وليعرف الجميع الحقيقة . . وليعلموا قوة تحريم الخمر في الاسلام . .

بحث عن الروح

ان كل الأبحاث التي تجري عن الروح هي مجرد عبث .. ذلك أن الروح لا يمكن أن تضعها في معمل .. ولا تجري عليها تجارب .. ولكن أين الحقيقة من كل ما يقال وينشر ..

البحث عن الروح يشغل الانسان في كل زمان ومكان .. ذلك أنها سر الحياة التي عجز عن الوصول اليها البشر عبر السنين .. ورغم أن الروح لا تدخل في طاقة البحث العلمي .. فلا هي شيء يستطيع الانسان أن يراه أو يمسكه أو يضعه في معمل ليجري عليه تجاربه .. وكل ما يقال عنها ما هو الا على سبيل الظن والتخمين .. الا أن الانسان ما زال يحاول أن يعرف شيئا ..

بعض العلماء يقول ان الروح لها وزن ويستدل على ذلك من أن الانسان عندما يموت ينفقد جزءاً من وزنه فجأة .. والبعض الآخر ينكر أن لها وزنا .. بعض الناس يحاول أن ينكر وجود الروح .. ويسميها الزمن أو الطبيعة .. وحيرة العلماء سجلها القرآن منذ أربعة عشر قرنا .. عندما قال الله تعالى : **﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي .. وما أوتيتم من العلم الا قليلا﴾** ..

قال الشيخ محمد متولي الشعراوي : هناك الروح وهناك النفس .. والنفس هي التقاء الروح بالمادة .. فاذا التقت الروح بالمادة .. فهذه هي النفس .. ولذلك فان التكليف للنفس الانسانية .. التكليف ليس للروح وحدها .. ولكن للنفس .. فحين تلتقي الروح بالمادة تنشأ الحياة الأرضية .. أو تنشأ النفس .. حين نفهم كلمة الروح .. فاننا نقصد ما به حياة المادة .. ما به حياة المادة هذا .. أهو ارادة الله لها أن تحيا .. أهو مجرد ارادة الله .. فاذا سلب الله هذه الارادة ذهبت الحياة .. وانتهت واختفت .. أم هو عنصر يدخل مع المادة ويكون منها الحياة لأجل معين . ثم تنتهي هذه الحياة ..

هناك عدة آراء للعلماء في هذا الموضوع .. ونعود الى الآية الكريمة .. ﴿ويسألونك عن الروح﴾ .. حينما سئل الرسول عن الروح .. كان السائلون يريدون أن يعرفوا ما هي الروح ومن ماذا تتكون .. وهنا رد الله سبحانه وتعالى أن علمكم لن يصل الى هذا أبدا .. أنتم تسألون ما هي الروح .. وأنا أقول لكم ان علم البشرية لن يصل اليها .. لن يصل اليها جزما ويقينا .. والذي كان يجب أن يسألوه عنه من أين جاءت هذه الروح .. لأنك أنت استفدت بهذه الحقيقة .. حقيقة الروح سواء علمت بها أو لم تعلم .. والانتفاع بالشيء لا يقضي أو لا يقتضي العلم به .. قد تبدو هذه العبارة متناقضة .. ولكن سأفسرها لك ..

الأمي يستخدم الكهرباء .. ويضع يده على الجرس فيحدث رنينا .. ويضع يده على مفتاح النور فتضيء الحجرة .. هل يعرف هذا الرجل الذي لا يقرأ ولا يكتب حقيقة الكهرباء .. أبدا ولكنه ينتفع بها .. بل انت في حياتك ملايين الأشياء التي تنتفع بها ولا تعرف شيئا عن حقيقتها .. هل يعرف كل من يركب الطائرة حقيقة الطيران .. هل يدري كل من يستخدم التليفون كيف تتم المكالمات التليفونية .. هل يعرف كل من يستخدم القمر الصناعي مثلا في اتصاله بالخارج .. كيف تتم الاتصالات عن طريق القمر الصناعي .. هل يدري كل من يشاهد التليفزيون الحقيقة التي يتم على أساسها نقل الصورة .. أبدا .. ملايين يركبون الطائرات ويجهلون نظرية الطيران .. عشرات الملايين يتحدثون في التليفون ولا يعرفون شيئا عن حقيقته .. ومئات الملايين في العالم ينتفعون بالتلفزيون دون أن يعرفوا شيئا عن حقيقته .. اذن انتفاعك بالشيء لا يعني بالضرورة أنك تعرف حقيقته تماما .. ومع ذلك تنتفع به ..

اذن انت تنتفع بالروح .. وان كنت تجهل ما هي .. ولا يعني أن الله قد حجب حقيقتها عنك أنك لا تستطيع أن تنتفع بها .. أنها في داخلك .. في داخل كل جسد حي .. تهبه الحياة والحركة والقدرة ..

نعود بعد للآية الكريمة .. يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿قل الروح من أمر

ربي﴾ . . اذن الروح من أمر الله . . .ماذا نعني كلمة أمر الله . . نعود الى القرآن الكريم . . كلام الله . . نرى أمر الله في القرآن . . كيف ورد . . نجد الآية الكريمة . . ﴿انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ . . اذاً أمر الله سبحانه وتعالى هي ارادة الله لهذا الجسد أن يحيا . . الارادة . . كلمة كن . . اذن هي ليست شيئا يدخل ويلتئم مع المادة . . ليعطيها الحياة . . ولكنها الارادة . . ارادة الله سبحانه وتعالى لهذا الجسد أن يحيا . . هذا رأي عدد من العلماء . . ان الحياة هي ارادة الله . . اذا أراد الله لهذا الجسد أن يعيش دبت فيه الحياة . . واذا أراد لهذا الجسد أن يموت . . خرجت منه الحياة . . هذا رأي فريق من العلماء . .

نعود بعد ذلك الى القرآن الكريم . . يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿كلا اذا بلغت التراقي . . وقيل من راق . . وظن أنه الفراق﴾ . . ان الله سبحانه وتعالى يتحدث عن الروح هنا وهي تغادر الجسد . . وهي تخرج منه . . انه يتحدث عن لحظة الموت . . لحظة الفراق بين الجسد والروح . .

اذن فالله سبحانه وتعالى عندما يتحدث هنا عن الروح . . يتحدث عن شيء له خروج وله دخول . . أي أنها عنصر تام . . ولكن هل هناك مانع من أن تكون ارادة . . وفي نفس الوقت لها كيانها واستقلالها . . هل هناك تناقض . . أبدا ذلك أن الله اذا أراد أن يهب لجسد الحياة . . أدخل له ذلك العنصر ليعطيه الحياة . . فاذا أراد أن يسلب منه الحياة . . أخرج من جسده ذلك العنصر الذي يعطيه الحياة . . اذن كون الروح عنصرا تاما . . لا يتناقض أبدا مع كونها من ارادة الله . . ومشيئته التي لا يعلمها أحد غيره . .

فاذا جاء بعض العلماء وقالوا انهم وضعوا بعض الذين يحتضرون فوق ميزان حساس . . ثم لاحظوا لحظة الوفاة أن الجسم يفقد جزءا فجائيا من وزنه . . وأرادوا بذلك أن يدللوا على أن هذا الوزن هو وزن الروح . . وأن الروح شيء مادي له وزن . . ولو وزنا يسيرا . . نقول لهم . . أبدا . . أن ما تقولونه ليس علما . . لكنه ظن فقط أي أنكم تظنون ذلك . . فقد يكون هذا الوزن نتيجة خروج كمية من الهواء

من الجسد . . أو نتيجة توقف سريان الدم . . أو نتيجة أي شيء مادي يحدث في الجسد . . أي تفاعل مادي لم يصل اليه العلم . . اما أن نجزم ونقول ان هذا هو وزن الروح . . وان الروح لها وزن . . الى آخر هذا الكلام . . فهذا ليس علميا . . انما مجرد تخمين وظن . .

ربما يقول انسان . . انك أثبت . . وبما يتمشى مع نصوص القرآن أن الروح رغم كونها ارادة الله . . وكلمته . . إلا أنها عنصر تام . . أقول أن هذا النص القرآني حقيقة وشيء ليس فيه أي تعارض . . ولكي أقرب هذا النص الى الأذهان . . أقول انك اذا أخذت ابنك الصغير . . وذهبت الى مكان . . الى محل يبيع أي شيء . . ورغب ابنك في شيء . . أي أنه أراد شيئا . . هذا الشيء الذي رغبه ابنك شيء له كيان . . ولكن حصول ابنك عليه يخضع لارادتك . . فاذا قلت للبائع أعطه له . . أعطاه له لأنه يعرف أنك ستدفع . . اذا قلت له لا تعطه له . . منعه عنه لأنه يعرف أنك لن تدفع . . اذن كون الشيء له كيان . . لم يسلبه ذلك عن ارادتك . . فحصول الصغير عليه أو عدم حصوله . . يخضع لارادتك أنت . . والكلمة نعم أو لا منك . . فاذا كان ذلك جائزاً ومنطقيا في أمر البشر . . فكيف لا يكون في أمر الله . .

وهذا من اعجاز القرآن . . ذلك أن القرآن يعطي النص الذي تحتمله جميع العقول . . في كل العصور . . هذه هي ميزة النص . . ولكن هل الأول يبطل الثاني . . أبدا . . الروح هي أمر الله حقيقة . . وكون أن لها كيانا تاما لا يبطل أنها من أمر الله . . كون أن لها جوهرا لا يعني أبدا أنها ليست من أمر الله .·. وأمر الله اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . . قد تكون كل ارادة الله شيئا ليس له جوهر . . مستقل . . وقد تكون كلمة كن بأن يدخل الله في الجسد الحياة . . كلاهما أمر الله . . وكلمته . . سواء كان للروح جوهر أو لم يكن . .

وقد جعل الله سبحانه وتعالى الروح نفسا . . فقال تعالى : ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ . . والنفخ معناه اخراج الهواء من حيز الصدر الى المنفوخ فيه . . اذن فان هناك شيئا دخل الى جسد الانسان بكلمة كن . . نفخ الله سبحانه وتعالى من روحه . . فدخل شيء في جسد الانسان وهبه الحياة . . بكلمة كن . . وظل الانسان

يتنفس أي يعيش . . طالما ارادة الله تريد له ذلك . . فاذا توقف النفس . . خرجت الروح . . ولكن البحث العلمي في مسألة الروح . . وكون أن لها وزنا . . أو ليس لها وزن . . نوعا من العبث . . ذلك أن احدا لا يستطيع ولن يستطيع أن يمسك الروح ويدخلها المعمل ليجري عليها تجارب أو يزنها ليعرف اذا كان لها وزن أم لا . . اذن الجزم بشيء هنا . . مجرد عبث . . لأنها غابت عن امكانيات علم الأرض . . اذن امتنع عن البحث فيها . . ما دمت لا أملك امكانيات التجربة . . وان كنت أعرف يقينا . . أن الروح علامة وجودها هي النفس . . وان الروح تغادر الجسد يقينا متى توقف الانسان عن التنفس . . مصداقا لقوله تعالى﴿ ونفخت فيه من روحي . . ﴾ .

حديث عن الآخرة

الحديث الآن مع الشيخ محمد متولي الشعراوي عن الأخرة . . وحديث الاخرة محتاج الى مجلدات . . ذلك أن فيه فيض من الأشياء التي أخبر الله الناس بها . . وفيض من الأشياء التي لم يخبر الناس بها . . أشياء لا يعلمها الا الله . .

والمعروف ان الانسان طالما هو حي . . فانه يرى ويسمع ويتكلم . . ولكنه اذا انتهت حياته صمت . . وسكن كل شيء فيه . . هذا هو الظاهر . . ولذلك فان كثيرا من الكتاب يعبر عن الحياة . . بأنها الحركة . . ويعبر عن الموت . . بأنه السكون والصمت والنهاية . . وهذا مفهوم درج عليه الناس . . ولكن هناك حديث شريف يقول : الناس نيام . . فاذا ماتوا انتبهوا . . اذن فالحياة يكون الانسان فيها كالنائم . . لا يرى شيئا من حقائق الآخرة . . فاذا مات . . فان هذا هو الانتباه . . وليس هو السكون . . وهو الرؤية . . وليس هو عدم الرؤية . .

كيف يكون ذلك . . مع أننا نعتمد في التصديق في حياتنا . . على ما نراه ونحس به . . ولقد كان الحوار مع الشيخ محمد متولي الشعراوي وزير الأوقاف وشؤون الأزهر حول معنى هذا الحديث الشريف . . أو على الأصح حول كلمة « انتبهوا » كيف ينتبه الانسان بعد الموت . . وكيف وهو في الحياة نائم . . وما هو معنى الحديث الشريف . .

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي . . اذا أردنا أن نفهم معنى هذا اللفظ . . فاننا يجب أن نسأل أنفسنا . . ما هي وسيلة الرؤية في الدنيا . . انها العين كما نعرف جميعا . . ولكنها في الحقيقة ليست العين وحدها . . بل هي الحديث أثناء صحوة النفس . . ذلك أن الانسان حين يكون نائما لا يرى . . ولا يبصر . . وانما هو يبصر في صحوة النفس فقط . . أي أن صحوة النفس هي التي تعطي للجسد حواسه . .

والآخرة مؤكدة . . وكذلك الموت . . ولكن النبي ﷺ يقول : لا أرى يقينا أشبه بالشك من يقين الناس بالموت . . رغم أن كل انسان متأكد أنه سيموت . . فمنذ خلق آدم حتى الآن لن يشذ انسان واحد عن الموت . . رغم هذا فهناك شك في كل نفس بشرية عن موتها . . كل نفس لا تتوقعه الآن ويتقدم بها العمر ويتقدم . . وتتوقع كل شيء الا الموت . . ويملأها الأمل . . فانه لا زال أمامها أعوام طويلة من الحياة . . حتى أولئك الذين تجاوزوا سن الستين مثلا . . وهو متوسط العمر . . لا تجد الواحد منهم على يقين أنه سيموت خلال شهور . . بل الأمل يملأ نفسه . . بأن أمامه فترة طويلة . . ورغم أنه قد يتحدث ويقول للناس : العمر خلص . . هو احنا حنعيش . . فاضل لنا اد أيه . . الى آخر هذه الكلمات التي نسمعها . . الا أنه في قرارة نفسه يؤمن أنه لا زال أمامه فترة طويلة . .

فالذي كان يحدث به كل شخص عن الآخرة . . ولا يصدقه . . سيأتي يوم ويراه أمامه واضحاً جلياً . . كما يرى كل شيء في الدنيا . . سيأتي اليوم الذي يخرج فيه من الدنيا . . وحينئذ يصدق فيه قول الله تعالى : فبصرك اليوم حديد . اذن يرى كل الآثار التي حدث عنها . . والتي وردت في القرآن والأحاديث . . يراها جميعا ويشهدها . . ومن هنا . . ومن هنا يعرف يقين الآخرة . . وهو شيء لم يكن يفهمه في الحياة الدنيا أيام صحوه . . أيام كان حيا متيقظا . . واليوم بعد أن ترك الحياة . . فهم ما بعد الحياة . .

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز . . ما معناه أنني حدثتكم بأن هناك نارا . . وكان يجب عندما أحدثكم عن هذا أن تأخذوا هذا الحديث متيقنين مما أقول . . علم اليقين . . ثم لترونها عين اليقين . . أي انكم سترون النار بأعينكم . . وقد اراها . . ولكني لا أعذب بها . . أي ليس من الضروري أنني حين أرى النار لا بد أن أعذب بها . . فالرؤية شيء . . والعذاب شيء آخر . .

ولذلك قال الله تعالى في كتابه العزيز . ﴿ وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ﴾ . وقد فسر بعض الناس هذه الرؤية على أساس أن كل انسان

سيعذب . . وأنه لا بد أن يدخل النار أولا . . ولكن الحقيقة أن ورود الشيء ليس يعني بالضرورة العذاب . . فالعرب كانوا يقولون : ورد فلان الماء . . معنى ذلك أنه وصل اليه ورآه . . ولكن كلمة ورود لا تعني أن الانسان قد شرب من الماء . . فاذا قلت ورد فلان الماء . . فليس معنى ذلك أنه شرب منه . . وكذلك رؤية النار . . فقول الله سبحانه وتعالى لترونها عين اليقين . . ليس معنى ذلك أن كل انسان سيعذب في النار . . ولكن كل انسان سيرى النار سواء كان صالحا . . أو عاصيا . . كلنا سنراها . . وسنراها عين اليقين . . أي يقينا . . ونتيقن من وجودها . . ثم يقول الله : في الذين سيعذبون بها . . فاما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم . . ومعنى ذلك أن هناك عدداً من خلق الله الصالحين . . . ولكن لا يعذبون بها . . أما الذين سيعذبون بها . . فهم المكذبون والضالون . . والعاصون لأوامر الله . . فاذا كان الحديث عن الآخرة . . فهناك يقين في أن كل خلق الله سيرون النار . . وسيرون الأشياء التي تحدث بها في القرآن . . التي أخبرهم الله بها وسيرونها بعيونهم . . ويتيقنون منها . . بعد أن كان بعضهم في شك . . والبعض الآخر من المكذبين . . فأنت لم تصدقه علم اليقين من الله سبحانه وتعالى . . حين أخبرك به وأنت في الحياة الدنيا . . ولذلك أراه لك الله عين يقين بعد الموت . . وبعد ذلك تدخل في العذاب أو لا تدخل حسب أعمالك وحسابك وكتابك . .

بقي بعد ذلك معنى الآية الكريمة . . ﴿ وان منكم إلا واردها ﴾ . . ذلك أن هذه الآية يفسرها بعض الناس على أساس أن أحدا لن ينجو من العذاب . . وأننا جميعا صالحين أو عاصين . . مكذبين أو مطيعين سنعذب بالنار . . وحتى نفهم هذه الاية فهمها الصحيح . . يجب أن نفهم معنى كلمة واردها . . وورود الماء معناه اتيان الماء . . هذه هي العين . . وقد وصلت اليها وسقيت ماشيتي . . ولم أشرب أنا ومشيت قد يشرب من معي . . ولكني أنا لم أشرب . . اذن الورود الذهاب الى مكان الماء . . أما أن تشرب منه أو لا تشرب . . فهذا موضوع آخر . .

﴿ وان منكم الا واردها ﴾ . يريد الله أن يخبر عباده بفضله عليهم . . فيقول لهم انكم جميعا سترون النار . . وستصلون اليها . . ولكن هنا يجب أن نفهم أن القرآن

يشرح بعضه . . يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز فوزا عظيما﴾ . . فكأنما كل منا سيرى النار . . ويتجه عباد الله الصالحون الى السماء . . ويقولون يا ربي الحمد لله الذي أنجيتنا من الهو ل الذي رأيناه . . وزحزحتنا عن النار . . فالنجاة من النار . . ولو لم يدخل الانسان الجنة . . وظل في الأعراف بين الجنة والنار . . نعمة . . ونعمة كبيرة . . فما بالك لو زحزح عن النار وأدخل الجنة . . يكون هذا فوزا عظيما . . يكون قد تجنب عذاب النار . . وفي نفس الوقت متع بنعيم الجنة . . ذلك هو طريق الايمان . . والطريق دائما هو الذي يقوده الى التهلكة . . أو ينجي الانسان . . فمثلا اذا بدأت تتخذ طريقا للسفر . . ويقول لك أصدقاؤك . . حاذر من هذا الطريق . . انه مليء بقطاع الطرق . . . واللصوص . . فاذا اضطررت أن تمشي في هذا الطريق . . فانه يكون كل همك ألا يفاجئك أحد اللصوص أو قطاع الطرق . . وليس همك مثلا أن تستريح قليلا . . أو تتناول طعاما جيدا . . أو تجلس في مكان مريح . . في جو منعش . . ذلك أن النفس حين تواجه الخطر يكون همها الأول . . ضرب هذا الخطر وتجنبه . . والهروب منه . . ولا تطلب في هذه المرحلة التمتع . . حتى أنك اذا مشيت في هذا الطريق الذي قيل لك انه مليء بالمخاطر . . ووجدت بعض الناس يجلسون فيه . . وقالوا لك تفضل . . وتناول الطعام معنا . . أو اجلس لتتناول معنا فنجان من الشاي . . فانك سترفض حتما . . ذلك أنك ستتوقع الشر . . وخوفك من الأذى يدفعك الى أن تجتاز المرحلة التي تنجو فيها من الخطر . . وتبتعد عن هذا الطريق . . فاذا ابتعدت عنه . . واجتزته دون أن تتعرض لأي خطر . . ثم وجدت بعد هذا الطريق بستانا جميلا . . وأناسا طيبين أكرموك . . فان تمتعك في هذه الحالة يكوّن مضاعفا . . فشعورك بالأمان . . وانك نجوت من المكاره . . يجعل تمتعك بما يقدموه لك . . أكثر بكثير مما لو حصلت عليه في ظروف عادية . . فاذا كان هذا يصدق في الدنيا . . وفي خطر بسيط مثل خطر اللصوص أو قطاع الطرق . . وان كان يصدق في نعيم بسيط مثل اطعام مكان آمن وسط حديقة جميلة . . فما بالك بعذاب النار وهولها . . وشعور الانسان حين ينجو منها ويصبح آمنا وما بالك بنعيم الجنة الذي ليس كمثله شيء . . حين يصل انسان اليه

بعد أن يرى هول النار . . ويشاهدها عين اليقين و . . ويصل الى الجنة ليتمتع بها . . ماذا يكون شعورك . . كيف تحس بالسعادة وهي تغمرك . . وبالفوز الكبير الذي تنفقه . . بأنه زحزح عن النار . .

فاذا أردنا أن نفهم معنى الحديث الشريف . . الناس نيام . . فإذا ماتوا انتبهوا . . نعرف أن الناس في الدنيا نيام . . عما ينتظرهم في الآخرة . . بعضهم يصدق بيقين . . وبعضهم يصدق بشك . . وبعضهم يكذب . . ولكنهم جميعا سيصلون الى مرتبة اليقين بعد الموت . . ويرون كل شيء عين اليقين . . وحينئذ ينتبهون ويحسون . . بأنهم جميعا سيرون النار . . ويمرون عليها . . ويشهدون ويشهدون . . من زحزح عن النار يجنب عذابها . . ومن قضي له فيها . . نال قضاء الله . .

ان النبي حين قال للمؤمنين وهم يبايعونه بأنهم يبايعونه ويدخلون الدين الجديد .. قال لهم : لكم الجنة .. وهذه في نظر قانون النفعية صفقة رابحة جدا .. فالانسان يتعلم ويشقى حتى الثلاثين من حياته تقريبا .. ليوفر لنفسه حياة مناسبة بعد هذا العمر .. ولمدة هو غير متيقن منها .. فقد يأتي أجله قبل هذه الفترة .. ففي هذه الحالة لا يحصل على شيء .. فالعمر غير مضمون .. أما الوعد بالجنة فهو وعد مضمون وأكيد .. يتمتع فيه الانسان .. ليس بقدرة ما تستطيع أن توفره الحياة البشرية بكل امكانياتها .. ولكن بقدرات وامكانيات الله سبحانه وتعالى . التي هي بلا حدود ولا قيود .. ومن هنا فان رسول الله حين قال لكم الجنة قارن شيئا غير مضمون ومحدود .. بشيء مضمون وفيه المتاع بلا حدود ولا قيود . وهكذا كانت هذه الصفقة من ناحية قانون النفعية الأرضية .. أكبر مما تستطيع أن تحققه قوى الأرض كلها ..

ويمضي الشيخ محمد متولي الشعراوي ليتحدث مكملا شرح هذا الموضوع فيقول : حين يضمن لهم الجنة .. انك في الحياة توطد نفسك على قدر امكانياتك .. فانظر صفقة الله مع الناس . . حين يضمن لهم الجنة .. لأن الحياة محدودة مهما طالت .. ويعدك الله بشيء غير محدود .. وباستخدام المقارنة الاقتصادية النفعية .. تكون قارنت محدوداً بغير محدود .. فالذي يعطي غير المحدود هو الله .. وقارنت يقينا بشيء غير مضمون .. فوعد الله يقين .. وأجلك في الحياة غير مضمون لك .. وقارنت تنعما على قدر امكانياتك أنت .. لتنعم على قدر امكانيات الله .. اذن فصفقة الجنة لمن يريد النفع .. هي الصفقة العاقلة الرابحة . الذي يمتنع عن بيع بضاعة الآن .. يرجو أن يغلى الثمن .. ينتظر زيادة في الربح ..

اذن فهو يريد النفع لنفسه .. وكل انسان يريد النفع لنفسه .. ولكن هناك من

يتعجل النفع المحدود المضمون على قدر امكانياته . . وهناك قوم أوعى من ذلك وأعقل . . فيقولون انني أبيع المحدود . . وآخذ غير المحدود . . أنا أبيع المضمون . . وآخذ المتيقن . . أنا أبيع على قدر امكانياتي . . وآخذ على قدر امكانيات الله . . فاذا نظرت اليها وجدتها صفقة رابحة . . ولذلك فاننا يجب أن نعتبر الحياة بما فيها من مصاعب ومتاعب . . هي مقدمات هذه الصفقة . . وكما أن التلميذ يشقى ويتعب ليتعلم . . والصانع يشقى ويتعب ليأخذ صنعته . . فاجعل حياتك الدنيا جهادا لتأخذ هذه الصفقة القادمة . . ان الذين يتاجرون مع الله أعقل العقلاء . . وأذكى الأذكياء . . وأكثر الناس فهما لطبيعة هذه الحياة . . لأنها صفقة الله طرفها . . وما دامت صفقة الله طرفها . . فاطمئن على ذلك . . لأن الذي عقدها قادر على أن يوفي بها . . بأكثر وأضخم وأعظم مما يمكن أن تتصوره أنت . . أو أن يقربه الى ذهنك وعقلك البشري . . الصفقة بين البشر يمكن أن يعقدها الانسان . . ولكنه لا يستطيع لها وفاءً . . وانما الله يعقدها ويملك فيها الوفاء . . ولذلك حين يقول رسول الله لكم الجنة . . يكون قد أوفاها . . فالذي يعقل ويتدبر يسارع الى هذه الصفقة . . وعندما بدأ القتال بين التتار والمسلمين . . قال المسلمون . . أليس بيننا وبين هؤلاء الكفار الا أن نقاتلهم . . فاذا استشهدنا دخلنا الجنة . . حتى أن بعضهم كان يمضغ بعض التمرات . . فرماها من يده . . وأسرع الى القتال . . والشهادة . . لأنه لا يريد أن يبطىء حتى يتناول التمرات . . بل يريد أن يسرع الى الجنة . .

والذين يرفضون كثيرا من متاع الحياة . . لا تظنوا أنهم حمقى لا يتمتعون بالذكاء والقدرة . . بل انهم أكثر الناس ذكاءً وقدرة . . فقد أخذوا الأشياء من باب أوسع . . مما يأخذه أولئك الذين يجذبهم طريق الدنيا . . بل انهم قوم مكارون . . وماذا نعني بكلمة مكارين . . نعني أنهم أخذوا المسألة من باب أكثر فائدة ونفعا . . مثلا الذي يؤثر على نفسه وبه قصاص . . يظن الناس أنه أحمق . . لأنه لا يملك الا جنيها واحدا مثلا . . ويتصدق به . . ولكن هذا الرجل أوعى منك . . لأنه يعطي الجنيه الذي معه لمن هو أحوج منه . وفي نفس الوقت هو طمعان في عشرة أمثاله من الله . . أو سبعمائة مثله من الله . . وهذا يدل على امتداد نظرة في النفعية . . وامتداد

النظر في النفعية هو الذي نطبقه لنعمر هذا الكون كله . . فالرجل الذي يحرث أرضه ليزرعها قمحا . . يأتي فيحرث الأرض . . ثم يأتي الى القمح الذي عنده . . . فيأخذ جزءا منه . . في النظرة القصيرة فهو أنقص ما عنده من القمح . . هذا في ظاهر الأمر . . ولكنه في الحقيقة . . وتطبيقا لنظرية الامتداد في النفعية . . فهو اخذ مما يملك أردبا من القمح . . وبذرة في الأرض ليعطيه عشرة ارادب من القمح . . انه لا ينظر الى ناحية النقص الأولى . . ولكنه ينظر الى ناحية النفع المتيقن القادم . . وفي الانسان في تعامله مع الحياة . . يأتي إنسان آخر ليسيء اليه . . فيجد من قضية الدين من يقول له . . احسن الى من أساء اليك . . وهذا مخالف للطبع البشري . . فالطبع البشري يطالبني بأن أسيء الى من أساء الي . . وأن أنتقم لنفسي . . ولكن التشريع لم يغفل الطبع البشري . . ولذلك فهو لم يضع مثاليات بعيدة عن طبيعة البشر وحياتهم . . فالقضية الأولى . . انه يقول لك . . اعتد عليه بمثل ما اعتدى عليك . . هذه قضية قد يرضى بها انسان يريد أن يرضي بها عواطفه . . ونزعة البشر في الانتقام لنفسه . . وهناك قضية أسمى يمكن أن تطبقها . . لقد أتيح لك ان تعتدي بالمثل ولكن أتستطيع أن تتحكم بالمثل . . هل تستطيع أن يكون اعتداؤك دقيقا طبقا لكل المقاييس . . بمثل ما اعتدى عليك . . بحيث تصبح بنفس الوزن . . ونفس القوة التي وجهت بها الي . . مستحيل . . فلماذا أدخل في هذه المتاهة . . اذا كنت تريد أن تتسامى . . فانك لا ترد الاساءه . . وان كنت تريد أن تتسامى أكثر . . فانك تحسن اليه . . اذن . . فهناك ثلاثة مراتب . . مرتبة أن ترد العدوان بالمثل . . ومرتبة ثانية هي أن تكتم غيظك في قلبك فلا تعلنه وتتسامى فلا ترد . . ومرتبة ثالثة هي أن تحسن اليه . . وتقابل الاساءة بالاحسان . . هذه مراتب حسب طاقات الايمان في النفس البشرية . .

ولكن لماذا يطلب منك الدين أن تحسن الى من يسيء اليك . . ساضرب مثلا بسيطا لأوضح الأمر . . أنت اذا دخلت بيتك . . مثلا ووجدت ولدا من أولادك إساء ولدا آخر . . مع أيهما يكون قلبك ؟ . . مع المعتدى عليه . . وما نتيجة وجود قلبك معه . . انك تحاول ارضاءه . انك تكون معه . . وتصنع له كذا . . وتصنع له كذا .

محاولا ازالة أثر الاساءة من نفسه . . اذن ما الذي جعله يحوز هذا العطف والرعاية منك . . أكثر من أنه معتدى عليه . . إننا نعامل أنفسنا بذلك القانون . . كذلك الله الذي خلقنا جميعا . . فاذا ما جاء انسان واعتدى على انسان . . مع من يكون الله ؟ . . مع من أسيء اليه . . وماذا يستحق هذا الانسان الذي جعل الله بجانبه . انه يستحق مني المكافأة . . أو الاحسان . . اذن كقضية نفعية . . يجب أن يتعقلها الناس . . ولا ينظرون الى النفع العاجل . . ويتركون النفع القادم الشامل . . كذلك قضيتنا نحن كبشر . . فما دمنا قد ارتضينا لانفسنا الايمان . . وحب الله . . والتقرب اليه . . وإرضاءه بقدر ما نستطيع . . فلا بد أن نحمل أنفسنا على المنهج والتضحية التي يتطلبها منا ذلك . . وأن نبيع هذه الدنيا . . يبيعها العلماء . . فلا يخشون أحدا الا الله . . ويبيعها أيضا الجنود . . فلا يطلبون ثمنا الا الجنة . . حين يعطون المسألة هذا الوضع . . يرتاحون من كل ما يصيبهم في هذه الحياة . . لماذا ؟ . . لأن الغايات دائما هي التي تجعل الانسان يقبل الوسائل . . فاذا أحب الانسان انساناً آخر . . . والطريق اليه شاق وصعب . فانه يتحمل المشاق والتعب . . . في سبيل أن يصل الى هذه الغاية . . فما دامت الدنيا هذا أملها المحدود . . فلا يجب أن نعطيها فوق قدرها وطاقتها . . ويجب أن لا تعطيها أهم من وضعها . . حين يكون الأمر . . منا كذلك . . نعمل العمل . . ولا نطلب ثمنا الا الجنة . . ويعطي الله سبحانه وتعالى في قرآنه قضية اسمية في رسول الله ﷺ . . في نساء النبي حينما استتب الأمر لهذا الدين . . وكثرت الغنائم . . أحببن أن يعشن عيشة يملؤها زخرف الدنيا وبهجتها . . فقال الله : يا نساء النبي . . ﴿ إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن وأسرحكن سراحاً جيلاً . . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة . . فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ﴾ . . اذن فالقضية في أمر الدين . . اعلاما بها . . وصيانة لها . . وحملا للناس عليها . . فالجزاء هو الجنة . . والذي يريد ثمنا غير هذا . . يكون قد أرخصها . . فالذين يتأسون برسول الله . . وبحياة رسول الله . . يجب ألا يغيب عنهم هذا القول . . لأنه اذا غاب عنهم سيتعبون في الحياة الدنيا . . ومعينه في كل ما يحدث . . وسعادته . . لا تنبع مما

يحدث .. ولكن تنبع من داخله .. فالسعادة في حقيقتها لا تنبع مما يحدث للناس .. لكن مما في داخلهم .. ومما في أنفسهم .. فقد يحدث حدثان متشابهان لشخصين .. فاذا أحدهما سعيدا راضيا بما حدث .. واذا الثاني شقيا تعيسا بما تم .. مع أن الحدثين واحد .. والشخصين ظروفهما متشابهة ..

خطيئة آدم

الحديث الآن عن خطيئة آدم . . وهو حديث أخذ جدلا طويلا في تاريخ البشرية . . ربما من يوم آدم حتى الآن . . وهناك من يقول انه لولا خطيئة ادم ما كانت البشرية تعاني ما تعانيه الآن من شقاء وتعب وآلام . . ولكان كل الناس في نعيم الجنة . . يعيشون ويأكلون في سعادة ويسر بلا تعب . .

ولكن الله سبحانه وتعالى خلق آدم ليكون خليفة في الأرض . . وليعمرها . . اذن آدم لم يخلق أساسا ليعيش هو وذريته في الجنة . . ولكنه خلق لينزل الى الأرض ويعيش فيها . . ثم تأتي الآخرة . . ويكون هناك ثواب وعقاب . . فيدخل المؤمنون الجنة . . ويعذب الكافرون في النار . . هذا هو قدر الله الذي أراده لبني آدم . .

ولو أن آدم استمر في الجنة . . فكيف كان يمكن أن يكون هناك حساب وثواب وعقاب . . وخطيئة وتوبة . . وايمان وكفر . . الى آخر ما في الحياة الدنيا . .

فالحديث عن خطيئة آدم . . واننا نتحمل هذه الخطيئة يتعارض مع نص القران الكريم . . الذي يؤكد أنه لا تزر وازرة وزر أخرى . . أي أن أحداً لا يتحمل ذنوب الآخر . . وانما يحاسب كل شخص على ما ارتكبه من ذنوب وآثام . . كل انسان يحاسب على عمله من سيئات وحسنات وطاعات . . كما أنه يتعارض مع وظيفة آدم الرئيسية التي خلقه الله من أجلها . . وهي أن يكون خليفة في الأرض ويعمرها . . والسؤال الذي يدور هو اذا كان الشيطان قد أغوى آدم وجعله يأكل من الشجرة المحرمة فطرد من الجنة . . فما ذنبي أنا لأطرد معه . . وأعيش في شقاء الدنيا ويكتب عليّ كل هذا . .

كان هذا هو موضوع الحوار مع الشيخ محمد متولي الشعراوي . . حول خطيئة آدم وما تحمله أبناؤه نتيجة تصرفه . . وكيف نتحمل نحن خطيئة لم نرتكبها ونحاسب

على شيء ليس لنا يد فيه . .

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي : اذا كان الله قد خلق الخلق . . وبدأهم بآدم . . فكان لا بد أن يعلمهم ما يريده منهم . . هذا الاعلام هو أول ابلاغ عن دين الله للانسان . . هو أول وحي علمهم ما يجب أن يكونوا عليه في حركة حياتهم . .

ومن العجيب أن امر آدم بالنسبة للوحي أخذ خلافا طويلا . . وهو كيف يكون موحى اليه وتصدر منه المعصية . . ولم يفطن هؤلاء الى أن آدم عليه السلام خلق يمثل نوعين من البشر . . نوع نبوة معصومة . . ونوع غير نبي يقع في الخطأ والخطيئة . . بل ويكفر بخالقه . . وما دام آدم أباً لهذين النوعين . . فيجب أن يتمثل في خلقه وتكوينه النوعان معا . . النوع الخطأ الذي يعهد اليه فينسى ويعصي ويوقعه الشيطان في الخطأ بالغرور . . ولا يملك أن يسيطر على نفسه أمام نزواته وشهواته . . ونوع اخر هو الذي اجتباه الله ليقوم بدور النبوة . . فهو معصوم من الخطأ . .

وعندما خلق الله آدم للخلافة في الأرض . لم يشأ أن يخرجه إلى حركة الحياة دون أن يدربه تدريبا بشريا عمليا . . يباشر فيه الواقع . . ولا يرسله الى الأرض بكلام نظري . . بل يجب أن يتعرف الواقع . . لأن الانسان قد يأخذ كلاما نظريا يقتنع به . . ولكنه حين يطبقه عمليا يتعذر عليه أن يجعل التطبيق متمشيا مع المنهج النظري . . وشاء الله رحمة بآدم ألا ينزله الى الأرض بمنهج نظري افعل ولا تفعل . . إلا بعد أن يربيه تربية تدريبية دينية على المنهج بأفعل ولا تفعل . . ويحذره من العقبات التي تصادف المؤمن وهو اغواء الشيطان واغرائه . . حتى اذا تمت التجربة وراها آدم وعاشها كواقع اخرجه الى الأرض ليباشر مهمته التي خلق من أجلها . .

واذا كنا نحن نريد أن ندرب الانسان على شيء سيقوم . . كأن ندرب انسانا ليصبح لاعبا ماهرا في كرة القدم . . لا نشرح له نظرية اللعب أولا . . ثم نلقي به الى مباراة عالمية . . لا . . اننا نأخذه ونعد له مكانا مريحا مناسبا . . ونكفيه مؤونة الحياة . . وندربه على اللعب بأمانة . . حتى اذا ما أخطأ لا نحاسبه . . ولكن نقومه . . فالخطأ في دور التجربة خطأ مردود بالتوجيه فقط . . وليس بالعقاب . .

ولكن في غير دور التجربة خطأ معاقب عليه . . والفرق بين الأمرين . ان خطأ التجربة يتم فيه تعطيل الصواب . . ولكن خطأ الواقع يعاقب عليه . . فلم يكن الله ليخبر آدم بمنهج نظري . . ثم بعد ذلك يعاقبه على ما يقوم به . . لم يكن ذلك . . وانما كان أن دربه أولا في مكان سماه جنة . . وبعض الناس يظن أنها جنة السماء . . ويظلمون آدم . . ويقولون اننا خلقنا للجنة . . ولكن معصية آدم هي التي أخرجتنا منها . . لا . . افهموا جيدا أن الله في أول بلاغ عن آدم قال : ﴿اني جاعل في الأرض خليفة﴾ . . فكأن آدم مخلوق للأرض . . فلا تظلموه وتقولوا اننا خلقنا للجنة فأخرجتنا معصية آدم الى الأرض . .

اذن فالجنة التي عاش فيها آدم ليست جنة الأخرة التي وعدنا الله بها ولكنها جنة وجدت فيها كل مقومات الحياة . . يأكل منها ما يشتهي ويريد بدون عمل منه . . وبعد ذلك جاء أمر لتكليف بأفعل ولا تفعل . . فكل الرسالات مضمونها افعل كذا . . ولا تفعل كذا . .

ماذا قال الله لادم . . كل من كل شيء . . ولا تقرب هذه الشجرة . . هذا أمر بأفعل ولا تفعل . . وبعد ذلك حذره من اغواء الشيطان . . قال له الشيطان هو العقبة . . وعداوته لك مسبقة . . لأنه امتنع أن يسجد تكريما لك . . وما دام عدوك . . فسيعمل على أن يجعلك تقع في الخطيئة حتى لا يتميز هو بأنه هو المخطىء الوحيد . .

فلما أخطأ آدم في دور التجربة . . نسي هكذا . . قال القرآن مرة ﴿ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى﴾ . . وبعد ذلك دلاه الشيطان بغرور . . قال ما منعكما أن تقربا هذه الشجرة . . الا أن تكونا ملكين . . كان يجب على آدم ألا يكون غافلا الى هذا الحد . . يجب الا ينسى . . فعندما يقول له الشيطان ان الله منعكما من أن تأكلا من هذه الشجرة . . حتى لا تصيرا ملكين . . وتعتبرا من الخالدين . . كان يجب لآدم أن يقول له اذا كنت أيها الشيطان تعلم أن الأكل من هذه الشجرة يجعلك ملكا ويجعلك خالدا . . فلماذا تضاءلت أمام ربك . . وقلت له : أنظرني الى يوم يبعثون . . لماذا لم تذهب أنت لتأكل من الشجرة وحدك لتصير من الخالدين . . ان

الله يريد أن يعلمنا الفطنة . . لأن الشيطان حين يضفي بغروره الى أي انسان يجب أن يناقشه مناقشة العاقل الفاهم لأن الشيطان ليس له حجة ولا سلطان . .

وبعد ذلك أكلا من الشجرة . . فحين أكلا من الشجرة عصى آدم ربه . . نقول له . . ان آدم عصى في دور التدريب وهو في هذه المعصية لا يعاقب . . وانما يعلم الصواب ويوجه اليه . . وكذلك علمه الله . . اذا لم تقدر على نفسك وغلبك غرورك . . فقل هذه الكلمات وارجع الي . . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه .

هنا وقفة نقول : اذا كان آدم قد عصى . . فتلقى كلمات التوبة من الله . . وابليس قد عصى . . ولم يغفر له الله . . فما الفرق بين معصيته . . ومعصيته . . وهل كانت هناك محاباة . . نقول له لا . . لأن هناك فرق بين معصية آدم ومعصية الشيطان . . آدم لم يتهم الآمر في أمره . ! بل قال ربنا ظلمنا أنفسنا . . أمرك حق . . ولكني لم أقدر على نفسي فظلمتها . . ولكن ابليس رد الأمر على الله . . وقال أأسجد لمن خلقت طينا . . خلقتني من نار . . وخلقته من طين . . اذن فقد تأبى على الله . . وفرق بين من يتهم نفسه من أن أمر الله حق . . ولكنه لم يقدر على نفسه فظلمها . . فهذا هو الفارق . . لذلك اذا أنكرت حكما من أحكام الاسلام . . نقول : أأنت تنكر . . فاذا قال نعم . . نقول والعياذ بالله . . كفرت . . واذا قلت أبدا . . سبحان الله . . ان الله حق . . تعاليمه حق . . ولكنني لم أقدر على نفسي فظلمتها . . فأنت مسلم عاصي . . تجبرك التوبة . .

يلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى حينما خاطب آدم . . في الامتناع عن الأكل من الشجرة . . لم يقل له لا تأكل من الشجرة . . وانما قال . . لا تقربا . . ما الفرق بين أن يقول لا تأكلا ولا تقربا . . فكأن محارم الله يجب أن يبتعد الانسان عن كل طريق يؤدي اليها أو يقرب منها . . لأن قربك منها قد يغريك بها . .

اذن آدم درب على المنهج . . وعلمه الله كيف فعل به الشيطان ما فعل . . وعلمه كيف يتوب الى الله . . ثم أرسله الى الأرض . . وقال له : باشر مهمتك على ضوء هذه التجربة . . ولذلك قال الله تعالى ﴿وعصى آدم ربه فغوى . . ثم اجتباه ربه

فتاب عليه وهدى﴾ .. كان آدم يمثل المرحلتين .. مرحلة الانسان غير المعصوم .. فيقع في الخطأ .. فيعطيه الله ألفاظ التوبة .. فيخشع ويرجع الى الله .. ومرحلة النبوة .. بعد ذلك في أن ينقل الدين لأبنائه ..

وبعد ذلك قام آدم بابلاغ تعاليم الله الى أبنائه الذين أبلغوها الى أبنائهم .. ولكن شهوات النفس وغفلتها استطاعت جيلا بعد جيل أن تنحرف بسلوك الانسان عن تعاليم الله .. وهنا أرسل الله الرسل .. وكان لا بد أن يحمل كل رسول الى قومه معجزة ليثبت لهم صدق رسالته ..

الاسلام والسيف

ان قضية الاسلام والسيف . . قضية أخذت نقاشا طويلا خلال التاريخ الاسلامي . . ومنذ بدأ الاسلام ينمو ويزدهر . . هناك من يتهم المسلمين بأن الاسلام قد انتشر بالسيف . . ورغم أن أديانا أخرى قد اجتازت حروبا لتثبت أقدامها . . أو لتنصر مبادئها . . رغم ذلك كله فلا يجد المستشرقون قضية الا أن الاسلام قد انتشر بالسيف . .

وأمامنا في الدنيا امبراطوريات انتشرت بالسيف . . امبراطوريات لم تكن الشمس تغيب عنها . . ثم ماذا حدث بعد ذلك . . غاب عنها السيف . . فغابت الامبراطوريات . . وزالت من الوجود . . ولم يعد لها كيان بل أن كل ما انتشر بالسيف يزول اذا زال السيف . . وأنا أريد من هؤلاء المستشرقين الذين ملأوا الدنيا أكاذيب عن الاسلام . . أن يذكروا لي مثلا واحدا لشيء انتشر بالسيف . . ثم بقي بعد أن زال السيف مثل واحد عبر التاريخ . . لا يوجد . . ولكنهم لا يجدون سوى الاسلام . . يحاولون أن يطلقوا عليه مثل هذه الأكاذيب . . اذا كان كل شيء في العالم قد قام بالسيف عندما زال السيف زال . . فلماذا يبقى الاسلام شاذا عن هذه القاعدة . . ينتشر بالسيف ثم يزول السيف . . فلا يزول الاسلام . . بل يظل ينتشر ويزداد انتشارا كل يوم . .

قلت للشيخ محمد متولي الشعراوي . . انني أريد أن اسمع رأيك في هذا الموضوع . . وبدأ الشيخ محمد متولي الشعراوي يتكلم :

هناك صنفان من الناس . . صنف يعلم ويكفيه أن يعلم . . ليحمل نفسه على منهج ما علم . . وصنف يعلم ولكنه غير قادر على أن يحمل نفسه على منهج ما علم . . الصنف الأول تكفيه الحجة . . ويقنعه البرهان . . والصنف الثاني لا يقنعه أي شيء . . بل يخترع الحجة . . ليقنع نفسه بعدم السير . . أو الاعلان . . أو

التسليم . . بما علم . . وهذا الصنف الثاني هو الذي يدعي أن الاسلام قد انتشر بالسيف . . ووجود الحرب لا بد أن يكون معها السيف . . ولكن هل السيف هو الذي أوجد الحرب . . أم الحرب هي التي أوجدت السيف . . حين تجد سيفا أقنعك بحرب . . فاعلم أنها قضية باطل . . ولكن حين يوجب الحرب السيف . . فاعلم أنها قضية حق . . لذلك الأصل في السيف . . أن يكون حارسا لكلمة الحق . . . لا أن يكون معينا على كلمة الباطل . . ولذلك أخذت هذه القضية عند المستشرقين دورا عميقا أرادوا به أن يشوهوا وجه الاسلام في سياحته في الدنيا . . فقالوا إن الاسلام فرض بالسيف . . ونقول بأبسط عبارة . . ومن الذي حمل السف ليرغم الناس على منهج الاسلام . . هل بدأ الاسلام سيفا أم بدأ حرفا وكلاما مقنعا . . ان الذين حملوا السيف ليجتاحوا به في الأرض . . لم يفرض الاسلام عليهم بالسيف . . وانما دخلوه عن قناعة . . وقوة . . برهان وانصياع لحجة . . ومن هنا أخذ الاسلام دوره السلمي الأول في أن المقتنعين به اضطهدوا في ذواتهم . . واضطهدوا في أموالهم . . واضطهدوا في أهلم . . واضطهدوا في أوطانهم . . اذن فكانوا قلّة . . وكانوا أذلة . . ولم يكن لهم من جاه الحياة شيء . . فما الذي حملهم على أن يحملوا السيف ليجتاحوا به في الأرض . . انما حملهم على ذلك الاقتناع أولا . . لأنهم كانوا قلة . . وكانوا أذلة . . وكانوا لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم . . فالذي حمل السيف لم يفرض عليه أن يحمل السيف الا بعد قناعة . . وتلك هي فلسفة النشأة الأولى في مكة . . حتى يعلم الناس . . أن الناس قد اقتنعوا فحملوا السيف . . لم يحملوه ليجبروا أحداً على الايمان والاسلام . . ولكن حملوه فقط ليمنعوا المعوقات التي تعوق الكلمة التي تصل الى الأذن . . اذن حملوه ليقفوا أمام كتل الطغيان التي تحارب حجة الحق . . وكان هدفهم من ذلك هو حرية الرأي أولا وأخيرا . . وعدم فرض رأي معين بالسيف . . ذلك أن الكفار كانوا يحملون السيف ليفرضوا على الناس سماع كلمة الباطل . . ويمنعوهم من سماع كلمة الحق . . وحمل الاسلام السيف عن قناعة لا ليفرض كلمة الحق . . ولكن لكي تصل كلمة الحق الى اذن الناس . . وتكون الفرصة متساوية . . فيسمع الناس حجة هؤلاء . . وهؤلاء . . وبعد ذلك يختارون ما يختارون . . بارادة حرة . . لا يفرض فيها السيف رأيا . . ولا يفرض دينا . .

وان المبادىء التي تفرض على الناس بالقوة .. أول شيء يحدث فيها أن صاحبها الذي فرضها بالقوة .. غير مقتنع بها .. ولو كان مقتنعا بها [illegible] الذي يمنع الناس حين أعرض عليهم منهج الحق .. ومنهج الخير [illegible] ومنهج الجمال [illegible] أن يقتنعوا به .. ولكنه في نفسه غير مقتنع .. وهو يقول في نفسه ان لم أحمل الناس على ذلك المبدأ بالقوة .. لما اقتنع به أحد .. ولو كان مقتنعا به في ذات نفسه لرأى ذلك أيضا في غيره ..

والاسلام لا يريد قوالب تخضع .. ولكنه يريد قلوبا تخشع .. والقوة التي تفرض .. انما تتحكم في القالب فقط .. ولكنها لا تتحكم في القلب أبدا .. فمن الممكن أن تكره انسانا على عمل يعمله .. وأن تجبره على أن يقوم بهذا العمل بقالبه وبحركة عضلاته .. ولكن ليس من الممكن أبدا أن تقنع قلبه بأن يعتقد شيئا .. لأن العقيدة هي الشيء الذي لا يمكن الاكراه عليه .. انك تستطيع أن تكره الانسان على أن يقوم بأي شيء .. ولكنك لا تستطيع .. ولا تستطيع قوى الدنيا كلها أن تكره انسانا أن يضع في قلبه غير ما يحب .. وأن يصدق قلبه بغير ما يريد .. فالقلب خارج عن حدود السيطرة البشرية .. بحيث لا يستطيع انسان أن يكره انسانا اخر على أن يحبه .. أو على أن يصدق في شيء .. أو على أن يعتنق مبدأ ما ..

اذن فالاكراه ليس من مبدأ الاسلام .. والله سبحانه وتعالى قال : ﴿لا اكراه في الدين﴾ .. ولا يعقل أن يحمل المسلمون السيف ليقوموا بشيء قد نهى الله عنه .. وهو الاكراه .. أن يحملوا السيف ليكرهوا الناس على الدين .. والله سبحانه وتعالى يقول ﴿لا اكراه في الدين﴾ .. ولكن السيف هنا وجد ليعطي فرصة التكافؤ في الاختيار .. أي أنه وجد ليدافع عن الارادة الحرة للانسان .. أي أن السيف هنا .. وجد ليمنع الاكراه .. ويعطي الناس الفرصة للاختيار بدون اكراه أو ضغط أو ارهاب ..

اذن فالاكراه ليس بمنطق الاسلام .. واذا رأينا اسلاما التجأ للسيف .. فانما فقط ليعطي فرصة التكافؤ في الاختيار .. هناك قوى كانت تحكم العالم وتفرض عليه

أشياء وخرافات تقتنع بها . . فجاء الاسلام ليكبت هذه القوى . . وليقول كلمته أمام الناس . . ثم يطرح القضية على الناس . . قضية الحق . . قضية الدين الحنيف . . فمن أمن بها امن بقلبه . . ومن لم يؤمن ظل على دينه . . ولذلك نجد في سياحة الاسلام في هذه البلاد . . ووجدت أمم من اليهود . . وأمم من المجوسيين . . وأمم من النصارى لم يتعرض لهم الاسلام . . وظلوا في حماية منهج آخر . . لهم ما لنا وعليهم ما علينا . . ولو أن الاسلام فرض بالسيف كما يقولون . . لما وجد الا مسلم في أي أرض يدخلها الاسلام . . فوجود غير المسلمين في أراضي الاسلام . . لم يجيء ليحمل الناس على مبدأ من المبادىء التي لا يستطيبها سلوكهم . . ولا يقبلها قلبهم . . انما أراد فقط أن يزيح المعوقات في اختيار البدائل . .

وشرف الاسلام وقوته أنه أول من حارب من أجل حرية الرأي وحرية العقيدة . . كانت هناك حروب من أجل فرض الرأي . . وحروب أخرى من أجل فرض عقيدة ما . . وهذه الحروب وتلك نعرفها جيدا . . في التاريخ . . ونعرف أولئك الذين قاموا بها . . ولكن ما من حرب قامت من أجل حرية الرأي وحرية الفكر . . وحرية الاختيار . . الا الحروب الاسلامية . . ولذلك فان من حديث اليوم عن حرية الفكر وحرية العقيدة . . مظهر من أكبر مظاهر التقدم في الأمم . . نقول إن الاسلام سبق العالم في هذا التقدم . . وإنه أول من حارب وقاتل دفاعا عن حرية الكلمة . . وحرية العقيدة . . وهكذا أثبت الإسلام أنه لم يحقق أي انتصار للسيف . . ولكنه حقق الانتصار بالرأي والاقناع . . وانما حمل الاسلام السيف لأن أولئك الذين ضده منعوا حرية الرأي والعقيدة . . ومنعوا غير المسلمين من الاستماع الى مبادىء الاسلام الحقيقية . .

الى هنا وينتهي كلام فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي . . الا أن لي كلمة أريد أن أضيفها . . ان موضوع الاسلام والسيف محتاج الى ندوات ومحاضرات . . ذلك أنه موضوع كثر الاتهام بالباطل فيه . . وجاء الوقت ليظهر الحق . .

نحفظه نعم .. نعمل به لا !

كثير من الناس يعتقدون أن حفظ القرآن أو وضعه في مكان ظاهر وبشكل جميل يتنافى مع قواعد الدين .. ذلك أن القرآن قد أرسل ليعمل به المسلمون لا ليزينوا به منازلهم ومكاتبهم .. وسياراتهم .. بينما تطبيق المنهج .. أو تطبيق تعاليم القرآن يمضي في خط نزولي ..

والذي لا شك فيه أن هناك فرقا بين تطبيق القرآن والعمل به .. وبين الحفاظ على القرآن في شكل جميل .. والتفنن في اخراجه بصورة تستهوي القلوب والنفوس .. على أن القرآن كمنهج .. هو المطلوب منا أن نحافظ عليه .. بأن نتبعه .. وقد استمعت الى عدة أحاديث للشيخ محمد متولي الشعراوي وزير الأوقاف وشؤون الأزهر .. عن كيف أن تطبيق المنهج والحفاظ على القرآن يسيران في خط عكسي .. فبينما يقل تطبيق المنهج يزداد الحفاظ على القرآن .. لأن الحفاظ على كتاب الله قد تعهد به الله .. ولم يتركه للبشر .

على أن القرآن كمنهج .. كان موضوع حديثي مع فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ..

قال الشيخ الشعراوي : إننا نحفظ القرآن .. ولا نحافظ على القرآن .. وفرق بين أننا نحفظ .. واننا نحافظ .. وانك لو استقرأت واقع المسلمين في الأرض .. لوجدت أمرا عجيبا .. لا يحكمه منطق واحد .. وجدت أن المسلمين بدأوا يتخلون عن مبادىء دينهم شيئا فشيئا .. فالحفاظ على المنهج في نزول .. ولكن توثيق القرآن وحفظه في صعود .. كل يوم يأتي لون جديد من ألوان حفظ القرآن .. المطابع تطبع أحجاماً مختلفة .. التسجيلات على أشرطة وعلى اسطوانات .. فاذا نظرنا الى القرآن .. نرى كلمة منهج .. ما هي ؟ .. المنهج معناه الطريق الموصل الى غاية .. هذا بالأمور الحسية .. أما في الأمور المعنوية فهو القضايا التي تحكم السلوك البشري

حكما صادرا من أعلى لأسفل . .

وحينما أقول أنا مسلم . . فكلمة مسلم تأتي من أسلم . . ومعنى أسلم مأخوذ أيضا من معنى أسلمت زمامي الى فلان . . أي صرت في حركتي تابعا له . . اذا قال لي افعل . . أفعل . . واذا قال لي لا تفعل . . لا أفعل . . وهل أنا ـ باستخدام المنطق والعقل وكل الموازين ـ هل يجوز أن أسلم قيادي لمن هو أقل مني مستوى . . أي لمن لا يصل الى مستواي الفكري والعقلي . . الجواب طبعا لا . . لأن ذلك يأباه المنطق السليم . . وهل أسلم زمامي لمن هو مساو معي في الفكر والتفكير والعقل . . الجواب : أيضا لا . . ذلك أنني ما دمت متساويا معه فلا يصح أن أسلم زمامي . . او قيادي اليه . . لأن التساوي هنا يجعلني أنا أتفوق في ناحية وهو يتفوق في ناحية أخرى . . ولا احد منا يستفيد أو يرتقي من تسليم زمامه للآخر . . بل على العكس . . كلانا سيصاب بأضرار . . لأن ادراكنا ومستوانا قاصر . . ولأننا متساوون في العقل والفكر . . ولأننا نحن الاثنين بشر . . ومعنى بشر أن لنا أهواء تحكم تصرفاتنا . . مهما حاولنا أن نجعلها موضوعية . . وبعيدة عن الهوى . .

ولكن المنطق والعقل يؤكدان انني اذا أسلمت فانني يجب أن أسلم زمامي لمن هو أعلى مني علما وقدرة وحكمة . . أي أن الانسان العاقل لا يمكن أن يسلم زمامه . . الا لمن ثبت بالتجربة انه أعلم منه وأحكم منه . . وأقدر منه . . وليس له هوى ، وهذا هو الأهم ، ذلك أن من أسلم اليه زمامي قد يكون أعلم وأحكم وأقدر . . ولكن لعل له هوى . .

اذن المسلم يسلم زمامه لمن آمن به . . ذلك الذي يملك العلم المطلق . . والحكمة المطلقة . . والقدرة المطلقة . . ولا هوى له فيما يقنن . أو فيما يصدره من قوانين وتشريعات . . في أفعل ولا تفعل . . ومن هنا فان الاسلام معناه أن نتبع في أمورنا القوانين والتشريعات الصادرة عن الله . . ما دمنا قد آمنا أنه هو الحكمة المطلقة والقدرة المطلقة . . وأنه لا هوى له فيما يشرع لعباده . .

نأتي بعد ذلك الى منهج الاسلام . . الذي وضعه الله . . قال رسول ﷺ . .

بني الاسلام على خمس . شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله . . واقام الصلاة . . وايتاء الذكاة . . وصوم رمضان . وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا . . اذا ناقشنا المبدأ الأول وهو : أن لا اله الا الله . . أقول إنها المطلب المسلم . ذلك أنني حين أقولها أسلم لله سبحانه وتعالى أمري وأعلنه وأشهده أنه لا يرتفع الى الحكمة المطلقة الا هو . . وأنني لا أعبده الا هو وحده وانني أؤمن برسالة نبيه ورسوله محمد ﷺ .

فاذا انتقلنا بعد ذلك الى باقي الأحكام نجد أن الله سبحانه وتعالى قد فرض الصلاة . . حدد فيها الزمان وترك حرية المكان . . وفي الزكاة حدد الحركة . . وبعد ذلك حدد الزمن وهو في وقت الحصاد . . وترك الزمن مطلقا بالنسبة لزكاة المال . . أما في الحج فقد حدد لك الله الحركة ، وحدد لك الزمان ، وحدد لك المكان . . اذن فالحج يشمل ثلاثة أشياء : تحديد الحركة ، وتحديد زمان ، وتحديد مكان . ادن لم يترك الله لي في الحج شيئا أبدا لاختياري سواء كان ذلك بالنسبة للزمان أو المكان ، أو الحركة . . لذلك على قدر هذا التقييد في الحركة وفي الزمان وفي المكان . . كان جزاء الحج المبرور . . أن يخرج الانسان من ذنوبه كيوم ولدته أمه . . لأنه تحددت الحركة ولم يترك لي الحرية لا في الزمان ولا في المكان . . وفي العبادات تحدد الحركة ويترك لي الزمان . . وفي الاعتكاف تحدد لي الحركة والمكان . . ويترك لي حرية الزمان . .

فاذا استكمل الانسان هذه الخمسة . . فلينتبه الى أن الرسول ﷺ . . حين قال بني الاسلام على خمس . . لم يقل الاسلام خمس . . وانما بني الاسلام على خمس فكان هذه الخمس هي الأساس والدعائم . . ولكن هل الأساس والدعائم هي المبنى ؟ . أبدا . . . . أنها هي التي تحمل المبنى نفسه . . تعطيه قوة التحمل . . والقدرة على البقاء . ولكنها ليست المبنى نفسه . . وهناك الحجرات . . المبنى يستكمل بأشياء كثيرة جدا كلنا نعرفها . . إذاً بني الاسلام على خمس . . هذه هي الشعائر . . الأسس أما كلمة الاسلام فهي كل حركة نابعة وجالبة الخير للانسان . . لا يطلب منا شيئا . .

نقول له . . لا . . ان اسلامك مبني يظن انسان أن الاسلام يطلب منه أن يؤديها . . ثم بعد ذلك فالمنهاج من هذه الناحية ليس مجرد الشعائر فقط التي قدرت على هذه الأسس الخمسة . . وما دام اسلامك مبنيا على هذه الخمسة . . اذن فهو يمثل شيئا أكثر عطاء . . أكثر من هذه الخمسة لتستكمل البنيان وتكمله . . وهذا الملء هو الذي يمثل حركة الحياة التي تحملها أسس الاسلام الخمسة .

اذن فمنهج الاسلام يتطلب ويتضمن كل حركة نافعة في الكون والحركات النافعة في الكون هي تعامل الانسان مع أجناس الكون كله . . فالذي يتعامل مع الأرض ومع المعادن معاملته مع الجماد . . والذي يتعامل مع الخصوبة والزرع يتعامل مع النبات . . والذي عمله مع الحيوان كمربي الماشية مثلا وأصحاب المراعي . . هؤلاء وغيرهم يتعاملون مع الحيوان . والذي عمله في انسانيات الانسان يتعامل مع الانسان . . اذن فكل حركة في الوجود تتصل بالجماد أو بالنبات أو بالحيوان أو بالانسان هي حركة من منهج الاسلام . . والاسلام ينظم هذا كله في تعاليمه من الرأفه بالحيوان . . وحسن التعامل مع الأرض بعدم اتلاف زرعها وخيراتها . . وتعامل الانسان مع أخيه الانسان . . هذه كلها يحددها منهج الاسلام . . ويحددها بتعاليم . . ملؤها الرحمة والنور والمغفرة . .

علوم الدين .. وعلوم الدنيا

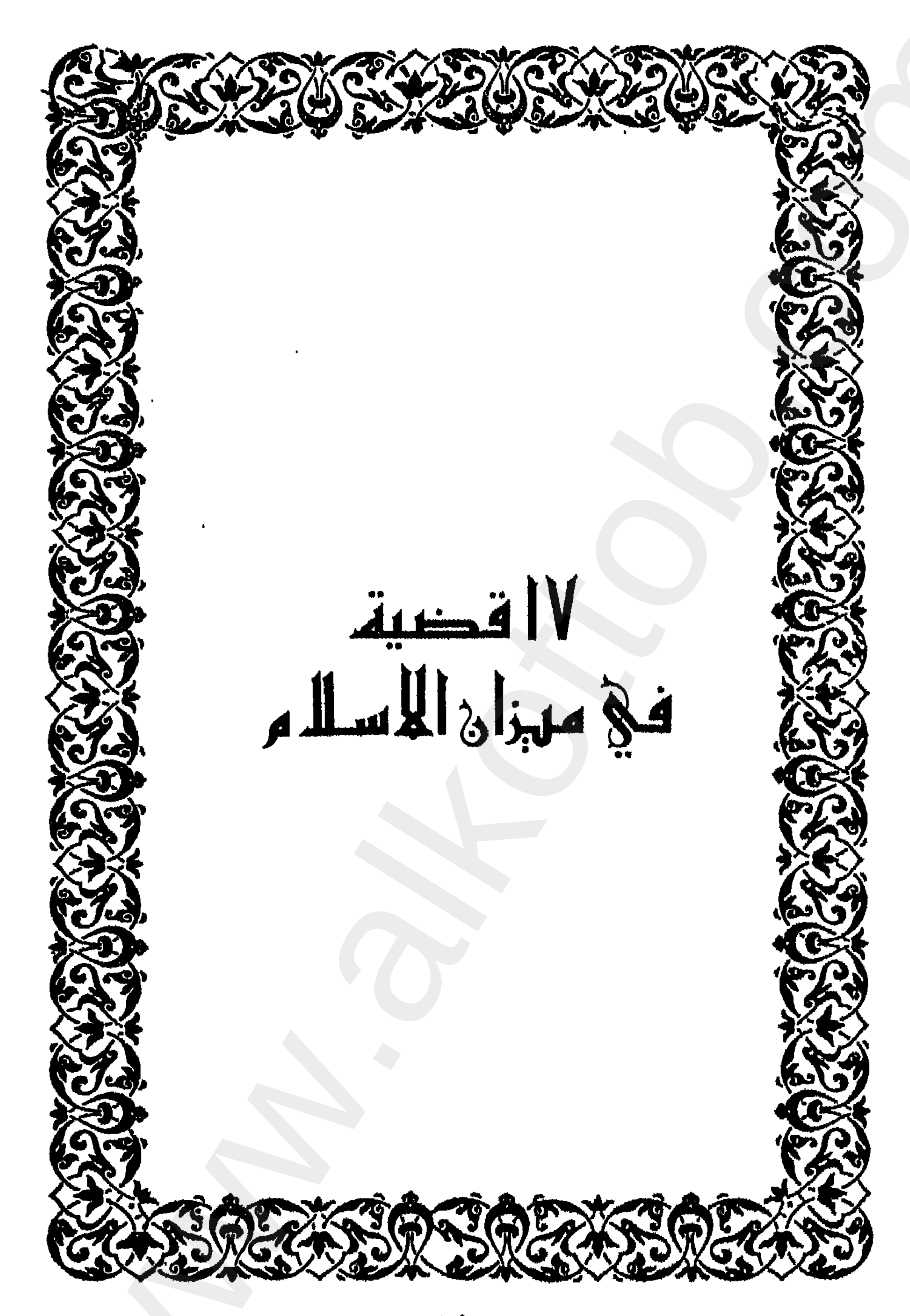
ان الحديث عن علم الدين .. أو تعاليم الدين قضية هامة .. ذلك أنه مع ارتقاء العلوم البشرية .. فان تدريس علوم الدين يبقى كما هو .. حتى أنه يقال ان التدريس في علوم الدين قد تجمد .. أو قل .. أو ضعف ..

وكان هذا هو موضوع لقائي مع فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي عن علوم الدين وعلوم الدنيا.. قال الشيخ محمد متولي الشعراوي :

لأن مهمة العلماء الذين يحملون منهج الله .. مهمتهم أن يرسخوا العقيدة في نفوس المجاهدين في سبيل الله .. ليستهينوا بكل غال .. وبأية تضحية في سبيل نشر نور الله .. واعلاء كلمة الله .. فهم اذن مهمتهم .. مهمة الإعلام لقضية الحق .. ولكن علم الدين يختلف عن بقية العلوم في سائر الأرض .. واختلافه ناشيء من طبيعته .. لماذا ؟.. لأنك حين تعلم الناس منهج تاريخ مثلا .. تعطيهم قضية لفظ الأحداث بأزمانها .. ولا تطلب منه أن يعتبر بهذه الأحداث .. فالأحداث الضارة التي مرت بها شعوب يجب أن نتجنبها .. والأحداث النافعة يجب أن نأتيها .. والذي يتعلم الكيمياء أو الهندسة .. يكفيه أن يعلم قضية العلم .. ولكنه لا يحور في شيء من سلوكه حسب قضية النظرية الهندسية .. أي أنك وأنت تعلم الانسان العلم أو الطبيعة أو التاريخ أو أي شيء آخر دنيوي .. تعلمه له دون أن تطلب منه أن يغير سلوكه .. أو أن يترك أفعالا معينة شخصية تتنافى مع هذا العلم .. أو تطلب منه أفعالا معينة يريدها في هذا العلم .. فسلوكه في الحياة حر .. لا تحكمه قضية كيمائية الا بمقدار ما يريد منها خيرا .. ولكن علم الدين شيء آخر .. لا يكفي أن تعلمه . بل أن تعلمه لتحمل نفسك على السلوك على وفق ما تقتضيه .. اذن فعلم الدين يتطلب شيئا اسمه التربية .. علم وتربية .. فما هو الفرق بين العلم والتربية .. العلم ادخال المعلوم من العالم في ذهن غير المتعلم .. ولكن التربية هي أن تحمل

الشخص الذي تريد تربيته على أن يتبع سلوكه على وفق ما علم . . اذن فقضية علم الدين تأخذ خطواتها من هذه الناحية . . لا يكفي أن تعلم قضية العلم . . لأن علم الدين يتطلب انطباع السلوك بما علم الانسان . . ولكن الكيمياء لا تطبع سلوكك على شيء في حياتك . . أنت تصنع بالكيمياء ما أردت العملية الكيميائية . . لا تقول لك الكيمياء افعل كذا في حياتك . . ولا تفعل كذا . . وانما يقول لك علم الدين . . افعل ولا تفعل . . اذن فقضية علم الدين تتلخص في افعل . . ولا تفعل . . ومع افعل ولا تفعل . . أن الدين منظم لحركتك . . فليست المسألة مسألة انطلاق في الحركة . . ولكن هناك أموراً أنت لا تحب أن تفعلها ومطلوب منك أن تفعلها . . وأموراً تحب أن تفعلها . . ويطلب منك ألا تفعلها . . ومعنى ذلك هو التحكم في حركة حياتك . . لا في حركة حياتك كلها . . بل في جزء بسيط منها . . لأننا لو وجدنا المطلوب بافعل . . . والمطلوب بألا تفعل . . بالنسبة للحياة لوجدناها تأخذ جزءا يسيرا . . والأجزاء الباقية في منطقة اختيارك . . يمكنك أن تفعل . . أو لا تفعل . . اذن فيجب أن نفرق بين علم وتربية . . . فالعلوم غير الدينية يكفي أن يعلمها المتعلم . . ولكن علم الإسلام لا يكفي فيها أن يعلمها المتعلم . . بل لا بد أن يتبع سلوكه على وجه ما علم . . في أن يعلم الانسان قضية علمية . . ثم يراقب سلوكه . . ليرى اذا كان سلوكه على مقتضى القضية العلمية الدينية . . الذين يريدون التحلي بالأخلاق التي تؤهلهم لهذا الدين . . يجب أن يوطدوا أنفسهم على الأسوة برسول الله ﷺ . . وعلى الأسوة بهذه القيم . . والا بحثوا لأنفسهم عن مجال آخر . . فهم يجب أن يجعلوا سلوكهم على وفق ما كان يفعله رسول الله ﷺ . . ورسول الله تحمل ما تحمل . . ولقي ما لاقى . . ولم يلاق أحد من علماء المسلمين عشر ما لقيه رسول الله ﷺ . . والذين يحبون رسول الله . . ويحبون أن ينتموا اليه . . يجب أن يعلموا القضية الأصيلة . . ان الرسول ﷺ حينما شاء الله أن ينطلق بدعوته الى المدينة . . لتكون المنطلقة للدعوة الكاملة الشاملة . . وهو أنه حين أخذ العهد على الأنصار . . قال له الأنصار . . ماذا سنأخذ اذا وفينا بهذا العهد . . لم يذع رسول الله في الصفقة شيئا من متاع الدنيا . . ولا لزخرفه . . حتى يكون الداخل على هذا المنهاج ليست الدنيا في حسابه . . فقال لكم الجنة . . ولكم الجنة ليست صفقة رخيصة . .

ولكنها في نظر قانون النفعية صفقة غالية جدا . . لماذا ؟ . . لأن الانسان بقضية التعامل التجاري . . لا يتاجر الا ليشتري على أمل أن يبيع بأكثر وما دامت التجارة تؤدي ربحا أكثر من الثمن . . فتكون التجارة رابحة . . فاذا نظرنا الى هذه الحياة لنربطها بقضية الصفقة الاقتصاديةفي قانون النفع الانساني . . نضرب مثلا للانسان . . أيها الانسان . . أنت تتعلم حتى تبلغ سن الخامسة والعشرين . . وفي بعض الأحيان يتطلب تخصصك ألا تنتهي من علمك في سن الثلاثين . اذاك حتى سن الثلاثين تقضيه في مذاكرة وسهر وتعب . . وليتك تعبت وحدك . بل تعبت أهلك جميعا . . فربما ادخروا من أقواتهم ليقدموا لك سبيل العلم . . أنت تعبت وأتعبت . . وشقيت وأشقيت . . بأي عمل فعلت هذا . لماذا ؟ . حتى توفر لنفسك حياة الى سن الستين أو الخامسة والستين . . اذن أنت تعبت ثلاثين سنة لتوفر حياتك لمدة ثلاثين سنة قادمة . . ولكن هذا العمر الذي توفر فيه المتاع لنفسك بعد سن الثلاثين عمر متيقن . . أي أنك تعلم ذلك يقينا . . انه عمر تفترض أنه مضمون . . وحتى اذا تجاوزنا . . وقلنا انه متيقن . . فان له بداية . وله نهاية اذن فهو محدود حتى لو سلمنا بأنه واقع . . مع أنه في الحقيقة لا يمكن ان يكون مأمولا . . لأن الأجل قد يأتي في أي وقت قبل الثلاثين . . أو بعد الثلاثين . . وقد لا يمتد العمر لأكثر من الثلاثين بسنوات قليلة . . ثم على أي نوع من أنواع الحياة توطد نفسك في هذه المدة المأمونة . . توطد نفسك على قدر امكانياتك . . ولكن رسول الله حينما قال . . لكم الجنة . . انما قال شيئا لا يمكن أن يحققه أي ربح في الدنيا . . ولا أي نجاح في أي صفقة تتبع قانون النفعية المادية . . لماذا ؟ . . لأن الحياة محدودة مهما طالت . . ويعدك الله بشيء غير محدود . . اذن من ناحية المقارنة الاقتصادية النفعية . قارنت حدودا بغير حدود . . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . . .



١٧ قضية
في ميزان الإسلام

قضايا العصر الحائرة في قلوب وعقول الشباب المسلم التي تطرح نفسها بإلحاح اليوم . . لماذا هذا التخلف الذي تعاني منه دول العالم الاسلامي . . بينما دول اخرى لا تدين بالاسلام أكثر تقدما ؟ . . وماذا أصبح جزاء الاحسان ؟ . . وما دام الرزق مقدرا ومكتوبا للانسان . . فلماذا العمل ؟ وبعض الناس يقول ان الخمر لم يرد في تحريمها نص في القرآن . . فهل هذا صحيح ؟ ولماذا لم يذكر تحريم الخمر بنص مثل تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير ؟ . . وإلى أين ينتهي الأمر بالانسان وهو يبحث أسرار الروح بعد أن سجل القرآن حيرته منذ أربعة عشر قرنا ؟ . . وما هو الرد على العلماء الذين يقولون بأن الروح لها وزن ؟ وما هو الرد على من ينكرون وجودها ؟ وعن الآخرة . . ما يعني أن ينتبه الانسان بعد الموت أو السكون والصمت والنهاية ؟ وكيف وهو في الحياة بما فيها من السمع والبصر يكون نائما ؟ . . وما هو معنى الجنة ؟ . . وأخيرا لو أن آدم عليه السلام لم يخطىء واستمر في الجنة . . لكان كل الناس في نعيم . . فلماذا الحساب والثواب والعقاب والخطيئة والتوبة والايمان والكفر . . . . ؟؟ . . .

هذه القضايا هي موضوع الحوار الهادىء مع فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي وزير الأوقاف وشؤون الأزهر والذي أجراه بذكاء ووعي واقتدار الكاتب الاسلامي أحمد زين . . . .

حسين عاشور

لما كان للشيخ محمد متولي الشعراوي من أسلوب عقلاني متميز في تناول ما يعرض عليه من موضوعات ، فان من الصعب على أي طرف ثالث الدخول في العلاقة اللصيقة والمباشرة بين الشيخ والقارىء. ومنشأ الصعوبة : انه يقدم بضاعته بوضوح وعمق ويسر لا يحتاج معها القارىء في أغلب الأحيان الى جهد كبير لإدراك مراده .

ولذلك يصير المجال جد ضئيل لمن يود أن يكون طرفا ثالثا ـ ان جاز ذلك ـ بحيث ينحصر الدور فقط في مجرد تهيئة القارىء للقضية موضوع الفصل .

وموضوعات الكتاب : هي اجابات الشيخ عن أسئلة عديدة تدور في أذهان الناس . . أتاح لي عملي الصحفي أن أتعرف عليها ثم أضعها أمانة بين يدي منهجه التحليلي .

والرجل حريص في اجابته على أن يرد الأمور الى أصولها ليستلهم منها الحل والرأي بحيث لو سألته عن زهرة عطرة ، ما كان ليعطيك الاجابة ، الا راجعا بك الى أصولها الأولى من منبتها في الأرض . وهذا يوفر لك الاجابة بخلفيتها العريضة وجوانبها المتعددة تهيئة لك لاستيعابها . . وبذلك يصل معك الى النتيجة وأنت تكاد تنطق بها قبل أن يقولها هو نفسه .

الشيخ الشعراوي ـ أيضا ـ يشعرك عادة وهو يتناول الموضوع ، بأنك لأول مرة تسمع مثل هذا الذي يتحدث عنه ، وان كان نصيبك من السماع مائة مرة .

وما يسترعي الانتباه ذلك الرونق البلاغي الذي يتحلى به أسلوبه الشيق . فلقد عمل لفترة ليست بالقصيرة أستاذا للبلاغة وليس أجمل من أن تعرض الفكرة الرصينة في أسلوب شيق . فذلك مما يقرب المسافة بين القائل والمستمع .

ولقد داومت في بداية كل فصل على التفرد ببضعة سطور أنقل من خلالها القارىء الى

جو الموضوع واطاره العام .

وأردت ألا يجيء عرض الكتاب في شكل سؤال وجواب كيلا أقطع على القارىء استرساله خاصة وأن السؤال الواحد كان يتولد عنه عدة أسئلة فرعية تثور أثناء الحوار مع الشيخ ، ولذلك جاءت تلك المقدمات لتؤدي - الى حد ما - مهمة الحوار دون أن تقطع لذة تتابع الأفكار واسترسالها في تلك الرحلة الشيقة مع الشيخ محمد متولي الشعراوي .

سيد حمدي

امرأة فرعون ودرس لنساء اليوم

قصة امرأة فرعون التي عرضها القرآن الكريم عرضا سريعا ، تدل على اصالة المرأة في مجالها العقدي ، وانها ليست تابعة في عقيدتها لأحد ، ولو كان هذا الأحد (فرعون) الذي ادعى الألوهية . . فانها تأبت عليه ، وأعلنها الله تعالى في قوله : ﴿وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾[1] .

فهنا عزفت الزوجة عن جاه الألوهية الكاذبة وجاهها ونعيمها الملفق ، بايثارها شيئا لا يزال غيبا وهو الجنة . . فلو أنه كان شيئا محسا لكان أمرا معقولا ولكنه بأمر غيبي . . هذا الأمر الغيبي ضمانته في أنه أخبار من الله الذي تثق في صدقه . .

وفي هذا العرض جوابا عن كل التساؤلات التي تتصل بالحياة المعاصرة . فزخرف الحياة المرئي وزينتها المسيطرة وتبرجها الشائع يجب أن يقارن ـ عند المرأة العاقلة ـ بما يعد لفاعل ذلك من عذاب ، وبما يعد للصادق من ثواب . . والا كان المؤثر للماديات المشهدية عن الوعد والوعيد الغيبي ، غير مؤمن بالذي أوعد ووعد .

ان المكلف لا ينصرف عن تنفيذ أمر الله الا لعدم استحضاره للجزاء على الطاعة والجزاء على المعصية . . فلو أن المرأة استحضرت عقوبة الله على مخالفة منهجه استحضارا غير مشكوك فيه ـ لرفضت كل مخالفة لمنهج الله . ولكن الغفلة عن الجزاء ، هي السبب الفاعل في الانصراف عن الأمر مطلوبا وعن النهي مطلوبا .

وحسب الانسان أن يعلم أن فرعون ـ بدعواه الألوهية وباستخفافه قومه ـ لم يستطع أن يتبع له امرأته !

---

(١) الأية ١١ سورة التحريم .

ومن هنا ، يجب على الفتاة المقبلة على الحياة ، أن تنظر الى أحوال السيدات اللاتي ادبرت عنهن الحياة ، وتنظر في حياة هؤلاء . . أهن مرتقيات فيما كن فيه عندما كانت الحياة مقبلة عليهن أم تنازلن . . ؟ وهذا التنازل نحو ما يقرب من المثل العالية أم يبعد عنها . . ؟

والذي لا شك فيه ، انهن يصرن الى شيء آخر تماما من محاولة احياء القيم ، والتمسك بأهداب الحشمة واتعاب المسؤولين في الاستفتاءات عن الحلال والحرام ، وما هي الوسيلة الى استبراء الذمم مما حدث في سابق العصر والأوان ؟ . . كل هذا يجب أن تستحضره الفتاة . .

وبدلا من أن تؤجل اليقظة الايمانية الى ميعاد الشيخوخة ، يجب أن تتنبه الى أنها لا تملك أجلها الى أن يدركها عهد التوبة والاستغفار والتطهر ، وان ملكت ، فما الذي يؤخرها عن هذه الحلاوة التي تختتم بها هذه الحياة ولا تحاول أن تتعجلها طهرا وصفاء ونقاء .

ان الشيطان يخدع كثيرا من الفتيات بأن التبرج ، والزينة ، واظهار المفاتن ، أمور تطلبتها عادات التحضر والارتقاء ، ولا يعني التحلل الخلقي ، ولا التفسخ الايماني . فقد تكون ـ من حالها هذه ـ على موفور من الالتزام الديني فيجب أن نقول لها : اننا لا نتهم الفتاة في تبرجها ولا في اظهار مفاتنها ، وسنصدق أن ذلك لا يعني الا شكلية حضارية . وعلى الرغم من بطلان هذا الكلام ، لكن ، ما أثر منظرها في اهاجة غرائز سواها واستلفات أنظار من يراها . . ؟ هل تضمن أن الذي يراها لا يتأثر بما يرى ، ولا يهيجه ما يشهد ؟ فان لم يكن لاحتشام الفتاة الا سد ذريعة جلد غرائز الرائين والمشاهدين ، لكفاها ذلك التزاما .

ثم ان الرجولة الحقة في الزوج ألا تحب المرأة أن تكون مقصورة على زوجها ؟! له هو وحده فقط . ان الذي لا أشك فيه ، أن من لا يحب ذلك في امرأته ، له هدف في أن يرى نساء سواه وان اباحته ذلك لامرأته ، هو جواز المرور لذلك المجتمع الموبوء .

دور أجهزة الاعلام في العالم الاسلامي

أجهزة الاعلام في العالم الاسلامي ، تسير في اتجاه واحد مع أي نشاط آخر من نشاطات العالم غير الاسلامي ، لأن الفتنة بالغرب جعلت هذه الأجهزة كغيرها تحذو حذوه في كل شيء . وتنهض بأي لون من ألوان النشاط على خطئه . فكأننا ننقل كل مجالات الحياة هناك ، الى مجالات الحياة هنا .

ومن هذه المجالات مجال الاعلام . .

والاعلام في الغرب كله مهمة شركات . . والمهمة الأساسية لأي شركة : خدمة رأس المال بتحقيق الأرباح .

وتحقيق الأرباح لا يتأتى الا بالانتاج الكثير المستميل للمستهلك .

فالغرض الذي من أجله انشىء الاعلام في الغرب ، غرض لا يقوم الا على تحقيق الأرباح ، وتحقيق الأرباح لا يتأتى الا بتعدد المستهلك الذي يحب كل ما يمتعه ، ويحقق له غاياته التي يشتهيها ، والامتاع دائما يكون سائرا مع تحقيق الشهوات ، وبالتالي فان وسائل الاعلام هناك ، مرغمة اقتصاديا على أن تحقق لمجتمعها أقصى ما يمكن من المتع : بالشهوات والالتذاذ بالانحرافات .

وكل تقدم يقاس بقدر ما يتحقق من هذا الغرض الأصيل . .

ولكن العجيب أن وسائل الاعلام في العالم الاسلامي ملك للدولة فهي ليست شركات استثمار ، ولكنها مجال خدمات . ومع ذلك لم يفطن الاعلام الى هذه الحقيقة . وسار ـ في مناهجه ـ على وفق مناهج الغرب ، الذي لا يهم فيه القائمون على أمر شركات الاعلام بما يهدم من قيم ، بقدر ما يهمهم ما تحققه من ربح !

ان المفروض في وسائل الاعلام في البيئات المتماسكة الملتزمة : ألا تنزل الى المستوى الذي تطلبه غوغائية الجماهير ، بل من واجبها أن ترتفع بهذه الغوغائية لتأخذ بيدها الى مستوى رفيع من الفضائل والقيم . . أما ان يهبط الاعلام الى مستوى، تحقيق النازل من الشهوات ، فهذا لا يمكن أن يكون اعلاما رشيدا مخلصا . .

والاعلام لو نزل الى مستوى الناس الهابطي الفكر ، لأصبحوا هم الموجهين ، ويفقد الاعلام بالتالي دور التوجيه ، لأن مهمة الأعلى ـ دائما ـ أن يأخذ بيد الأدنى اليه .

ولا شك أن القائمين على التوجيه . هم الطبقات التي ائتمنت على التوجيه . . فاذا ما شد الأدنى الأعلى ، صار الجميع في المنحدر . . ولكن منطق التشريع الالهي ـ هو أن يرتفع بمستوى البشرية الى مراتب الفضائل والقيم . . يقول الله تعالى :

﴿قل تعالوا أتل ما حرم رَبكم عليكم . .﴾[1] .

ومعنى (تعالوا) هو أقبلوا . . ولكن اللفظ يحمل معنى فوق الاقبال ، وهو « ارتفعوا » الى مستوى ما يريده الخالق . . أي أن التشريعات البشرية التي كان يتبعها الناس قبل الوحي تأخذ الموضع السفلي . . بينما شرع الله له العلو والسمو ، ومن هنا جاءت كلمة (تعالوا) . . .

---

(١) من الآية ١٥١ في سورة الأنعام .

من الخـــاسـر . . . ؟

لماذا تؤذن الحضارات دائما بزوال القيم ؟! ولماذا تنتهي باستمرار الى التدمير ؟! الاجابة على ذلك هي : أن الحضارة طالما كانت قائمة على أسس من وضع البشر ، غير محروسة بقيم الهية ، فان نهايتها الطبيعية هي الفناء . ومفهوم معنى الحضارة هو : كل شيء اذا حضر ، فشهوات النفس فيها محققة وطلباتها مجابة . لكن النفس محتاجة الى من يكبح جماحها ويوقفها عند حدودها . ويمنعها من تحقيق شهواتها البهيمية .

وهذه النقطة هي أساس مهمة الدين الذي يتولى ضبط حركة النفس وتهذيب شهواتها .

ولذلك يصف ادعياء التحلل ، من يتمسك بدينه بأنه رجعي وغير تقدمي أي ليس منطلقا مع شهوات نفسه .

هذا هو السبب الأول في اسهام الحضارة في زوال القيم .

أما السبب الثاني فسأعطي له مثالا ليكون قريبا من الأذهان . قديما حينما كان الناس يذهبون الى بئر للشرب ولا يجدون ماء ، يلجأون الى الله فورا بالدعاء والرجاء ، ليستجيب لندائهم .

وهذا راجع الى أنهم لا يزالون في الفطرة والبداوة ، التي هي قريبة عهد بنظام الله وآياته في الكون .

أما اليوم فحين لا نجد الماء في المنزل لسبب من الأسباب نبحث في الصنبور لعله فاسد فنصلحه ، فان لم يكن كذلك ، نبحث في المواسير لعلها مسدودة ، وهكذا ، وهكذا . ونلاحظ هنا أن كثرة الأسباب الظاهرة وانشغال الناس بها ،يذهلهم ويلهيهم عن الفاعل الحقيقي ، الخالق القدير ، الله .

وأنا لي تجربة شخصية ، حين كنت في بلد من البلاد أحضر حفلا دينيا لافتتاح سد جديد ، فقال عظيم من العظماء لحظة الافتتاح : الآن ستروون مزارعكم . . أمطرت السماء أم لم تمطر . . فقلت له : واذا لم تمطر السماء فأي شيء يحجز سدك ؟! . . انك في حاجة الى مطر السماء حتى يكون لسدك مهمة .

فطالما بعد الانسان عن الفطرة بدا العقل البشري في الغرور والطغيان .

والذي يقول إن الدين يخسر أنصارا خاطىء في هذه المقولة ، لأن في اللغة يقال : فلان خسر الشيء اذا كان الشيء مؤثرا في نجاحه .

والحقيقة أن الدين هو المؤثر في نجاح الانسان وليس العكس .

فالدين هو الدين لا يزال باقيا . والله سبحانه منفرد بالألوهية : شهدنا بذلك أم لم نشهد .

وانتشار القلق والاضطرابات والحروب اليوم ، انما هو نتيجة حتمية ومنطقية لما تجنيه نظم العالم وقوانينه واخلاقياته ، وبذلك يكون ما يعانيه البشر اليوم هو الجمال بعينه ، لأن الجمال ليس كل ما تستطيعه النفس ، ولكن أن تأتي النتائج وفق مقدماتها . .

فلو أن العالم استقر ، وشاعت فيه الطمأنينة ، وغشيه الأمان وانتشرت فيه الرحمة مع انحرافه عن المناهج الالهية وهي التقنينات التي تحكم حركة حياته، لكان ذلك هو القبح بعينه .

ثم ماذا تريد من عالم القوي فيه متحكم بهواه والضعيف لاه عن خالقه ؟! . . الأمر الطبيعي أن يحدث ما نراه الآن من فوضى واضطرابات وحروب ، وصدق الله اذ يقول : ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض﴾[1] فهل كنا نحب بعد اتباع الناس لأهوائهم أن لا يحدث هذا الفساد ؟ معاذ الله ألا يصدق قول الله .

---

(١) من الآية ٧١ في سورة المؤمنون .

الطلاق والتعـــدد

حين نرى لأي نظام عيوبا يجب أن ننظر أولا : هل نفذ النظام كما أراده المشرع وكما وضعه ؟ وهل طبق القانون وفق ما هدف اليه الشارع أم أن هناك أمورا حسبت على القانون وهي ليست منه ، حينئذ نستطيع أن ندرك هل العيب في النظام والقانون أم في تطبيق أي منهما ، فان كان العيب في التطبيق فالتعرض للقانون ليس بذي جدوى وعلى هذا الضوء يجب ألا نحسب على الاسلام ما نراه من فشل في الزيجات ، وطلاق يهدد الأسر ، وتعدد غير سليم ، لأن الذين حدثت لهم هذه المشاكل دخلوا على الزواج بغير مقاييس الاسلام ، فمن العدل والانصاف للاسلام أن يحدث لهم ما حدث لأنه نتيجة طبيعية لما سبق . فلا يصح أن يعالج موضوعا الأساس في وجوده خروج عن الاسلام .

ولو نظرنا بانصاف الى الأسباب الداعية للطلاق أو فشل التعدد . . لوجدنا أن ذلك راجع لمخالفة المتزوجين لمقاييس الاسلام في كلا الأمرين ، ولو أن طالب الزواج دخل على الزواج بمطلوبات الله فيه لما حدث ما يدعو الى الطلاق . وكذلك لو أن المعدد دخل على التعدد بمقاييس الله فيه لما وجدت آثاره الضارة . وليس ذلك خاصا بهما فقط ، لكنه يتعلق أيضا بولي أمر الزوجة ، حين يقبل زوجا للتي هو وليها ، على غير مقاييس الله ومطلوبات الدين ، فمن العدل أن يحدث له كل ذلك ، ولو لم تحدث هذه المتاعب ، لكان ذلك مخالفا لمنهج الله ولشككنا في هذه التعاليم .

فالمنصف يرى أن متاعب الطلاق وتعدد الزوجات اليوم شهادة للدين لا عليه .

المعجزات النبوية

للسنة النبوية معجزات أفردت بالتأليف تحت عنوان : (أعلام النبوة) وهي تخبر بأشياء مستقبلة ، ليس للمخبر دخل في وقوعها ، حتى لا يعتبر الوقوع منه افتعالا لتصديقه فيما يقال .

والمعجزة ليست مهمة لمن نقلت اليه ، ولكن لمن شاهدها ، لأن الله أجراها على يدي رسول الله ﷺ ، ليثبت بها ايمان من عاصره ، حتى يقوى على تحمل تبعات أولية الايمان في عالم الكفر .

فتفجر الماء من بين أصابعه ﷺ مثلا ، واشباع العدد الكثير بالقليل من الطعام ، كل ذلك مقصود به من شاهد هذه الوقائع . أما من لم يشهدها ، فان اتسع ظنه لحصول ذلك على يديه ﷺ ، فبها ونعمت ، ومن لم يتسع ظنه لذلك ـ بسبب ما قد يراه خللا في الأسانيد ـ فحسبه معجزة القرآن الباقية الخالدة . .

والذي يعطينا اليقين في اعجازات النبوة ، هو ما صدر عن رسول الله ﷺ من قول أكده مستقبل الزمن الآتي بعد القول .

فمثلا حين يخط الرسول ﷺ يوم بدر على الأرض مكان مصرع كل واحد من صناديد الكفار ، ثم تدور المعركة ، فليس لمحمد ﷺ ولا لأتباعه قوة تستطيع أن توجد المقتول في المكان الذي رسمه ﷺ ، لأن المعركة كر وفر بدون اعداد سابق ثم يحدث أن تأتي مصارع القوم في أماكنها التي حددها الرسول ﷺ !

ولنتناول بتفصيل أكثر قصة سرية مؤتة ، حينما أخبر ﷺ بتتابع الثلاثة : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وقال : ان قتل زيد فالأمير جعفر فان قتل ، فعبد الله بن رواحة ، فان قتل ، فليرتض المسلمون رجلا من بينهم .

والذي يعنينا في هذه الغزوة ، ما أخبر به ﷺ ـ وهو بالمدينة ـ حين نادى في الناس : الصلاة جامعة ، ثم صعد المنبر وعيناه تذرفان ، وقال : أيها الناس ، أخبركم عن جيشكم هذا الغازي ، انهم انطلقوا فلقوا العدو فقتل زيد شهيدا ، فاستغفروا له . . ثم أخذ الراية جعفر فشد على القوم حتى قتل شهيدا ، فاستغفروا له . . ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة وأثبت قدميه حتى قتل شهيدا ، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد . .

كل ذلك ولم يكن أحد قد عاد من الغزوة ، والا لوجد المشركون ـ في رد هذه المعجزة ـ دليلا على أنه أخبر بعد أن أبلغ من بشر ، ولما قدم بعلي بن أمية رضي الله عنه على النبي ﷺ وهو أول وافد بخبر الجيش ، قال له النبي ﷺ : ان شئت فأخبرني . وان شئت أخبرتك . قال : فأخبرني يا رسول الله لأزداد يقينا ، فأخبره رسول الله ﷺ الخبر كله ، ووصف له ما كان . فقال : والذي بعثك بالحق ، ما تركت من حديثهم حرفا واحدا . وان أمرهم لكما ذكرت .

من اعلامات النبوة أيضا : قوله ﷺ لجابر بن عبد الله (جذ . . واقض) وذلك أن جابراً قد اقترض مالا من يهودي ـ وكان ميعاده حين جني ثمر البلح ولكن نخل جابر لم يثمر في هذا العام ـ فقال صحابة رسول الله ﷺ : يا رسول الله سل اليهودي أن ينظر جابرا لأن نخله خاس هذا العام ـ يعني لم يثمر ـ فطلب رسول الله ﷺ من اليهودي أن ينظر جابرا . فقال : لا يا أبا القاسم . . سأله النبي ﷺ مرارا وكان رده لا ، يا أبا القاسم . .

فذهب الرسول ﷺ الى نخل جابر وسار خلاله وذلك في قصة طويلة ـ ثم قال : يا جابر (جذ . . واقض) ـ أي اجن الثمار وسدد ما عليك .

فذهب جابر فجذ وقضى . . ورجع الى رسول الله ﷺ فرحا مستبشرا ، وأخبره بما كان . فقال الرسول ﷺ : إشهد أني رسول الله .

فقوله جذ واقض ثقة منه في أن الله لن يخذله فيما انطقه به ، والا لما جازف رسول الله ﷺ بين أصحابه بكلمة قد لا يصدقها الواقع . .

ومن اعلامه ﷺ ، ما حدث في غزوة الحديبية ، حين انتهى أمر المفاوضات الى أن يتفاوض عمرو بن سهيل عن قريش مع الرسول ﷺ . . وحين كتابة العهد ، قال ﷺ لمن

يكتب : اكتب هذا ما تعاهدنا عليه : محمد رسول الله قال عمرو : لو كنا نشهد أنك رسول الله ما وقفنا منك هذا الموقف . فاصر عمرو ألا توجد هذه الصفة وأصر علي بن أبي طالب ـ وهو الكاتب ـ أن يكتبها حينئذ . قال رسول الله ﷺ لعلي : اكتب ما يحب . اكتب عبد الله . فلم يقبل علي ، فقال له الرسول ﷺ ستسام مثلها ـ أي ستتعرض لمثل هذا الموقف ـ فتقبل . ثم توفي الرسول ﷺ . وانتهى أمر الخلافة لعلي . وكان ما كان بينه وبين معاوية بن أبي سفيان في يوم صفين . فلما أرادوا أن يكتبوا عهدا . قال علي لمن يكتب : اكتب هذا ما تعاهد عليه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين . فقيل له : لو صدقنا أنك أمير المؤمنين ، ما حدث بيننا وبينك هذا ولكن انزعها من العهد . فنزعها . .

وذلك مصداق لكلام الرسول ﷺ لأنه لا ينطق عن الهوى .

تلازم بين القرآن والسنة

ان استمرار السنة النبوية حتى يومنا هذا معجزة من باطن معجزة القرآن وهما يلتقيان في كونهما أخبارا من الله ولكن القرآن أخبار بنص ملتزم ، والسنة أخبار بنص غير ملتزم . . وعلى الذين يتشككون في هذه السنة أن يفطنوا الى أن تشككهم في بقاء سنة عن الرسول ﷺ يؤدي بهم الى الشك في معجزة القرآن نفسها وذلك لأن الله يقول في كتابه :

﴿بالبينات والزبر وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون﴾[1] .

فمهمته ﷺ بيان ما نزل اليه . ويقول الحق في آية أخرى : ﴿ان علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه﴾[2] فنسب البيان الذي وكل به ﷺ الى أنه على الله فلو لم يوجد بيان من السنة لما جاء في القرآن لتخلف ذلك الوعد ، فالايمان ببقاء سنة عن الرسول عليه الصلاة والسلام معجزة من باطن معجزة القرآن . .

وقول الله ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب﴾[3] يدل على أن للرسول ﷺ عملا مع القرآن وما دام له عمل مع القرآن فلا بد أن يقوله أو يفعله أو يقره وهذا لمن عاصره ، ومن لم يعاصره مطلوب منه أيضا أن يأخذ ما أتى به الرسول ﷺ ولذلك لا بد أن يبقى قوله أو فعله أو اقراره ، واذا كان الرسول ﷺ قد بلغ عن الله ثلاثا وعشرين سنة وكلامه وفعله وفعل الغير أمامه واقراره حديث ، فبالله ليقل المتشككون في الحديث كم يجب أن يكون الرسول ﷺ قد ترك من حديث ؟! وفعله وقوله

---

(١) الآية ٤٤ في سورة النحل

(٢) الآيات ١٧ : ١٩ في سورة القيامة .

(٣) من الآية ٧ في سورة الحشر .

وفعل غيره وقوله أمامه حديث طويل ثلاث وعشرين سنة !! .

إذاً فلو استعرضنا ما بقي لنا من صحيح الحديث بما كان يجب أن يخبره من حديث رسول الله ﷺ لوجدنا أن ما بقي دون ما كان يجب أن يكون . . فقد تركنا الكثير حتى نصحح المقاييس والمصافي التي نأخذ عنها ما قاله رسول الله ﷺ . . ولئن يترك شيء مما قاله خير من أن يدخل على حديثه شيء مما لم يقله والذين أرادوا (بكلمة حق أريد بها باطل) أن يكون مرجعنا في كل أمر الى القرآن فقط فعليهم أن يوجدوا لنا في القرآن تفاصيل أركان الاسلام فقط . . لا أقول كل تعاليم الدين .

ان هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم واجترأوا على هذه الفرية هم بأنفسهم وبقولهم هذا شهود على أن حديث رسول الله ﷺ المصطفى صادق النسبة اليه لأنه قال عن هؤلاء أيضا أحاديث فلو لم يقولوا ذلك لما وجدنا من الواقع مصداقا ذلك لما قاله رسول الله ﷺ من حديث فقد قال : يوشك رجل يتكىء على أريكته يقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال حللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه الا وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله . . فلو لم يكن هؤلاء قد افتروا هذه الافتراءات لشككنا في حديث رسول الله ﷺ إذاً فقولهم هذا دليل على صدق ما يدعون كذبه .

قيمة الحياة والموت

دائما رأي الاسلام هو فصل الخطاب في أي أمر يتناقض فيه النقاش وتتعارض فيه الآراء . . فالحياة في نظر الاسلام كما أقول دائما أهم من أن تنسى ولكنها أتفه من أن تكون غاية وقول الله . . ﴿ولا تنسى نصيبك من الدنيا . .﴾[1] يدل على الشق الأول وقوله ﴿اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة . . .﴾[2] تدل على الشق الثاني ، واذا كنا نقصد بالحياة هذا الوجود المحس وما عليه من حركة قهرية تسخيرية أو حركة ارادية تخييرية فان الحياة دائما هي محور الحركتين الحركة التي تحدث بدون ارادة منهم أو اختيار ، والحركة التي تحدث منهم بالارادة ومرجحات الاختيار . . واذا كانت كل الأجناس ما دون الانسان تعمل في خدمته فليس من المعقول أن تكون الأجناس الخادمة أطول عمرا من السيد المخدوم وعلى ذلك يجب في عرف العقل والمنطق والتدرج في الحلقات أن يكون الانسان أسمى موضوع في هذه الحياة وأن كل ما عداه في خدمة ذلك الانسان .

والذين يتكاسلون في الحياة الدنيا ولا يعبأون بها وبضعون كل اهتماماتهم في الحياة الأخرى الموعودة نقول لهم : ان الحياة الأخرى الموعودة السعادة فيها على قدر توفيقك واخلاصك في حركة حياتك الأولى ، والأخرة ليست موضوع الدين ولكنها جزاء على موضوع الدين والجزاء على الشيء غير موضوعه فيجب أن نقول لهم إن الدنيا والحركة فيها هي موضوع ذلك الدين لذلك يجب أن تكون الدنيا مهمة بحيث لا تنسى ولا تهمل .

والذين يقولون بأن الدنيا هي الغاية ولا شيء بعدها نقول لهم : ما ذنب الذين يشقون حياتهم الدنيا ليسعدوا سواهم أين يكون جزاؤهم ان لم تكن الا هذه الحياة

---

(١) من الآية ٧٧ في سورة القصص.

(٢) من الآية ٢٠ في سورة الحديد .

الدنيا ؟ . . لو نظرنا هذه النظرة لكان هؤلاء الذين يشقون لاسعاد غيرهم هم أحمق الحمقى لأنهم فوتوا على أنفسهم موضوعا واحدا هو الدنيا ولا عوض له في شيء اسمه الآخرة . .

وقضية الموت في نظر الاسلام قضية تمد الواقع بأصل عقدي ، فالموت في نظر الاسلام واقع يجب أن يكون حتى يحقق الخطوة الجزائية فيها بعد الموت . . وواقع الموت يشهد بأنه لا مقياس له ولا ارتباط بزمان ولا بمكان ولا بحال مما يدل على أن سبب الموت هو خالق الوجود . . خالق الموت . . والموت من دون أسباب هو السبب ولذلك لا يتوقف على عمر ولا على صحة ولا على سبب مرئي أو غير مرئي فقانون الموت هو اللاقانون من حيث المكان والزمان وهذا أوقع في نفس الذين يتربص بهم الموت وان غفلوا هم عن الموت لأن عدم ارتباطه بواحد مما تقدم يحتم على الانسان الحي أن يتوقعه في أية لحظة وتوقعه في أي لحظة يتطلب حتما الاعداد له دائما بحيث يكون الانسان مستعدا لاستقباله واذا كانت الحياة أول صفاتها الغرور فيجب أن يندفع هذا الغرور بأنه استبقاء أمر غير مطمئن اليه ولا موثوق به ولهذا يجب أن يستقبل الحي الحياة باليقين فيما ينقص هذه الحياة وهو الموت ولهذا نجد الحق سبحانه وتعالى يقول ﴿الذي خلق الموت والحياة . . ﴾[1] حتى يستقبل الانسان الحياة وقبلها ما ينقص هذه الحياة وهو الموت الذي هو حصانة للانسان من الغفلة ومن الغرور .

ونظرة المؤمن للحياة والموت يجب أن تكون نظرة التساند لا نظرة التعاند ، ونظرة التعاضد لا نظرة التعارض ، لأن الحياة الدنيا في نظر الايمان حياة موقوتة وحياة هي موضوع المحاسبة وما دامت موضوع المحاسبة فيجب أن يفسح الموضوع لحال المحاسبة . (والحساب يأتي بعد الموت الذي يأتي في نظر الاسلام استكمالا لقضية الحياة وتعلية أيضا لهذه الحياة ، وأعني بذلك أنها الطريق الوحيد الى الحياة الخالدة السعيدة . . فبعد أن كانت حياتنا الدنيا مبنية على حركتنا نحن في الأسباب ستكون الحياة الأخرى نتيجة لا لاستخدامنا الأسباب ولكن طواعية لأمر الله ولكل ما نشتهي دون تعب أو نصب الا أن تنعم) . . .

---

(١) من الآية ٢ في سورة الملك .

إذاً، فالموت ينقلني من الحياة التي تتطلب مني نصبا وجهدا الى حياة لا تتطلب مني في تحقيق مطلوبات النفس الا أن يمر الخاطر بالنفس ، فلو لم يكن هناك موت لفاتت الحياة الأخرى بما فيها من راحة للمؤمن وظل على حياته الشاقة المتعبة الناصبة .

المساواة بين الرجل والمرأة . .
خرافة أم حقيقة ؟

لا يختلف الناس حول قضية جنس يتنوع الى نوعين لأن هذا شيء واقع في كل ما يقع عليه الحس من نبات وحيوان وانسان وأيضا في الجماد ، فكل شيئين ينشأ عنهما شيء ثالث لا بد أن يتزاوجا لينشأ عنهما التكاثر وذلك في النبات والحيوان والانسان أمر واضح ، وفي الجماد في دائرة ما عرفنا منه لا بد من موجب وسالب ففي الكهرباء مثلا موجبان لا ينتجان وسالبان لا ينتجان بل لا بد لايجاد الشرارة من موجب ومن سالب وذلك أمر سيصل البحث فيه الى كل ألوان الجماد التي لا نحس فيها حركة الآن وان كان له حركة في الواقع فالجنس اذا انقسم الى نوعين لا بد أن تكون هناك أشياء مشتركة يجتمع فيها النوعان كجنس ولا بد فيها من أشياء مختلفة يفتلق منها النوعان والا لكانا نوعا واحدا فلو لم يوجد لكل نوع خصائص تميز عن النوع الآخر لما انقسم الجنس الى نوعين .

فالزمن وهو ظرف للأحداث ينقسم الى نوعين الى ليل والى نهار فلو لم يكن لكل من الليل والنهار خواص لما انقسم الجنس (الزمن) فالليل يعني الظلمة والسكون والنهار يعني النور والحركة وهما متكاملان في نظام الكون وعملية الحياة لذلك يلفتنا الله في قضية انقسام الجنس الى نوعين والى أهمية ذلك الانقسام وضرورته بقوله سبحانه **﴿قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة . . من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون﴾**[1] فمعنى ذلك أن لنوع الزمن وهو الليل مهمة ونوع الزمن وهو النهار مهمة ولو حاولنا التسوية بينهما لزالت الحكمة من وجودهما وعلى هذا الأساس فالانسان جنس ينقسم الى نوعين : ذكر وانثى لا بد أن يكون لكل نوع خواصه وخصائصه بحيث لو سوينا أحدهما بالآخر زالت الحكمة في التنوع ، فالانسان كجنس له أمور يشترك فيها النوعان ، لذلك فان طلب

---

(١) الآية ٧١ في سورة القصص .

المساواة بين النوعين احالة لأن لكل منهما خواصه ومميزاته . . ومن العجيب أن نطلب المساواة بين نوعين قالبهما مختلف وتكوينهما متباين لا أقول معنويا فحسب ولكنه تباين عضوي موضوعي حتى في تكوين ذرات جسميهما وفي الظواهر التكوينية لمرأى كل منهما . . والذين ينادون بمساواة المرأة بالرجل . . لم لا يقولون بمساواة الرجل بالمرأة ؟ يطلبون من المرأة أن تقوم بعمل الرجل فكان من الواجب أيضا أن يطلبوا للرجل القيام بعمل المرأة والا جاروا على مبدأ المساواة التي يطلبونها ، فاذا قامت المرأة بالعمل المطلوب من الرجل وظلت هي بعملها الخاص الذي لا يؤدى الا من جهتها . . لكان معنى ذلك القاء حمل جديد على المرأة . .

وهكذا فهم لا يطلبون مساواتها ولكن يطلبون غبنها وظلمها فلو أنصفت المرأة نفسها لرأت في الذين يطلبون مساواتها بالرجل فيها تجنح اليه فكرة المساواة خصوما لها ، ولو أنصف الذين يطلبون مساواتها لطلبوا لها أن تزاول كل أعمال الرجل والا يقتصر طلب المساواة على الأمور الهينة اللينة غير الشاقة ولا المجهدة ولا المتعبة .

تسع زوجات وأربع .. لماذا ؟

لم يجيء الاسلام بمبدأ التعدد لأنه جاء والتعدد أمر قائم في الصلة بين الرجل والمرأة ، فلقد كان التعدد قائما قبل الاسلام بلا حد فكأن الاسلام جاء بحد التعدد وقصره على أربع بالنسبة لغير الرسول حتى أن الرسول خاطب من كان عنده أكثر من أربعة بقوله (أمسك أربعا وفارق سائرهن) مما يدل على أن الواقع كان أكثر من أربع فالذين لا يفهمون هم الذين يرمون الاسلام بأنه جاء بالتعدد والحق أنه جاء بوضع حد للتعدد ، ولكن خصوم الاسلام ينتقلون الى شيء آخر ، وهو أن الرسول لم يلتزم بقوله (أمسك أربعا وفارق سائرهن) .

ان امساك الأربع استبقاء لحقوقهن الزوجية كلها ولكن مفارقة البقية هي التي تحرم عددا من النساء من زوجية كانت قائمة ، ولكن هذا الحرمان يقطعه الا تمنع أي امرأة من هذا النوع من أن تجد لها زوجا آخر في حد الوحدة أو الأربع .

ولكن بالنسبة للرسول ﷺ لو أنه أمسك أربعا وفارق خمسا لأن زوجاته وقت هذا التشريع كن تسعا وزوجات الرسول أمهات المؤمنين ويحرم على أي مؤمن أن يتزوجهن فمعنى ذلك أنه سيفارق خمسا لا الى عوض ، لهذا استبقى الله كل نساء الرسول ساعة التشريع له ويلاحظ أن الرسول ﷺ لم يستثنه الله عددا ولكن استثناه معدودا ، بمعنى أن الرسول ﷺ عنده تسع بخصوصهن بحيث لو ماتت واحدة أو متن جميعا لا يحل له أن يتزوج فالله يقول ﴿لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن . .﴾[1] .

اذاً ، فللرسول ﷺ هؤلاء المعدودات بذواتهن ، وليس له عدد تسع بحيث إن طلق

---

(١) من الآية ٥٢ في سورة الأحزاب

يستكمل ، أو ان توفيت واحدة يستكمل ، فالرسول ﷺ لم يوسع عليه في ذلك كما يظن حمقى الخصوم وانما ضيق عليه فللواحد من أتباعه أن يدير عدد الأربعة فيما يشاء من معدودات بالموت أو بالطلاق .

ومن الدعاوى الكاذبة التي يروجها الذين يحاولون أن يدخلوا على المرأة بطريق أن الاسلام هضم حقها في الميراث وفاتهم أن يعرفوا ان ذلك خاص بالأخت مع الأخ ويجب أن يتنبهوا الى أن الاسلام كان يجب أن يسأل سؤالا عكسيا :

لماذا حابى الاسلام المرأة في الميراث ؟! لأن المرأة لا تكلف في أمر معاشها شيئا والرجل هو المسؤول عن التزامات هذا المعاش فحين تأخذ الأخت نصف نصيب أخيها فانها ان ظلت بدون زوج فذلك كافيها ، وأخوها سيتزوج امرأة يعولها وان تزوجت هي فستذهب الى رجل يعولها ويظل ما ورثته بدون التزام مصرفي .

فلو نظرنا الى قضية الاسلام في ذلك وجدناها قضية عادلة ، فالابن ذو الحظين مطلوب له امرأة يقوم بكل التزاماتها والبنت ذات الحظ الواحد ستكون في رعاية رجل لا يكلفها من أمر الحياة أي شيء اذاً فكان من الواجب أن نسأل لماذا حابى الاسلام المرأة . . لا لماذا هضم حقها . .

الاسلام

الاسلام . . يقتضي مسلما ، ومسلما له ، ومسلما فيه . .

والمسلم : هو الذي يسلم أمره ، والتسليم لا يكون للمساوي أبدا ، ولكن لمن هو أعلى وأقوى . فحين أبني بيتا أسلم نفسي لمهندس ، وحين أمرض أسلم نفسي لطبيب . . وهكذا ، ولذلك يجب أن نسلم زمامنا لمن اتفقنا على أنه لا إله الا هو ، وما دمنا أسلمنا له يجب أن ننفذ كل ما يأمر به . وهذا هو الاسلام .

والمسلم اليه : هو الله القادر على كل شيء .

والمسلم فيه : هو حركة الحياة .

والاسلام لله . . انما جاء نتيجة الايمان بأنه جل شأنه له الكمال المطلق ، ومستغني عن البشر ، لأن من شروط المسلم اليه ألا يعود عليه نفع من هذا الاسلام ، ولو عادت عليه منفعة ، لشك المسلم في قدرته . فالعطاء من المسلم اليه ، يجب أن يكون عطاء المستغني .

الاسلام اذن هو الانقياد السلوكي لأوامر الله .

التقـوى

قد تورث بعض الآيات القرآنية الخاصة بالتقوى خلطا لدى العقل البادىء .. فكيف تجيء ـ مثلا ـ الآية قائلة ﴿.. واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾[1] ، ويأتي في نفس السورة ﴿.. فاتقوا النار ..﴾[2] ؟! فكيف تجتمع التقوى مع الله .. ومع النار ؟! .

ان التقوى تعني اتخاذ الوقاية من شيء لا يقدر الطرف الآخر على مواجهته ، وعلى هذا النحو يمكن فهم تقوى النار ، ولكن كيف نتقي الله ؟ بمعنى أن نجعل بيننا وبين الله وقاية المفروض أننا نكون في معية الله دائما ، وتوضيح ذلك .. ان الله سبحانه له صفات جماله وصفات جلاله .. صفات الجمال : مثل الغفار والرحيم ، والجلال : مثل القهار ، وذو البطش الشديد .

مع صفات الجلال يجعل الانسان بينه وبينها وقاية لهوانه أمامها ، ولأن من متعلقاتها النار بأهوالها . وبذلك تتفق التقوى في الحالين .. تقوى النار : التي هي من متعلقات صفات الجلال ، وتقوى الله : اذ يجعل الانسان بينه وبين صفات جلال الله وقاية ... اذن فالمعنى واحد .

وحين يلتزم الانسان بالتقوى لا بد أن يمتثل للأوامر ، ويمتنع عن النواهي ، لأنها ـ أي التقوى ـ تدفع الانسان الى مخافة الله القهار .

---

(١) من الآية ١٩٤ في سورة البقرة
(٢) من الآية ٢٤ في سورة البقرة

الاحسان

الاحسان : يقال أحسن (فلان) . . هذا من الناحية اللغوية ، أما شرعا فلا يقال في الزكاة (أحسن) ، لأن (أحسن) تقال حين يعمل الانسان عملا فاضلا ليس مأمورا به ، ويقول الله تعالى : ﴿ان المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون﴾ . حين يهجعون ويستغفرون انما يفعلون ذلك تطوعا منهم وليس كفرض مفروض عليهم . ثم يستطرد القرآن ﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾[1] ولم يذكر هنا كلمة (معلوم) بعد (حق) لأنه ليس بفرض .

مقام الاحسان ـ هذا هو مجاله ـ ان تفعل أمورا ليست فرضا عليك ، والاتقان في ذاته احسان أيضا . ومثالا على ذلك : الموظف الذي يلتزم بمواعيد العمل ، ولكنه قد يفتقد روح الاتقان ، وعندما يتقن الموظف عمله يعد ذلك امتيازا ثانيا فوق امتياز الالتزام بالمواعيد .

فمرة الاحسان يعطي الشكل ، ومرة أخرى يعطي الموضوع .

وبذلك يكون للاحسان مرتبتان : الأولى : أن يقوم الفرد بفوق ما افترض عليه ، والثانية : مراقبة المكلف بالعمل مراقبة دقيقة ، بحيث يتقن العمل كأنه يرى المكلف ، فان لم يكن يراه فهو مرئي منه .

---

(١) الآيات ١٥ ، ١٩ في سورة الذاريات .

العلاقة بين المفاهيم الثلاثة

من غير المفهوم وضع خطوط فاصلة تعزل بين كل من المفاهيم الثلاثة : الاسلام والتقوى والاحسان . لأن التداخل بينهم لا يمكن التغاضي عنه . فمثلا لسان حال المحسن يقول : يا من آمنت بك وكلفتني . . أنت رحيم بي ، كلفتني دون ما تستحق ، ولذلك سأفعل فوق ما أمرتني به ، ولعل الترابط هنا واضح بين الايمان والاحسان .

والارتباط وثيق بين الثلاث مراتب على هذا النحو : يوجد اسلام لمن أسلمت له قيادك ، فتنقاد لأوامره ، وتمتنع عن نواهيه ، لتؤدي ما افترض عليه خشية منه ، ثم تزيد في ذلك مرحلة . . أن تتطوع بشيء لا تعاقب على تركه .

الشرك

الشرك يعني وجود الله مع اثبات الشركاء معه وهو على نوعين . . أولهما : افتراض اتفاق الالهين ، والثاني : اختلافهما .

الأول : هو اشتراك الإثنين في شيء واحد ، أو اجتماع المؤثرين على أثر واحد فمثلا : توجد قطعة حديد والاثنان كل منهما يستطيع حملها بمفرده ان اجتمعا على الحمل في حدث واحد ، صار ذلك تحصيل حاصل من كليهما تجاه الآخر وان اتفقا على أن يساعد كل منهما الآخر في حمل قطعة واحدة . . بحيث يحدثان حدثين منفصلين تصبح النتيجة عجز الأول فيما يحدث الثاني ، وكذلك عجز الثاني فيما يحدث الأول .

الثاني : ان كانا مختلفين تتحول المشكلة الى افتراض هل ينفذ الحدث أم لا ينفذ ، والحدث ذلك اما موجود أو غير موجود يريد أحدهما وجوده ، والثاني لا يريد ، وان وجد صار ذلك هزيمة لمن لا يريد وجوده وان لم يوجد صار ذلك هزيمة لمن يريد .

وبذلك يمتنع الشرك بكل صوره ﴿. . وما كان معه من إله اذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾[1] لأنه لو حدث ذلك الاصطراع ، لأصبح هناك إله عال ومعلو عليه . ثم قد يتبادل الاثنان الموقعين في اصطراع آخر مما ينتفي مع الكمال المطلق الذي يتصف به الخالق . فهؤلاء المشركون المساكين حين يرون شيئا له فاعلية في الكون مثل الشمس عليهم أن يدركوا أنها مسخرة لله . لأن العبادة معناها ائتمار العابد بأمر المعبود . ومحورها هو اتباع منهج المعبود . . فالذي يعبد الشمس نسأله : ماذا قالت لك الشمس لتفعله ؟ ستأتي الاجابة بالنفي قطعا ، فمن أين للشمس بمنهج يسير عليه عابدها ؟! لقد عبدها المشرك كمظهر القوة . وفي ذات الوقت ، هي عابدة لله لأنها تسير وفق منهجه الذي ارتضاه سبحانه لها والمتمثل في النواميس الكونية التي تخضع لها .

---

(١) من الآية ٩١ في سورة المؤمنون .

الفسق

الفسق معناه في الأصل خروج الرطبة عن قشرتها . . أي ان البلحة حينها تنضج ، تسمح لأشعة الشمس بتبخير السوائل بداخلها فتقل حجم الرطبة عن القشرة ، ثم تخترقها بعد ذلك . فسمي الخارج عن المنهج الذي أرسله الله . . فاسق . أي خارج عن السياج المضروب له ، وركيزته : افعل ولا تفعل ، والذي يضاد ذلك فيفعل حيث ينهى عن الفعل ، ولا يفعل حيث يؤمر بالفعل . . يعد فاسقا خارجا عن أمر الله . .

وهنا تحفظ يجب مراعاته ان الفسق ينقسم بقسمين أولهما : فسق في الأصول وثانيهما في الفروع . . فيكفر الأول ، ولا يكفر الثاني .

الرياء

الرياء : فساد الرياء أنه توجيه العمل لغير مجز عليه فالمرائى يبحث عن جزاء أدنى من الأصل ، ويمكن أن تشبعه مجرد كلمة من انسان اخر . . تأثيرها وقتي محدود . وذلك نتيجة عدم استصحابه ضخامة الجزاء الذي وعده به الله ، فيبحث عن دفع شر عاجل أو جزاء عاجل : مثل ابعاد نفسه عن شبهة عدم التدين ، أو لجلب الاحترام والوضع المميز بين الناس .

وهذا جزاء واه ضعيف أمام الجزاء الأبقى الذي أعده الله لعباده المخلصين ، فالرياء جوهره : الحمق في تقدير الجزاء . والمرائي في نظر الشرع ـ بالرغم من ذلك ـ مسلم ، اذ يقول الله : ﴿ . . يراؤون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا ﴾[1] وبذلك لم يجردهم الله ـ سبحانه ـ من ذكره .

---

(١) من الآية ١٤٢ في سورة النساء .

العلاقة بين المفاهيم الثلاثة

مدلول الثلاثة مفاهيم يدور حول كلمة الاله ، فمن يؤمن بالله مع غيره . . مشرك ، ومن يخرج عن حدود المنهج . . فاسق ، ومن يعمل لمن لا يجزي . . مرائي .

بمعنى آخر . . الشرك : إله مع غيره ، والفسق : تعد لحدود الله ، والرياء : العمل لغير الله .

هي اذن مفاهيم ثلاثة علاقتها بلفظ الإله علاقة متنافرة .

ليل ونهار

القرآن كله حينما يتكلم عن الليل والنهار . . يتكلم على أن الليل والنهار خلفة ، وأنهما آيتان من آيات الله ، ولكل واحد منهما مهمة ، فالليل لتسكنوا فيه ، والنهار لتبتغوا من فضله ، وحيث يوجد نهار تنبعث الحركة ، وحيث يوجد ليل ينتشر السكون .

ماذا يحدث الآن في هذا الصدد ؟! ما يحدث هو أن الناس قلبت المعايير . فحينما تدخل الكهرباء قرية من قرى مصر - مثلا - وما يصحبها من مظاهر . . يقولون : إن الحضارة دخلت هذه القرية ، وخاصة حينما توغل القرية في السهر ، وفي الاعتداء على فترة السكون . كيف يسمون هذه حضارة ؟! ان مثل هذا الاعتداء يضر بكل ألوان النشاط في القرية . . لماذا ؟ لأن كل ما يعمل لا بد له من فترة راحة .

بالنسبة للانسان هذا أمر واضح . فالراحة ليست للقضاء على الحركة وانما لتصعيدها وتنميتها واستبقائها . كل ما يخالف ذلك يعني مخالفة النظام الذي وضع للمخلوقات .

لنا اذن أن نقرر أن ابتغاء الفضل يكون في فترة الحركة : وهي النهار ، والراحة في فترة السكون : وهي الليل ، وهي فترة ضرورية لأن الانسان - على سبيل المثال - له ادراكات كالأنف للمشمومات ، والأذن للمسموعات . فكل حاسة لا بد لها من فترة راحة . فالأنف إن ظلت تشم عطرا على الدوام ، ستفقد القدرة على الشم عند مرحلة تتعطل فيها آلاتها ، فلا بد لها من فترة راحة لتأخذ هواء نقيا .

والآن ماذا يخيف علماء العالم . . ؟ ما يخيفهم هو أن العالم مهدد بالصمم . . لماذا ؟ لأن الأذن في حالة استقبال مستمر .

فكل الذي يعمل لا بد له من استجمام . . أي طلب الراحة للعمل ، والخالق ارتضى لنا الليل للسكون والخلود للراحة ، والنهار لنضرب في الأرض .

يوم أن تضطرني الظروف الى عكس هذه القضية ، لا بد أن يكون هذا ظرفا استثنائيا وليس قاعدة ، وقد يتعرض الفرد لذلك بحيث يستيقظ في الليل لمداواة مريض ، فيضطر الى النوم نهارا . وقد يتعرض النوع لذلك : أي أناس مهمتهم تقتضي الاستيقاظ ليلا كالحراسة الليلية . هاتان الحالتان ليستا بقاعدة ، ويجب أن يعلم أننا نعكس الحياة لهؤلاء . . فلا بد من تعويضهم حتى لا يستمروا هكذا على الدوام ، لأننا بذلك نعكس لهم قضية وجودهم وانسجامهم مع الكون ، ولذلك نلحظ وجود نظام (التناوب) في القيام بهذه المهام الاستثنائية ليتمكن أهلها من العيش بين الحين والآخر متحركين في نهارهم ، وساكنين في ليلهم . . متسقين بذلك مع نظام الكون من حولهم . .

ومن الأخطاء التي ترتكب اليوم خروجا على طبيعة كل من الليل والنهار ووظيفتها . . الأسلوب المتبع في العمارة القائم على حجب ضوء النهار الطبيعي ، والاستعاضة عنه بالضوء الصناعي . . بصرف النظر عن الأضرار التي يمكن أن تحدث فيها بعد . وفي هذا تشابهت الحضارة الحديثة بـ (المنبت) : الذي لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ، فيجهد دابته جهدا مميتا للوصول الى غايته . . بغض النظر عن استخدامها في أغراض أخرى . لذلك لا بد للدابةُ من فترات راحة تتخلل هذا الجهد لتكملة المسير ، ثم لقضاء سائر حاجات صاحبها . هكذا الحضارة الحديثة ـ في كثير من جوانبها ـ لا تكترث للعديد من الأخطاءْ والأضرار التي تنجم عن المكتشفات والمخترعات المستحدثة .

الانسان والمخلوقات

ان الانسان وسط الوجود المحيط به بمثابة (السيد) فالكل في خدمته ، وهو لا يخدم أحدا . الكل مسخر له ، وهو غير مسخر لأحد . . وان كان ـ في ظاهر الأمر ـ يخدم بعض المخلوقات ، فهي خدمة ظاهرة تعود له في النهاية . . مثل رعايته للأرض والحيوان . وكل شيء يصب في خدمته اما بالمباشرة واما بالواسطة . . الجماد يعطي للنبات والحيوان والانسان ، والنبات لا يعطي للجماد و يعطي فقط للحيوان والانسان ، والحيوان يعطي للانسان .

الانسان يأخذ من الجماد والنبات والحيوان مباشرة ، ويأخذ أيضا من كل هذه بالواسطة . . فان أخذ النبات من الجماد شيئا يعود النتاج في النهاية للانسان وهكذا الحال مع الحيوان حين يأخذ من النبات .

الوجود ـ على هذه الصورة ـ يمكن تقسيمه الى سيد ومسود . . خادم ومخدوم ، والانسان لا يستطيع الادعاء انه صنع هذه الأشياء المسودة لتخدمه ، لأن فيها أموراً كثيرة لا تدخل تحت طاقته ولا قبل له بها ، وهي تؤدي له خدمات قبل أن يوجد له عقل يفكر ، وطاقة تفعل . .

لا بد اذن أن يبحث الانسان عن قوة أكبر منه ومن المسودات جعلتها جميعا مسخرة له . . فيبحث عن سيد له هو الآخر . ان لم يفعل ذلك ، أصبح تافها ، لأن المخلوقات جميعا لها مهمة فيما عداه . . لا مهمة له ، كل هذا التسخير . . يجب أن يدفع الانسان للبحث بعقله عن المهيمن على الكون ، وهذا البحث هو بداية الاستدلال ، واذا ما جاء للانسان خلال رحلة البحث . . رجل شق عليه صمته ليخبره عما يبحث عنه ، يجب عليه أن يرهف له السمع ، وأقل قواعد الذوق أن الانسان ـ ذلك الصنعة ـ لا يحدد مهمة نفسه ، لأن الصنعة لا تحدد مهمة نفسها ، ولا

يحدد أحد مهمتها الا صانعها ، هنا يقع أول غلط للانسان بأن حدد مهمة نفسه ، واذا فسدت الصنعة لا يصح القول : ان يا صنعة أصلح نفسك ذاتيا ، بل تعطيها لصانعها لكي يصلحها ، فساد الكون اذن جاء من تحديد الانسان لمهمته . وقيامه باصلاح نفسه حين تعطب ، بينما الصواب أن يقوم صانعه بهاتين المهمتين .

وبالاستقراء . . نجد أن الكون كله كما سبق ، مسخر لخدمة الانسان فهو الغاية ، وأيضا الوسيلة : لأنه يتفاعل مع الموجودات لتعطيه نتاجها في النهاية ، وهل هناك رحمة أكبر من ذلك ؟! **أن يكون الانسان هو الغاية والوسيلة معا** .

ويبرز هنا خطأ ثالث ارتكبه الانسان بمحاولته التفاعل مع هذه الموجودات ، والتعامل معها من خلف أوامر منشىء الوجود وبعيدا عن الهدى النبوي . . في حين أنه سخر للانسان الوجود من حوله .

الانسان اذن من خلق الله سواء آمن به أم لم يؤمن . والدنيا تعطي أكثر لمن يحسن التفاعل والتعامل معها وفق قوانين الطبيعة . فلا نتعجب حين يأخذ الكافر زهرة الحياة ومتعتها المادية . لأنه اتبع القوانين المادية المحددة لاستغلال الكون من حوله ، ولكنه خاسر في الآخرة وحابط عمله .

مجال التزود من الدنيا مفتوح ـ على هذا النحو ـ لكل من يريد . . بشرط اعمال الفكر في اطار قوانين الطبيعة ، وسعي الانسان في هذا المجال يستلزم طاقة حركة نشطة ، وهو ما يتطلب فترات راحة .

العمل والراحة

ومن الحقائق المسلم بها ، ان كل ساعة عمل يقابلها ساعة راحة، وقد اقتضت الحكمة الالهية تقسيم الزمن الى قسمين : الليل والنهار . . الأول للسكن ، والثاني للعمل ، ولكننا لا نحسن وضع الحركة في ظرفها الطبيعي ، ونعتقد بنقلنا مهمة النهار الى الليل . . اننا نحطم حواجز التخلف ، في حين يعد ذلك انتكاسا وارتدادا ، ويظهر هذا في النظم المعمارية الحديثة التي تعمد الى حجب نور الشمس نهارا ، والاستعانة بالنور الصناعي بينما الضوء الصحي : هو الذي ينبعث مع عدم تعرض البصر لمصدره . . مما يتحقق في الشمس دون أي تدخل من الانسان . .

وفي المدن . . نلحظ أن الليل يزدحم بالحركة مع توفير الضوء الصناعي كمناخ ملائم لها ، وذلك عنادا لسنة الله في خلقه .

ان محاولات البشر اصطناع وسائل حديثة لنقل مهمة الليل الى النهار وبالعكس . . تؤدي الى القضاء على الانسجام القائم بين الانسان والكون .

وباستعراضنا لما سبق في اطاره الانساني العام يتأكد لدينا أن استيقاظ الانسان مع قدوم النهار ، ونومه مع قدوم الليل . . قانون ينطبق على جميع البشر : مسلمين وكافرين . .

وحين يصدع الداعي بآذان الفجر ، آخذاً المسلم من نهاية وقت سكونه ، وبداية حركته ، يكون ذلك بمثابة منبه للانسان : ان استقبل يومك بحركة مبرورة مبروكة . . بالاستجابة لنداء من خلقك . فالاسلام يتسق مع طبيعة الانسان وامكانياته ، التي تدفعه الى الخلود للراحة ليلا ، والسعي والحركة نهارا . والمسلم . . ان رأى لديه بعض الوقت في فترة نومه وراحته له أن يتهجد ﴿كانوا قليلا من الليل ما

يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون﴾[1] .

وما يجب أن يلتفت اليه العقلاء . . ان الفترة الواقعة بين آذاني العشاء والفجر . . كافية لتوفير الراحة والحيوية لمن بلغ سن الرشد ـ أي التكليف ـ فها هنا ارتباط وثيق بين الانسان . . ككائن قادر على الكسب والحركة ، وكمكلف فرضت عليه الصلوات الخمس . . ابتداء بالفجر وانتهاء بالعشاء :

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ حين شرع نظام اليوم . . على هذا النحو ، قدر أن يكون ذلك الزمن كاف لراحة الانسان . . المتميز بسعيه للكسب ، وهو ذات الانسان المكلف بالصلاة . فكان النظام الزمني متسقا مع عنصري الحركة والعبادة .

يستتبع ما سبق ذكره . . ضرورة ابتداء اليوم ـ للانسان عامة والمسلم خاصة ـ مع آذان الفجر ، وانتهائه مع آذان العشاء ، وبذلك نصحح نمط الحياة اليومي تمشيا مع الفطرة ، تلك التي جاء الاسلام ليقرها .

---

(١) الأيتان ١٧ ، ١٨ في سورة الذاريات .

مقدمة لسورة الاخلاص

مقاصد القرآن ثلاثة : عقائد ، وأحكام ، وقصص .

وسورة الاخلاص أخذت الثلث الأول كله وهو العقائد التي ترتكز في الاسلام على التوحيد . .

ولتوضيح أمر التوحيد نقول : ان المناهج الموجودة على ظهر الأرض ، هدفها جميعا من وجهة نظر أصحابها ، تصحيح حركة الانسان بحيث لا يشذ عن الصواب ولا يخطىء في حركته .

وما دام الانسان ليس وحيدا في الكون ، فان أهم ما يصوب تحركه هو ألا تتعارض حركات البشر المختلفة مع بعضها ، لأن هذا التعارض يجعلها حركات متعارضة متعاندة لا متساندة .

وهذا التعاند هو سبب فساد الحياة . فلا يمكن بالتالي أن تتفق الحركات الا اذا كان الآمر بالحركات واحدا . .

فالوحدانية ـ بالضرورة ـ أساس استقامة حركة الحياة . . وفي الآية الكريمة : ﴿قل هو الله أحد﴾ نجد مدلولا عميقاً لكلمة ﴿أحد﴾ ونستوعب هذا الفرق أكثر ، بالتفرقة بين كلمتي واحد ، وأحد .

فالواحد : فرد لا يوجد له نظير ، ولكنه قابل للتركيب من عدة أجزاء . وبذلك لا يكون « أحد » لأن الأحد غير مركب .

فالتركيب يعني أن الكل في حاجة الى الجزء الذي هو وحدته الأساسية .

وترتيب سورة الاخلاص بعد سور « الكافرون » و « النصر » و « المسد »

ترتيب ضروري . . لماذا ؟ . . لأن الأولى تقطع العلاقات تماما مع الكافرين . . كأن المنهج الذي نزل من عند الله على رسوله ﷺ ، عورض من الكافرين ؛ فكانوا يصرون على النقيض الذي هو الكفر والشرك ، واذن ، فلا تفاهم . .

ويلاحظ أن القطع ، جاء من قبل الرسول ﷺ ، مرتين بشكلين مختلفين : أولهما ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ والثاني ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ وفي ذلك ترسيخ لمعنى التوحيد في الأذهان ، لأن الظروف قد تضطر الانسان الى قطع العلاقات في الوقت الحاضر ، ثم يعود مستقبلا تحت ضغط ظروف مغايرة ، الى اعادة العلاقات مرة أخرى . .

فأكدت السورة على قطع العلاقات مع الكافرين تحت أي ظروف . .

ويستفاد من معنى قطع العلاقات ، الاعتراف بوجود خصم ، وبدين هو عليه يعيش . . لكن أيظل الوضع هكذا فجاءت سورة النصر ﴿اذا جاء نصر الله والفتح﴾ مشيرة الى القضاء على الكفر ، وقد يعني ذلك أن كل الكافرين سيؤمنون بدين الله ، لذا جاء الاستثناء القرآني مؤكدا وجود كفار معاندين مثل أبي لهب يحاربون الدعوة . ولذلك كانت سورة « المسد » ﴿تبت يدا أبي لهب وتب. . .﴾ الثالثة بعد السورتين السابقتين ، لتستثني صنديدا من صناديد الكفر من الايمان . بعد ذلك تأتي سورة الاخلاص لتقرر حقيقة أن مصدر كل ما سبق من الآيات ، هو اله أحد ، فكل ما قيل هو كلام ثابت لا معقب عليه ، ولا تغيير فيه .

وبذلك ، انسجمت كل السور مع بعضها .

ونشير هنا ، الى تلك الدعوى الخاطئة التي تطالب بتغيير القرآن وجعله حسب نزوله لا حسب الترتيب الالهي الذي نزل به جبريل وبلغه لرسولنا الكريم ﷺ . . .

فالسور نزلت بترتيب تاريخي تبعا للحوادث . ولكن ترتيبها في القرآن جاء على نحو آخر وفقا لنهج معين لمخاطبة الانسان . .

ومثالا على ذلك، انني قد أذهب الى السوق لشراء أثاث المنزل فتقع عيني أول

ما تقع على المطبخ فأشتريه ثم غرفة النوم فأشتريها ثم غرفة المعيشة فأشتريها . . وذلك لا يعني مثلاً أن المطبخ أهم في الترتيب من غرفة المعيشة أو النوم ولكن الظروف ألجأتني الى الشراء بهذه الصورة عكس الترتيب الذي أتبعه عند ترتيب وضع الأثاث في الحجرات . . اذن هناك فرق بين ظروف تحتم الحدث قبل ظروف النزول تاريخيا ، وبين هيكل عام يتجمع فيه الحدث بقصد معين . .

تفسير السورة

ان الله سبحانه وتعالى ، ليس كليا له أفراد ، لأنه واحد . وليس كلا له أجزاء لأنه أحد . !

فمعنى الكل : انه مركب من أجزاء تعطي كلا واحدا ، وكل جزء لا يقال له واحد ، وانما الأجزاء في مجموعها واحد مثل الشجرة مكونة من جذور وساق وأوراق . . الخ . . فلا يسمى الساق مثلا شجرة وانما مجموع هذه الأجزاء تشكل الشجرة في النهاية .

أما الكلي فيطلق على كثيرين متفقين في الحقيقة مثل : انسان وانسان وانسان . . فالكلي لا بد له من أفراد مستقلين أو وحدات مستقلة بذواتها كل منها يحقق معنى النوع مثل الانسان .

فالله جل شأنه ليس كلا لأنه أحد لا أجزاء له . . وليس كليا لأنه ليس هناك آلهة مثله . .

و ﴿قل هو الله أحد﴾ تنفي الأجزاء في ذات الله . لذلك ان قيل إن الأب والابن ممكن أن يكونا إلها ؛ فانهما لن يكونا إلها أحدا لأن صفة الأحد تمنع تعدد الأجزاء .

و ﴿الصمد﴾ : أي المقصود ، وأصلها (المصمت) ـ لغة ـ أي الذي يتحمل الأعباء ، والصمد يقصد في تحقيق الأشياء .

ووحدة المقصود أو أحدية المقصود ـ مع تعدد القاصدين ـ تدل على أن للواحد كمالا مطلقا لا ينتهي . .

والله سبحانه وتعالى مقصود حتى ممن لم يطعه . . وهذا يدل على ذاتية

الكمال . . بدليل أن الانسان يخضع لناموس في ذات خلقه ، فتحمل به أمه ، ثم يخضع صاغرا للدورة التنفسية ، وتعمل الأعضاء بداخل جسمه بدون ارادة منه ، ويسري عليه قانون الحياة والموت . . كل هذا يعني الطاعة الاجبارية من العباد لله سبحانه وتعالى حتى الكفار منهم . .

وهذا انما يدل على جوهرية الخير في الحق جل شأنه . ولذلك السبب فالله غير قابل للأغيار ولا ينفعل .

الحديث يجرنا هنا الى تناول ﴿الحمد لله﴾ من سورة الفاتحة ، لنستجلي الأمور حول النية والقصد . . فحين أقول : إن الكوب لفلان مثلا . . فابتداء أنا حكمت بوجود كوب ، فصار بذلك بديهية فوق مستوى المناقشة . وتتبقى المشكلة فيمن يستحق الكوب . . كذلك حين نقول ﴿الحمد لله﴾ نعني أن الحمد قضية مسلمة معترف بها ، ولكن المشكلة هي : لمن يكون الحمد ؟ فهناك نعم كثيرة تستوجب الحمد ، والانسان مثلا يتمتع بنعم لم يخلقها ولم يوجدها بنفسه ، وخلقت بلا تدخل منه . فالحمد في منطق العقلاء يجب أن يكون موجودا كمحاولة للتعبير عن الشكر والامتنان مثلا . .

والحمد لله . . تدل أيضا على الحصر بأن تقدمت كلمة (الحمد) على (الله) فدلت بذلك على حصر (الحمد) (لله) .

وحتى لو لم نحصر الحمد لله وجعلناه للبشر ، اذا تتبعنا الأمر سنجده محصورا في الله أيضا ، لأن خالق البشر ـ المحمود ـ هو الله . ومن فضل الله أنه خلق لنا ما يعيننا على شكره . فهب أنه لم يوجد لنا صيغة مشتركة نحمده بها ، فقد يعطي ذلك الفرصة للبليغ لكي يتفوق على الجاهل مثلا . .

وهل هناك حمد يتوجه للفضائل وحمد للفواضل . . ؟

انك قد تعجب بعمل بارع على الرغم من انعدام الفائدة بالنسبة لك ، مثل بناء هندسي محكم ؛ فهذا هو تقدير الفضل في ذاته . . وأما الفواضل فهو ما ينعم به

عليك وتلمس فائدته مثل تذوق طعام جيد . وهؤلاء الذين سلبوا بعض النعم مثل البصر ، وهم متعلقون بالله في ذات الوقت ، متعلقون بفضائل الذات وليس بفواضل النعم !

حين نتناول الآية الكريمة ﴿لم يلد ولم يولد﴾ فيهمنا : ما يتعلق بمقام مولد الاله كما يزعم البعض . . وفي ذلك نزل القرآن لمعالجة مشكلة قائمة بالفعل مثل القول بأن المسيح مولود .

وحين تأتي طبيعة الاله مركبة من أكثر من جزء ، تتهدم دعوى الالوهية لأن الأحد لا يتكون من أجزاء كما سبق القول . كما أن هذه الدعوى الباطلة كانت ستجد لها بعض الحجج لو وضعت نظريتها في آدم وهو من جاء بدون أب ولا أم فكان أليق إلصاق هذه الصفة به . . وحيث لم تطلق عليه فكان ذلك أولى بألا تطلق أيضا على عيسى !

أما ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ : فمن الجائز أن يسير الكون بعالم الأسباب ، وقد يفتن بعض الناس بالأسباب فتغنيه عن الله . . أتكون هذه الأسباب المخلوقة لها الكفاءة لمساواة خالقها . . ؟!

واذا كان الله قد أعطى بعض خلقه قوة السببية في اتيان الأشياء ، فيجب الا يخدع الناس بهذه الأسباب لأنها هي - في ذاتها - تنكر ذلك ، لأن عطاءه عطاء ذات وعطاء المخلوقين عطاء سببية ، وهو عطاء ممكن أن يسلب منهم . والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. . . ﴾[1] .

والانسان يجب ألا يأخذ الأسباب ويدعيها لقوته ، ويستأثر بها لأنه هو ذاته مردود لله . . ألم يكن شابا وصار كهلا ؟ . . . ؟! . . . فهو ذاته يخضع لهذه النهاية وهو في النهاية عائد الى الله خالق كل الأسباب .

---

(١) الآيتان ٦٣ ، ٦٤ في سورة الواقعة .



روح الإسلام ومزاياه

روح الاسلام :

أنظروا كيف استقبل الاسلام الرسالتين (اليهودية والمسيحية) هل حكم على كل اليهود بشيء يكون نقيصة فيهم . . أوحكم على كل النصارى بحكم من هذا القبيل ؟! .

بالطبع لا . . انه يعلم أن كثيرا من اليهود يملكهم الحق ، ويملكهم الدليل ولذلك قال تعالى :

﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ . (آل عمران ٧٥)

لقد أنصف الاسلام المؤمنين باليهودية وأنصف أيضا المؤمنين بالنصرانية . . لأنه لو قام على كل يهودي وكل نصراني بالحكم ضدهم لقال الذين تراودهم أنفسهم بالايمان بمحمد تصديقا لما جاء في كتبهم عنه . . لقالوا : كيف يحكم محمد علينا مع أننا نفكر في أنه الحق . . ونحن نعلن ايماننا به . .

أي أن قول كل من القرآن والرسول منطقي مع واقع الناس جميعا ولم يظلم أحدا من أهل الديانتين لأنه أثبت أن منهم من يؤمن بالله وينفذ أحكامه ومنهم من لا يؤمن بالله ولا ينفذ أحكامه كالمؤمنين بمحمد تماما . . منهم من ينفذ أحكام الله ومنهم من لا ينفذها .

قضية الالتقاء :

ان القضية الالتقائية التي تمثل التقاء السماء بالأرض قضية متفق عليها بين الأديان . . ولذلك يجب أن يفطن أهل الديانات السماوية الى تلك القضية . .

فعلى الرحب والسعة ، وليسعهم كرم الاسلام ولتسعهم السماحة ما دام منهج المسلمين ومنهج الله محققا ولا يعنينا أن يخطئوا في تصورهم للقوة السماوية وهي الله . . فيصورونه بكذا أو كذا . . ما دام منهج الله قد أدي في الأرض . . والاسلام حين يحترم ذلك يحترم نفسه . فكما أن الاسلام أغلبية في أمتنا فهو في أمم أخرى أقلية . . وهو حين

يسود سماحة الاسلام ويقر حضانة من لا يؤمن بالاسلام يكون قد وضع الأسوة لأن تكون أقليتنا في بلاد غير اسلامية محوطة أيضا بالرعاية والعناية والأمن وبالاحتياط على أقل تقدير لا دينا ، ولكن معاملة بالمثل . .

* * *

منهج الاسلام :

الاسلام انما جاء لسيطرة منهج الله سواء آمنت بالله أو لم تؤمن لأن ايمانك بالله لا يزيد الله شيئا انما هو يريد أن يطبق منهج الاسلام ، ونحن نرى أن منهج الاسلام في أوليات تطبيقه لم يجامل المسلمين ـ مثلا ـ أمام اليهود . . لم يجاملهم وانما جامل الحق الذي أنزله الحق في كتاب الحق . . ومن الأمثلة مثال اليهودي الذي اتهم ظلما بسرقة درع لأنهم وجدوا عنده درع مسلم مسروق . . فقالوا ان زيدا اليهودي هو الذي سرق الدرع . .

وقال زيد انه لم يسرق شيئا . .

لكنهم تتبعوا أثر الدرع الذي كان في جوال من الدقيق ، فوجدوا بقايا الدقيق مستمرة الى بيت اليهودي . . فتتبعوا سرب الدقيق حتى البيت . . ووجهوا لليهودي الاتهام . . فدافع عن نفسه قائلا :

ـ أنا لم أسرق شيئا . . وهذا الجوال أودعه عندي واحد من المسلمين .

وشاع الأمر وأرادوا أن يرفعوه الى رسول الله ، فالمسألة دقيقة . . فهناك مسلم هو الذي سرق بينما الدرع وجد عند اليهودي . . ومال فكر المسلمين الى إنصاف المسلم على اليهودي ظلما حتى لا يشمت اليهود بالمسلمين . . وقد تكون هذه الفكرة جميلة في ذاتها . . فشاوروا الرسول في هذا الأمر وكان أن حسمه الله . . . يقول تعالى لرسوله ﷺ :

﴿إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما ، واستغفر الله ان الله كان غفورا رحيما ، ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ان الله لا يحب من كان خوانا أثيما﴾ . (النساء ١٠٥ ـ ١٠٧)

فكان ان حكم بالأمر لليهودي على المسلم ، لأنه لو لم تتدخل السماء في هذه

القضية لا تهم الناس منهج السماء واتهموا المبلغ لمنهج السماء لأن كل نفس لها ساعة صفاء تعرض فيها الأمور عرضا سويا بدون شيء . . فيقولون كيف ظلم ذلك وكيف ظلم هؤلاء ؟.

اذن فسيكون الأمر تشككا في منهج السماء .وفي المبلغ لمنهج السماء وتكون المسألة مسألة سيطرة قوة على قوة ، ولا يكون لمنهج السماء دخل . .

وحين ينزل الله ذلك القرآن على النبي ﷺ ، يكون ذلك دليلا على أن الله هو الحق ولا يمكن أن يؤيد غير الحق . . ولا يمكن أبدا أن يكون لرسول الله ﷺ ميل الى انسان اختان نفسه لأن الله لا يحب من كان خوانا أثيما . . يقول تعالى :

﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا﴾ .

(النساء ١٠٩)

ثلاث قضايا محسومة :

أتى الاسلام سمحا وعادلا ثم دعا الأديان الى كلمة سواء . . قال تعالى :

﴿تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله﴾ .

(آل عمران ٦٤)

فهل يجادل أحد من اليهود أو النصارى في هذه القضية ؟ ماذا نعبد اذن ؟!! لا يمكن لأحد أن يجادل في : ألا نعبد الا الله ، وألا نشرك به شيئا . .

وهذه أيضا قضية لا يجادل فيها . .

ولا نتخذ اربابا من دون الله . .

وتلك قضية ثالثة . .

فأي قضية من هذه القضايا يجادل فيها . .

فقد جاء القرآن بثلاث قضايا لا يمكن لعاقل أن يجادل فيها . ويكون أمر الخلاف والحكم في الخلاف لمنهج الله وحده .

غيرة عمر وفطنة علي :

قال عمر رضي الله عنه في علي رضي الله عنه وكرم وجهه :

« بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن » .

ولهذا القول قصة . . فقد دخل صحابي ـ أظنه حذافة ـ على عمر فسأله السؤال التقليدي : كيف أصبحت ؟ . .

أجاب الصحابي : أصبحت أحب الفتنة ، وأكره الحق وأصلي بغير وضوء ولي في الأرض ما ليس لله في السماء .

فغضب عمر . . ثم دخل علي . . واذ رآه كذلك قال : مالي أراك مغضبا يا أمير المؤمنين . . فأخبره بما دار بينه وبين الصحابي . .

فقال أبو الحسن : صدق يا أمير المؤمنين . .

فتعجب عمر قائلا : أوَ تقولها يا أبا الحسن !! .

فقال : نعم . . أصبح يحب الفتنة . . يحب ماله وولده . .

﴿ انما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ .

وأصبح يكره الحق . . يكره الموت ومن منا يحبه يا أمير المؤمنين!! .

وهو يصلي بغير وضوء . . على النبي ﷺ . .

وله في الأرض ما ليس لله في السماء . . فله زوجة وله ولد . .

وعندئذ قال عمر رضي الله عنه : « بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن » .

ومما سبق نتبين أن بعض الألفاظ تحتمل معان متعددة . . وحين تطلق هذه الألفاظ فان الذهن يذهب الى معنى هو القمة من هذه المعاني . . فحينما يسمع الانسان كلمة الفتنة

لا يخطر على باله المقابلة بين حب المال والولد وبين الفتنة . .

وعندما يسمع الانسان « يصلي بغير وضوء » ينصرف تفكيره الى الصلاة .

فكأن بعض الألفاظ تحمل معان عديدة . . والعقل المدقق والفكر المحقق هو الذي يستطيع أن يقيس ما قيل على من قال . . فحين نسمع انسانا ورعا يقول : أصلي بغير وضوء . . فصدور هذا الكلام من ذلك الرجل يجعلنا ندرك أن الصلاة هنا هي الدعاء . . أو الصلاة على رسول الله ، ولا يكون المقصود بها الصلاة المختومة بالتسليم لأن الطهارة من شروطها . .

اذن فالقرينة في صرف اللفظ الى معنى مقبول تتعلق بالقائل نفسه . . وها نحن نرى في المثل السابق . . كيف أن عمر رضي الله عنه وهو الذي انفعل ضد الكلمات أولا هو نفسه الذي انفعل بها اعجابا بعد ذلك . . مما يدل على أن العقل مهمته هي التفكير والاتيان بالأشياء المناسبة للمواقف . .

الجنود العشرة :

والشاهد أن سيدنا الامام عليا كان من المعروف عنه أنه قوي في الفتيا . . وأراد البعض أن يمتحنوا قوة علي في الفتيا . . فطرحوا فيما بينهم سؤالا مضمونه : أي خلق الله أقوى من الآخر ؟ . .

وجلسوا واجتمعوا وراح كل واحد منهم يدلي برأيه ولم تتفق الآراء على شيء الى أن مر الامام علي رضي الله عنه فقالوا : يا أبا الحسن ما أشد جنود الله ؟ . .

وكأنه يقرأ مسألة مدروسة في كتاب . . وكأنه لم يفاجأ بالسؤال فبسط يديه دليلا على أنه ينتظر شيئا يجيء وينتهي . . وفرد أصابعه وقال : «أشد جنود الله عشرة» . .

هكذا أجاب . . وكأنها مسألة مدروسة . . ثم جلس ليذكر مسائل مرتبة تصادف ما قالوه بالرد عليه . .

قال : أشد جنود الله عشرة . . الجبال والرواسي ـ وكانوا قد قالوا ذلك ـ والحديد

يقطع الجبال . . اذن فهو أقوى من الجبال . . والنار تذيب الحديد . . فهي أقوى ولكن الماء يطفىء النار الا أن السحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء . . . والريح تقطع السحاب . . وابن آدم يغلب الريح فيستتر بثوبه ويمضي لحاجته . . والسكر يغلب ابن آدم ، فيطوحه ، والنوم يغلب السكر . . والهم يغلب النوم . . فأشد جنود الله هو الهم . .

فاذا نظرت الى القضية في ترتيبها المنطقي الطبيعي . . فانظر الى الهم وهو معنى من المعاني يستبد بالنفس الانسانية ويبدد طاقتها وملكاتها . . ولا يجعل المصيبة فيما فات ولكنه يخشى المصيبة فيما هو آت . .

ثم انظر الى قيمة الايمان ، فهو ينزع من نفس الانسان ذلك الهم . .

فلماذا تغتم ؟ . .

فان كانت المصيبة التي أصابتك من عمل يديك فهي تربية لك . . كأن ترسب في الامتحان لأنك لم تذاكر ، ولذلك يقال : « ما ضاع من مالك ما أدبك » .

صنعة الله :

ان الأمور التي تصيبك نوعان :

نوع لحركتك فيه دخل .

ونوع آخر لا دخل لحركتك فيه .

في النوع الأول نسألك : لماذا أنت حزين . . ما دام هذا هو فعلك أنت . . فلا غريم لك . . اذن فحزنك يكون على نفسك وان كنت عاقلا فينبغي أن تستفيذ من التجربة وان كنت ستستفيد من التجربة فكأنك لم تخسر شيئا فتكون تجربة يمكن تعويضها . .

لكن في النوع الثاني . . حيث لا دخل لحركتك ولا لاختيارك في أمر ما فيجب أن تعلم أن الذي أجرى هذا الحدث أجراه لكي يصلحك . . فلأنه حكيم . . لا يجري عليك الا ما يصلح شأنك . . وفي مثل هذه الأمور لا تدع عقلك يقول لا . . رافضا هذا الأمر . . بل قل : هذا الأمر هو صنعة الله . .

ونأتي الى مثل بشري :

هل رأيت من البشر صانعا أخرق أحمق يأتي الى صنعته فيتلفها ؟ . .

فاذا شاهدت نجارا يمسك بالمنشار ويعمله في دولاب جميل فهل تتصور أن النجار يتلف دولابه أم يصلحه ؟ . .

بالطبع هو يصلحه رغم ما يبدو من الوهلة الأولى . . فما يجريه الصانع على صنعته هو اصلاح لها . . لكنك قد تدرك ذلك أو لا تدركه . .

ولهذا فلا بد أن تطمئن الى أن كل عمل وقع عليك من غير اختيار منك أو حركة لك هو عمل ينطوي على خير لك . . فأنت مردود لله . . ووالدك سبب في وجودك ، وأنت تعلم أن السبب في وجودك تحمل بطاقة العاطفة الحبيبة لك ما يجعله يتعب تحقيقا لراحتك أنت ، وليس له من خلقك الا السببية .

اذن . . الذي خلق السبب في الايجاد ألا يكون على الأقل مثل أبيك ؟ .

وحيث أن من له أب لا يحمل هم شيء من الأشياء . . فيترك مشكلة تدبير الطعام وغير ذلك على عاتق هذا الأب . . فماذا يكون اذن شأن من له رب !! . .

مفهوم الاسلام :

ما دمت أنت في كون . . فالأشياء التي نجرت عليك ـ وكنت فاعلها ـ قد أدبتك ، فانتفع بها . . وان كانت بعيدة عنك لا دخل لك فيها فهي ممن خلقك ورباك وهو حكيم لا يجري عليك الا ما يصلحك وان لم تر أنت وجه الاصلاح فيها . . ونخذ مثلا . . ولدك الحبيب حين تأخذ بيده الى طبيب لتطهير جرح في يده . . الولد في هذه الحالة قد يكره المعالج ، ويكره الوالد ، ويكره من يمسكه لإعطائه الحقنة ومن يعطيه الدواء . .

لكن هذا كله عمل يراد به خير الولد الا أنه لا يدرك ذلك لكنه حين يكبر ويكون راشدا ويصبح له أبناء سيدرك الحكمة فيما فعل به قديماً . . وذلك بسبب ما يفعله حديثا فيمن دونه فكرا ووعيا . .

فميزة الايمان أنه يبعد الهم الباعث على اليأس من الانسان اذ يدرك الانسان أن له

الها . . هو فوق كل الأسباب . . وما دام هو فوق الأسباب فنحن نأتمنه على منهجه الذي جعله لنا لنصلح في حركة هذه الحياة . . منهجه الذي يتمثل في الأمر بأن نفعل هذا ولا نفعل ذاك . .

فالحق سبحانه وتعالى حين يشرع المنهج يشرع للمنهج قواعد وهذه القواعد هي التي نسميها بالأركان . .

ومعنى الأركان أي الشيء الذي بني عليه الشيء المراد . . فاذا ما سمعت الرسول ﷺ يقول :

« بني الاسلام على خمس » . .

فهذه الخمس ليست هي الاسلام، وانما هي الأركان التي بني عليها الاسلام . .

اذن . . فالذي يفسر الاسلام بأنه « الخمس » ، ويقصر الاسلام على العبادات نقول له أنت جمدت الاسلام ، وجعلت الينابيع التي جعلها الله ركنا للاسلامية هي الاسلام . . بينما الاسلام شيء مبني على هذه الأركان . . فلما تقول بني البيت على القواعد الخمس مثلا . . فما البيت هنا . . انه هو الغرفة ، والمرافق . . ولكن لولا هذه الأركان لما كان البيت .

لذلك يجب أن نفهم أن الاسلام انما جاء ليشمل كل حركة في الحياة من قمة لا اله الا الله الى إماطة الأذى عن الطريق . . فكل عمل من هذه الأعمال تصلح به حركة الحياة يكون هو الاسلام . .

ليس الاسلام أن نصلي ونصوم ونزكي ونحج ونؤمن باليوم الآخر . . لأن تلك هي الدعائم التي بني عليها الاسلام ، فلو أن انسانا كلفك ببناء قصر ثم وضع لك الأسس والأركان التي يقوم عليها القصر . . ثم ترك الباقي . . أيكون قد أدى لك معنى القصرية الذي تريده ؟ . . بالطبع لا .

مراد خصوم الاسلام :

ما هو مراد خصوم الاسلام ؟! . .

ما هو مراد القوم المفتونين بعقولهم ليقننوا لحركة الحياة بغير ما قنن الاسلام .. قالوا : المساجد مفتوحة فليصل من يصلي .. والزكاة ليخرجها من يحب كما يحب .. والحج .. حج كما تشاء .. لكن .. غير هذا وذاك مرفوض .

والحال هنا تماما كمن بنى الأركان وترك ما يبنى على الأركان .. ولهذا يتمنى خصوم الاسلام أن يقنعونا بأن الاسلام أمر تعبدي ينحصر في الأركان الخمسة .. وبهذا ينعزل الاسلام عن حركة الحياة .. ليتحركوا في الحياة كما يشاءون . ونحن نقول : لا .. فليس الاسلام كذلك ، لأنه جاء ليحكم حركة الحياة .. ولذلك قالوا : ان رسول الله ﷺ علمنا كل شيء في الحياة حتى القراءة .. ورغم أن المراد من الاسلام ليس هو الأركان وحدها وانما ما يبنى على الأركان لا يكون قويا الا بهذه الأركان .. جاء الاسلام على أثر المسيحية ، والمسيحية جاءت على أثر اليهودية ، ومن يقرأ التوراة لن يجد فيها أبدا شيئا يتعلق بقيم الحياة .. فكلها تتعلق بماديات الحياة .. ورغم ما قاموا به من بعض الشروح في التلمود فانك ستسخر من محتواه وستدهش كيف يكون هذا دينا .. ففيه مثلا أن ربنا في عصر كل يوم ينزل ليلعب مع الحوت ، وأن ربنا يذاكر التلمود في الليل مع الملائكة .. وأن ربنا لما أراد أن يعاقب فرعون مصر وأهلها الذين ظلموا بني اسرائيل .. قال لبني اسرائيل : ميزوا بيوتكم بعلامات لأنني أريد أن أهدم على فرعون .

فكأن الله ـ في هذا التصور ـ لا يعرف الا بمعرفة البشر ، ولا يعلم الا بما يعلم البشر .. وأذكر أيضا إنهم جعلوا من ربنا شخصا يقعد على صخرة ويمد رجليه .. الى آخر كل هذه المسائل المادية الصرفة .. ولهذا كانت الحاجة ماسة الى روحانية صرفة ، فجاءت المسيحية ثم جاء الاسلام منطقيا مع واقع الحياة ..

الاسلام بين معسكرين :

جاء الاسلام والعالم معسكران :

ـ معسكر ملحد بالله لا يؤمن الا بالمادة ..

ـ ومعسكر يؤمن بالتقاء السماء بالأرض في منهج يحمله رسل الله الى خلق الله ، فكان

الاسلام كعهده منطقيا مع واقع الحياة ، يستقبل كل أمر بما هو أهل له . .

استقبل الالحاد بلا هوادة وعاداه عداوة سافرة لأن الخلاف معه انما هو في قمة التدين ، وهو وجود اله قادر مدبر لهذا الكون . .

وواجه القوم الاخرين الذين يؤمنون بوجود الاله ويؤمنون ببلاغ من السماء الى الأرض على لسان رسل يصطفيهم الله سبحانه وتعالى . .

الاسلام وأهل الكتاب :

كيف استقبل الاسلام ما نسميهم أهل الكتاب من يهود ونصارى ؟ استقبلهم استقبالا سمحا . . استقبال سلام ، استقبال أمن . . فذكر كل الخصال الكريمة التي كرم الله بها رسولي الديانتين العظيمتين . .

- كرم موسى تكريما لا حد له . .

- وكرم عيسى تكريما لا حد له . .

ونفى عن عيسى كل ما يمكن أن تتهم به أمه . . كرم الرسولين تكريما يقر مبدأ التقاء السماء بالأرض . .

ولذلك فبالمقارنة بين الفرس الذين كانوا يمثلون المادية والالحاد ، والروم الذين كانوا يمثلون أهل الكتاب نجد أن أهل الكتاب كانوا أقربهم الى قلب رسول الله والمؤمنين به . .

ولما نشأت المعركة بين الروم وبين فارس وهزمت الروم حزن رسول الله . . وحزن المؤمنون برسول الله معه لأن العداء بين المسلمين وأهل الالحاد عداء في القمة ، ولكن الخلاف بين الاسلام وبين الديانتين العظمبين خلاف قد يكون في تصور الاله ، وتصور الاله هي المشكلة للديانتين . ولكن التقاء السماء بالأرض وخضوع الأرض لمنهج السماء أمر متفق عليه . . ولذلك كان قلب رسول الله وقلب المؤمنين به مع أهل الكتاب من الرومان ، وفي ذلك ينزل الله قرآنا يتلى ليدل الناس جميعا على أن الاسلام أحب الذين كفروا بمحمد ولكنهم مؤمنون بالله عن الذين كفروا بالله . .

اذن فعصبية محمد ﷺ لربه أقوى من عصبيته لنفسه ، فالذين كفروا برسول الله

أقرب الى قلب رسول الله من الذين كفروا بالله .. ولذلك حزن رسول الله حينما هزم المنكرون لله المؤمنين بالله وان كانوا كافرين بمحمد .. يقول تعالى :

﴿ ألم ، غلبت الروم ، في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ .

(الروم ١ - ٥)

اذن فنصر أهل الكتاب على المنكرين للألوهية الملاحدة يجب أن يفرح به المؤمنون بالله لأننا مؤمنون في القمة وان كنا مختلفين في الرسول الذي بلغ ..

نحن مؤمنون برسولين بلغا .. وهم وقفوا عند محمد موقف النكران ومع ذلك فالقلوب المؤمنة وبشارة الله للمؤمنين بأن الله سينصر من آمن بالله وان كان كافرا بمحمد على الذين كفروا بالله .. فهل رأينا سماحة أحلى من هذه السماحة في الاسلام .. يكون قلب المؤمنين بمحمد مع الذين يكفرون بمحمد لأنهم آمنوا برب محمد وان اختلفوا في التصوير الايماني للاله الذي يؤمنون به .

* * *

البشرى بالنصر ودلالتها :

وما زلنا نتحدث عن المعركة بين الفرس والروم .. فنقول : كيف يتأتى لرسول الله وهو النبي الأمي في الأمة الأمية أن يحكم في نهاية معركة بين أكبر قوتين في الأرض : قوة فارس في الشرق ، وقوة الرومان في الغرب .. كيف يتأتى له أن يحكم ويفصل في معركة تكون بعد بضع سنين وليست معركة آتية .. فلو أن المعركة كانت في نفس الوقت لقلنا ان عند محمد ﷺ أخبارا بامدادات تصل الى قوة الروم لتنتصر على الفرس ، ولكن حكم محمد على نصر الروم يمتد الى بضع سنين ... وهي مسافة زمنية واسعة ..

فكيف أمكن لمحمد أن يحكم في مصير معركة ليس هو طرفا فيها .. ومن ناحية ثانية

هو لا يعلم بما يجد في خلال هذه السنوات من قوة هذا أو ضعف ذاك ..

ثم ها هو .. يطلقها قضية .. إن الله سينصر الروم على الفرس .

﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾ .

هذا شيء يدل على أن الرسول الكريم ينطق عن ربه الذي يعلم الأحداث كما تقع ولا يمكن أن يطلق رسول الله قضية قرآنية تتلى وتحفظ ويتعبد بتلاوتها ، ثم تأتي بضع سنوات لتكذب رسول الله فيما قال ـ وما كان لهذا أن يحدث ـ والا لتعرضت الدعوة كلها لهزة عنيفة تؤثر على الايمان بمحمد وبرب محمد ..

اذن فالذي أطلق القضية هو الله .. وهو واثق تمام الثقة من أن الأمر سيحدث كما قال .

وبالفعل ففي بضع سنين نصر الله الروم على الفرس وصادف ذلك أن نصر الله المؤمنين على الكافرين في يوم بدر فصدق قول العزيز الحكيم .

اذن فانتصار أهل الكتاب على أهل الالحاد شيء يفرح المؤمنين لأن قضية القمة متفق عليها والخلاف في المنهج الذي جاء به رسول الله .

* * *

منهج الله

التعجيل بالجزاء :

جعل الله سبحانه وتعالى رسالة الاسلام رسالة خاتمة ، فليس لأحد أن يستدرك عليها ، ولا أن يتزيد فيها ، وكل شغل المؤمن بها إن كان حاكما أن يرعى حدود الله لتنفذ كما أراد الله ، وان كان محكوما فعليه أن يطبق منهج الله فيما ولايته فيه على نفسه ، وفيما ولايته فيه على ما سواه ، وليدع كل مخالف لمنهج الله فيما ولايته عليه ليلقى من الحق جزاءه في الدنيا وليكون عبرة لأن الله لا يؤخر كثيرا من قضايا الكون الى الأخرة والا لعاث الذين لا يؤمنون بالآخرة في الأرض فسادا فلو لم يأخذ الله كل ظالم للبشر بمخالفة منهج الله في الحياة الدنيا لتشكك كثير من الناس في مناهج الله ، ولذلك يخبرنا الحق بأنها قضية سائرة في الزمن . يقول تعالى :

﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون﴾ .

(الأنعام ١٢٩)

ندرك من هذه الآية أن الظالمين الذين يفسدون في الأرض بظلمهم وطغيانهم لا يسلط الله عليهم الأخيار . . لأن الخير دائما لين الطبع رفيق القلب . فرحم الله طبعه وقلبه من أن يحمله عبء الانتقام . . فيسلط الله على من ظلم ظالما آخر نزعت من قلبه الشفقة والرحمة ليؤدب هذا الظالم . .

والأخيار مطمئنون لأن الله لم يكلفهم حتى مجرد تأديب الظالمين .

والذين ينظرون في التاريخ قديما وحديثا لا يجدون ظالما في الأرض الا مني بأظلم منه . . والتاريخ الحديث الذي عشناه يشهد ذلك كله . . فكم من ظالم عذب بأدوات استجلبها ليظلم بها الناس .

كل ذلك مشهود لنا . . ليطمئننا الله على أن الله يدفع الناس بالناس ، ومن سنة الأخيار مع الأشرار أن يدفعوهم بالكلمة الطيبة والأسوة الحسنة . . ومن لم يقبل ذلك ، ولم

يرض به سلط الله عليه من يلوي يده ويذل عنقه ، ويذيقه من جنس ما أذاق سواه . .

هذا هو منطق واقع الحياة . .

عدو واحد :

ان الذين يؤمنون بمنهج الله من مختلف الديانات عليهم أن يواجهوا عدوا متحدا عليه وهم الملاحدة الذين ينكرون صلة السماء بالأرض ، وعليهم جميعا أن يتركوا تصوراتهم في الله وعلى المنطق الحق أن يقول ما قاله الله عن نفسه تصورا في ذاته وتصورا في صفاته ، فان لم يقتنع أصحاب الديانات الأخرى بها فيكفينا أن نقول كما قال الله : ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ .

(الكافرون ٦)

تطبيق منهج الله في الدولة :

ما دام منطق الحق في الاسلام قد وجدت له أمة فيها غالبية اسلامية . .

وما دامت قد وجدت دولة تحب أن تكون أيضا دولة اسلامية يطبق فيها منهج الله . .

علينا عندئذ أن نناقش الذين لا يرضيهم أن يطبق منهج الله . . فنسألهم :

اذا سيطرت قوة من البشر على أمر دولة من الدول وهذه القوة من البشر تشكل أغلبية فقننت ما شاءت من قوانين البشر أيكون للأقلية أن تخرج على ما قررته الأغلبية ؟ . .

الواقع يقول لا . . فالأقلية مطالبة دائما بأن تنفذ ما أقرته الأغلبية ولو كان من صنع البشر أنفسهم . .

وبهذا المنطق . . اذا كانت الأغلبية قد ارتضت دينا لله وقالت إننا لا نحكم بما شئنا وانما نحكم بما شاء الله . . ولم تقل ان هذا الدين من عندها حتى يظن أنها أمة تريد أن تستعلي على طائفة لتحكمها بما شاءت . .

فما هو وجه الاعتراض اذن في تطبيق منهج الله الذي اعتنقت الأغلبية تطبيقه ؟! .

أين منهجهم ؟ :

ونقول : ان كان عند أحدى الديانات منهج ينظم حركة الحياة من الفها الى يائها . . فليتقدموا به الينا ـ وان وجد ذلك ـ سيقارنه العقلاء بما عندنا من دين الله . . فان وجدناه خيرا مما أنزل الله فليطمئنوا الى أننا سنأخذ به . .

ولكن الحـــق لم يدع للناس مجالا فأنزل القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام وجعله مهيمنا على ما سواه . . يقول تعالى :

﴿وأنزلنا اليكَ الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾ .
(المائدة ٤٨)

التصدي للملاحدة :

على الذين يريدون لمنهج الله في الأرض أن يسيطر أن يكتلوا قواهم ضد أعداء الله والملاحدة بالله لأن شغلهم بالتصورات في ذات الله وفي صفات الله أمر تعدى منطقة التعقل . . وبالتالي ليس لنا أن نتعصب له الا إن جاء بما اتفقنا على الايمان به . . وعلى الذين يرون في دينهم حقا . . أن يعرضوه بسماحة هذا الدين ، ، لأننا يحكمنا مبدأ وهو أننا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه .

الذي يعصي الله فينا لا نكافئه نحن بمعصية الله . . والا فقد أعطيناه حجة على أننا متساوون في المعصية ، وهذا هو التفريع السلوكي الذي يجب أن يكون عند منطق الغالب بمنهج الله في الأرض .

وعلى هؤلاء المعارضين أن يعرضوا دينهم عرضا سمحا لأن الحق أعلن ذلك وهو أن الدين ـ أي ما يكون في الاعتقاد ـ لا يمكن أن يكره عليه .

الاكراه بين القلب والقالب :

الانسان يكره (بضم الياء) قالب الانسان . . (والقالب أي المادة) . . يكرهه بالقوة فقد يفرض عليه بالقوة أن يعظمه أو يسجد له أو يمدحه بالشعر . . وهذا كله يدخل في اكراه القالب لكن هل يستطيع أحد اكراه قلب واحد على أن يحب شيئا ما ؟! . . بالطبع . . كلا . .

اذن فالعقائد لا يكره عليها ولو أراد الله أن يخضع الخلق جميعا لفعل ، يقول في كتابه العزيز :

﴿ولعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ، ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ .

(الشعراء ٣ - ٤)

ولكن هل يريد الله أعناقا ، أم يريد قلوبا ؟! انه يريد قلوبا . .

أما من يكره على مبدأ من المبادىء - حتى في مبادىء البشرية - فانه يكون غير مؤمن به . . ونفس الشيء يتجسد اذا رأيت بشرا يكره بشرا على مبدأ من المبادىء بقوة السوط وجبروت السلطان . . لأنه لو توفر الايمان بالمبدأ فلا حاجة له الى القـوة لفرضه . .

وللمسألة بعد آخر . . وهو مدى اقتناع الشخص الذي يلجأ الى أسلوب القهر . . فكأن لسان حاله يقول : (ان لم يكن وراء المبدأ سوطي وقهري وظلمي وجبروتي فلن يقتنع الناس بهذا لأنني أنا شخصيا غير مقتنع به) .

اذن فاذا رأيت اكراها على مبدأ أو اقناعا أو ارشادا الى رأي فاعلم أن صاحبه غير مقتنع به . .

ولهذا . . فان الله يريد قياد القلوب ، وما دام الأمر كذلك فعلى المؤمن أن يعرض منهجه عرضا سمحا ولا يحاول أن يكره على المبدأ لأن الاكراه على المبدأ سوسة تنخر في ذلك المبدأ .

منهج الداعية :

انك اذا أكرهت انسانا على المبدأ تسلل اليه النفاق ، وفعل ما يفعل من شر لهذا المبدأ ، ولذلك يقول الحق :

﴿لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ .

(البقرة ٢٥٦)

فالأمر واضح ، حيث تنتفي الحاجة الى الاكراه . . اذن . . حين لا يتبين الرشد من الغي يأتي الاكراه . . ولذلك حين يعرض الحق المنهج ، ويعرض منهج الداعية اليه . . تتمثل الأسوة في رسول الله ﷺ . .

﴿وإنا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ .

(سبأ ٢٤)

فالهدى أمر واحد والموافق له منهج واحد . . فاما أن يكون أنتم « الكفار » . . واما أن نكون نحن . .

فالرسول الكريم مطمئن الى أن منهجه لو عرض لا بد أن يحقق الفوز . . ولهذا طلب من خصومه أن يقفوا ازاء هذه المسألة موقفا سليما غير غوغائي ولا جماهيري لأن الجماهير تلقي تبعة الأحكام بعضها على بعض . .

فعندما تشب مظاهره يقول كل واحد كلمة ثم يرمي تبعة مسؤ وليتها على سواه . .

ولذلك يقول الحق لهؤلاء الذين عارضوا منهج محمد ﷺ :
﴿قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ .

(سبأ ٤٦)

مثنى أي يجلس كل اثنين مع بعضهما البعض ويتناقشان في مسألة محمد عليه الصلاة والسلام . . والسبب في تحديد عدد أفراد المناقشة باثنين أو فرادى أنه في حالة الاثنين يقل الكلام خارج الموضوع محل المناقشة . . ولا يكون هناك فرصة لطرف ثالث يقول ان فلانا انهزم أمام فلان بما يدفع المتناقشين الى اللجوء الى لجاج الباطل وصولا الى الانتصار . وفي حالة انفراد الشخص بنفسه فهذا ادعاة الى أن يتفكر في الأمر فيتبين زيف الادعاء بأن بمحمد عليه الصلاة والسلام جنة . .

ولهذا فساعة يعرض الحق المنهج يريد من كل واحد منا ألا يلقي تبعة عقيدته على سواه . .

ولعلنا نذكر ما قاله شوقي رحمه الله في قصة مصرع كليوباترا عن معركة « اكتيوما » التي كانت بين كليوباترا وبين خصومها وكيف تحولت الهزيمة الى اشاعة بالانتصار . . وراح الشعب يردد أناشيد الانتصار المزعوم . .

ومثل هذا أيضا حدث في التاريخ الحديث .

والشاعر أحمد شوقي رحمه الله يصور الموقف تصويرا دقيقا حتى لا تكون أحكام الحقائق خاضعة للغوغائية . .

ففي مكتبة قصر كليوباترا يدور حوار بين موظفين في المكتبة أحدهما يدعى ديون . .

يقول الموظف لزميله :

اسمع الشعب « ديون » كيف يوحون اليه
ملأ الجو هتافا بحياتي قاتليه

ثم يقول مؤكدا على كثرة هتافهم لقاتليهم وأثر ذلك في الشعب :

أثر البهتان فيه وانطلى الزور عليه
يا له من ببغاء عقله في أذنيه

ولذلك فالأمر في العقائد لا ينبغي أن تخضع للغوغائية وكل واحد عليه أن يأخذ

قضية العقائد على أنه مسؤول عنها . . ولن يشفع له أن يقول : «إني سمعت فلانا يقول» . . ولن يشفع له أن يقول ان جماع الغوغائية أو الجماهيرية كان هكذا . . فان كل واحد معلق من عرقوبه ، فعلى الانسان أن يناقش قضية العقائد بعيدا عن الغوغائية التي تسير وراء الصياح كالنعام والطغام . .

اسأل الله سبحانه وتعالى أن يبصرنا تبصيرا يتبعنا دائما الى منهج الحق .

* * *

تقسيم الأرزاق
ومقومات الحياة

تقسيم الأرزاق :

يقول الحق : ﴿فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾ .

(الجمعة ١٠)

من هنا نعلم أن وقت الانسان يجب أن يكون بين أمرين : بين انشغال بالمنعم لتأخذ منه شحنة الطاقة على حركتك في النعمة وبين حركتك في النعمة . . فقوله تعالى : ﴿فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ هذا أمر . . كما أن قوله : ﴿اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع﴾ . . هذا أمر . .

والأمران ممن له حق الأمر في خلقه وهو الحق ، فاذا ما طبقنا الأمر الأول ﴿اذا نودي للصلاة﴾ . . ذهبنا الى نداء الله ، ثم لم نطبق الأمر الثاني فقد تركنا شقا مهما في التكليف . فالضرب في الأرض بالحركة هو المقصود الأساسي لخلافة الانسان في الأرض ، فاذا لم يضرب الناس في الأرض بالحركة واقتصروا على ما تأتيهم الأرض من خيراتها فانهم يكونون قد قصروا في منهج الله سبحانه .

لم تخلق الرزق :

ما دام الضرب في الأرض للحركة ، فيجب أن يربط الحق هذه الحركة بما يهم الانسان أولا وهو رزق نفسه ، فيقول سبحانه : ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾ . .

(الملك ١٥)

هذا أمر للكدح وقيد لنفي غرور الكادح بقوته ، فلا تظن أن حركتك ومشيك وضربك في مناكب الأرض مشقة وجهادا وتعبا . . فالله هو الذي جاء لك بالرزق لأن حركتك مهما كانت لم تخلق الرزق ولكنها وصلت الى الرزق الموجود في الأرض ، والحق

طمأننا عليه في خلق الأرض أولا حين قال :

﴿قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين﴾ .

(فصلت ٩ ـ ١٠)

فكأن الأقوات مطمورة في الأرض منذ خلق الله الأرض . . كل عملك لا يوجد الرزق ولكن يوصلك فقط الى الرزق . . هذا هو معنى ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾ . .

وفي مناكبها مشقة . . أي لا بد أن تكون الحركة في الحياة حركة مشقة .

فلسفة العمل :

يجب على الذين يعملون أي عمل أن ينظروا لا الى ما يعطيهم جزاء العمل ولكن الى ما يحلل لهم جزاء العمل . .

أناس كثيرون من العاملين يأخذون قول الرسول : « أعطوا الأجير أجره . . . » . . ويغفلون قوله : « قبل أن يجف عرقه » . .

معنى ذلك أن يكون العمل قد أعرقه ، فأي عمل شكلي صوري يخليك من المسؤولية الشكلية ولا يعطيك العرق والمجهود في ذاته لا يحلل لك أجرا . . وكل فساد في الدنيا ناشىء من شكلية العمل دون العرق في العمل . . هذا هو فساد الدنيا كلها . .

شكلية في العمل لتخلي نفسك من مسؤولية المسيطر عليك وكأنه لا مسيطر عليك الا بالبصر المحدود والرقابة المحدودة . . ولو علمت أن المسيطر عليك لا تأخذه سنة ولا نوم لكانت رقابتك له أولى من رقابة المماثل لك . .

كل فساد في الحياة الآن ، كل مشقة نشقاها الآن ، وكل مظهر من مظاهر المتاعب الآن ترجع الى أن الناس ذكروا أجر العامل ولم يذكروا عرق العامل . ويجب علينا ان أردنا أن تستقيم لنا أمور الحياة أن نذكر الأمرين بنفس الدرجة .

خداع النفس :

ان الذي يخدع انما يخدع نفسه . . لأن الانسان لو كان مع مساو له في السيطرة والقيومية لهان الأمر أن تستغفله أما أن تكون بمرأى من قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، فاعلم أن كل حركة لك محصية عليك ولن يتأخر أمر ذلك الى الاخرة ، وانما لا بد أن يلقاه الانسان في الدنيا حتى يعصم الله فساد حركة الحياة من الذين لا يؤمنون بالاخرة . .

اذن فالحركة في الحياة ، المشي والضرب في المناكب . . كل ذلك يجب أن تلحظ فيه أنك الآن قادر وقد تكون عاجزا بعد ذلك .

حكمة العجز :

العجز موجود في بعض سمات الأفراد . . ولذلك تجد الشذوذ في الخلق هو القلة ، فاذا أحصينا الشواذ في الخلقة في بلد تعدادها عشرة الاف . . (الشواذ مثل المجانين والعرج والعمي . . الى آخره) سنجد أنهم أقلية . . أي دون العدد بكثير . . وقد نثر الله هذه الأقلية في كونه ليلفت الى نعمه الغافلين عن نعم الله عليهم . .

انك لا تشعر بنعمة عينيك حتى ترى أعمى يتعثر . . حينئذ تفيق لنفسك . .

ولا تذكر قوة رجليك الا اذا رأيت أعرج . .

ولا تذكر قدرتك على الحركة وانفعال جوارحك لارادتك الا حين ترى انسانا لا تستطيع جوارحه أن تنفعل لارادته ، كأن يريد أن يتحرك فلا يتحرك . . لتلف عصب الحس الموصل . .

اذن . . فهؤلاء جعلهم الله وسائل ايضاح ليذكرك بالغفلة عن نعمه . . ولهذا كانوا قلة . .

ما ذنب العاجز ؟

لماذا اختار الله بعض الناس ليكون فيهم المثل . . ما ذنب هؤلاء العجزة . . ما ذنب هذا ليكون أعمى مثلا ؟ . . انك تنظر الى ما أخذ منه ، ولكنك تغفل عما أعطاه الله له نظير ذلك ، فلو أنك نظرت الى مشمول ظاهرة من ظواهر القدرة ، وحللت كل نعم الله عليه

لوجدته فقد أعطي نعمة تعوضه عن المفقود . .

عميت جنينا والذكاء من العمى
فجئت عجيب الظن للعلم موئله
وصار ضياء العين للقلب رافدا
لعلم اذا ما ضيع الناس حصله

فنحن نلتقي بعباقرة ينشئهم الله حتى من منطقة عجزهم .

وهؤلاء الذين يحفظون صور العجز في أجهزة الحياة قد تكون هذه الصور مصدر القوة في أشياء أخرى لأن العاجز اذا رأى نفسه مأخوذا منه شيء دون نظير حاول جاهدا أن يجد في نفسه ملكة ينميها حتى يعوض النقص الذي فات . .

وكثير من العباقرة كانوا أصحاب عجز في بعض الأجهزة . .

اذن فالحق سبحانه وتعالى حين سلب شيئا أعطى شيئا ، لأن الله لم يتخذ ولدا ، وما دام لم يتخذ ولدا فجميع الخلق بالنسبة له سواء ، يعطيهم بمجموع متكافيء ، ولذلك وضعنا نظرية قديمة وقلنا ان اللباقة لها درجة ، والدقة في الحساب لها درجة ، وللذكاء درجة ، ولنجابة الأولاد درجة . . وهكذا لكل شيء درجة . .

فاذا أحصينا المجموع وجدنا أن مجموع كل انسان مساو لمجموع غيره من الناس . . ولكن التفاضل يكون بالتقوى . .

لكن الانسان حين ينظر الى تميزه يقتصر على ذلك ويغفل النظر الى تميز غيره . . فلو أنك رأيت نفسك نظيفا حسن الهندام ورأيت انسانا آخر غير ذلك فينبغي ـ اذا كنت عاقلا عقلا ايمانيا ـ أن تسأل نفسك عن الميزة التي يتميز بها هذا الذي دونك في الزي والهندام ، بحيث يعوض ما أنت فيه من ميزة . . اذن . . لا تحقره لأنه ناقص في هذا الشيء . . بل حقر نفسك لأنك ناقص فيما يقابل الزائد فيه . . ولذلك يقول الحق :

﴿لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم﴾ .
(الحجرات ١١)

انك ان جمعت درجاتك ودرجاته فستجد أنه أحسن منك في بعض الأشياء فكل واحد أخذ حقه بالميزان . .

نصيب المجنون :

سئلت مرة : ماذا أخذ المجنون من الدنيا ؟ . . المجنون الذي خلقه الله انسانا ، والانسان مكرم بعقله . . فهل سلب العقل نزع لقيمة التكريم ؟ . .

قلت له : ماذا يريد العقلاء الأقوياء في كل أجهزة جسمهم ؟ . . ماذا يريدون في هذه الحياة الدنيا ؟ . .

هم يريدون أن تكون لهم الكلمة ، يريدون اذا قالوا قولا أن لا يرد لهم القول . . يريدون أن يتصرفوا بارادتهم دون أن يلومهم أحد على شيء . .

قلت له : وكذلك أعطي المجنون . . انه يضربك وتضحك له ، فلا تسأله عن فعله ولا يسأله الله يوم القيامة عن فعله . . فهات انسانا أخذ هذا من الدنيا . . ان الغاية التي يسعى اليها الانسان نالها المجنون . . ولذلك تجد العجب ، فبينما نسميه مجنونا في حركة الحياة . . اذا به يجعله الله في لحظة من لحظات حياته بقوة عقلك في كل حياتك . . فكيف ذلك ؟!! . .

الانسان منا قد يعرف الحقائق الا أن عقله يستر عن النطق بها ، أما المجنون فيقول كلمة الحق ولا يبالي . . يقول الكلمة التي لا تستطيع أنت أيها العاقل أن تنطق بها . .

وهذا يقودنا الى معنى كلمة « عقل » لماذا أسموه « عقلا » ؟ . . عقل أي هناك أشياء يعقلك عنها . . لا يجعلك تتفوه بها . . أما المجنون فلا يبالي . .

اذن المجنون في لحظة من لحظات جنونه أخذ ما لم تستطع أن تأخذه أنت من كل لحظات عقلك في الحياة . .

المساواة في الرزق :

ان الحق سبحانه وتعالى حسنيا ينثر رزقه في جميع جهات الحياة على خلقه . . اعلموا أن الرزق متساو . . ولكن الله لا يريد اناسا مكرورين . . بمعنى أن تتساوى وتتطابق الصفات بين الناس فتنتفي حاجاتهم بعضهم لبعض . . فان الله يريد أن يربط الوجود بعضه ببعض ربطا نفعيا . . فتكون أنت مضطرا إليّ وأكون أنا مضطرا لك . . ولا يتأتى ذلك الا اذا اختلفنا في مواهب الحياة . .

احترام قدر الله :

الذين يأخذ الله منهم بعض المزايا ويعطيهم بعض مظاهر العجز لو فطنوا الى حقيقة ذلك لاحترموا قدر الله فيهم ، فلا يتأبون على القدر . . فيأتي مثلا رجل أراد الله أن يكون أعمى البصر وان كان قد أمده ببصيرة . وبعد ذلك يحاول أن يظهر نفسه وكأنه ليس كفيفا فيلبس نظارة . . وآخر قصير القامة يلبس حذاء ذا كعب عال ويضع على رأسه طربوشا طويلا لكي يبدو أطول مما هو عليه فيصبح مسخا . وذلك لأنه لم يحترم قدر الله فيه ، لكنه لو احترم قدر الله فيه لكان قدر الله فيه له خير . .

ويقول المثل القديم : « اللي بيدي العمى حقه يبقى مفتح » .

رزق السلب :

يقول تعالى : ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون﴾ .

(البقرة ٩)

وهو القائل جل شأنه :

﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ .

(الكهف ١٠٣ ـ ١٠٤)

فكيف يسعى الانسان بعد ذلك الى أن يكسب مالا دون ان يؤدي ما يقابله من عمل فيقتنص القروش - كما يقولون - من هبوب الريح بأن يضحك على هذا أو ذاك . . أو يضحك على الدولة ، فلا يذهب الى عمله ويكلف زميلا له بالتوقيع في دفاتر الحضور بدلا منه . . وهذا كفر بأن لك ربا رقيبا عليك ، فليس صحيحا أن الرقابة تقتصر على من يمسك بدفتر الحضور والانصراف . .

ولنتذكر هنا أن الرزق لا يتمثل فقط في الأموال التي تكسبها . . فهناك رزق السلب وهو المهم في الحياة . . فالكثير من الناس يعيشون في أمن واطمئنان واستقامة ويربون أبناءهم تربية طيبة بما يدهش الفريق الآخر من الناس الذين يتساءلون . . كيف يستطيع هؤلاء الحياة بهذه الكيفية ؟.

وتتمثل الاجابة في بند رزق السلب - في حالة عدم وفرة رزق الايجاب - لأن هناك بنودا أخرى عند الله . .

اذن . . وبهذا المنطق . . تكون الزكاة نماء . . اذ يسلب الله عن المزكي المصارف . . فكأن المال قد زاد بهذه الطريقة .

فاذا كنت تملك مائة أصبحت بالزكاة ٩٧ لكن ربنا سبحانه وتعالى منع عنك وسلب عنك مصرفا يأخذ خمسين ، فكأن مالك أصبح مائة وخمسين . . وهذا يعني أنك زدت في الحقيقة . . هذا من ناحية المزكي . .

الزكاة تطهير ونماء :

ماذا عن أثر الزكاة بالنسبة للمزكى عليه . . وكيف تكون تطهيرا له ونماء ؟ . .

ـ هي تطهير له . . لأن المزكى عليه وهو ضعيف ينظر الى واحد أقوى منه بما قد يحرك في نفسه قوى الغيرة والحقد والكراهية والغل .

لكنه حين يرى انسانا أنعم الله عليه ثم مد يد المعونة اليه بما أنعم ، يقول : النعمة عند هذا الانسان نفعتني ، وبهذا يطهر قلبه من الغل والحقد على هذه النعمة . .

ـ وهي أيضا نماء له . . لأن المعطي حين يعطيه ما لا تعطيه حركته في الحياة بهذا المال . . وكذلك تدله على أنه في مجتمع ايماني متكافىء ، وأنه لا يستقبل أحداث الحياة وحده ، وأنه اذا عضته نائبة فاخوانه المؤمنون جميعا من حوله . .

اذن .. فهو لا يبالي بأحداث الحياة ما دام هناك أناس تربطهم به أخوة ايمانية ، والخير عندهم متعد اليه .. فيتم بذلك النماء لوجوده ، والنماء لعمله ، والنماء لشخصيته .

أما ان انقبض الناس عنه فسيرى أنه يواجه الحياة وحده وهو أعزل .. فلا يحصل له النماء المشار اليه .. ولا النماء في أمله في الحياة ..

الزكاة والحافز .. أو التأمين على الحياة :

حين يذوق المزكى عليه حلاوة العطاء من المزكي يحلو في نفسه ذلك فيحب أن يكون هو أيضا مثل ذلك المزكي ويأمل أن يقوم بدوره .. فيشتغل في الحياة ويضرب فيها ليذوق هو أيضا ويذيق غيره هذه الحلاوة ..

اذن فالزكاة انما شرعها الله تطهيرا ونماء .. وان بدت في ظاهرها نقصا بمقياسك .. لكن مقاييس الله فوق ذلك كله .. فاذا تحرك الانسان وفي باله أنه يتحرك لنفسه ولكل ضعيف ضمن أنه ان ضعف في متغيرات الحياة ، فسيجد اناسا يتحركون لأنفسهم وله أيضا .. وذلك هو التأمين على الحياة .. حين يؤمن الانسان على ما يخيفه من حياته ..

تعب القلب وتعب الجوارح :

حينما شرع الحق سبحانه وتعالى المنهج الايماني ضمن للناس مقومات حياتهم في هذا المنهج .. وما دام قد ضمن لهم مقومات حياتهم في هذا المنهج .. يطالبهم بألا ينشغلوا بالرزق انشغال تعب قلوب ..

وهناك فرق بين أن يتعب بدنك وبين أن يتعب قلبك ، والأخير هو المنهي عنه في أمر الرزق ..

فالرزق مطمور في الأرض فان كنت قويا ذهبت اليه لتجده وان كنت ضعيفا سيذهب اليه أخ مؤمن يتحرك حركة تسعه وحركة تسعك .

اذن فمنهج الله يضمن هذه المسألة .. ولهذا لا ينبغي أن تنشغل انشغال القلب وتتعب تعبه .

ان الكثير مما لا يفرق بين تعب البدن أو الجوارح وتعب القلب أو النفس .

التوكل :

للمؤمن قلب وجوارح . . وحيث تتعب جوارحه ينبغي أن يتوكل قلبه . .

الجوارح تعمل والقلوب تتوكل . . وتلك هي مسألة المؤمن . . أما من يتصور أن التوكل يعني الانصراف عن العمل ويدعي أن الله يرزقنا كما يرزق الطير . نقول له . . ان الطير ليست مخلفة بأن تزرع وعملها هو أن تنال رزقها وتمضي . .

ولهذا نقول لمن أراد أن يتحرفن باليقين والتقوى ويجعل من التوكل حرفة . . نقول له : سنحضر لك مائدة شهية ونضع الطعام على المائدة فأرنا كيف تتوكل - بمفهومك - ولا تمد يدك الى الطعام فهل تقفز اللقمة وحدها الى فمك !!؟ . .

اذن هذا الشخص كذاب التوكل . .

ان التوكل هو ان تتعب بدنك ويرتاح قلبك . .

* * *

الجوع والخوف :

في الدنيا أشياء اسمها المخوفين . . المتعبين . . المقلقين . . حيث الخوف من بطش السلطان والقلق على الرزق . . ولذلك قال تعالى :

﴿فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ .
(قريش ٤)

وهذان العاملان . . الجوع والخوف هما سر متاعب الدنيا كلها . . ولهذا . . يأمرنا الله أن نتركهما لأنه يضمنهما لنا ، وأن ننصرف الى أعمالنا في الدنيا .

ويقول في الحديث القدسي ـ لضبط ميزان المجتمع :

« لا تخافن من ذي سلطان ، ما دام سلطاني باقيا ، وسلطاني لا ينفد أبدا » .

سبحانه . . يطمئن ابن ادم الا يخشى من ضيق الرزق فالخزائن ملأى . . خزائنه لا تنفد أبدا . .

أثقل الأثقال :

كنت أحدث اخواننا عما قاله أحمد شوقي رحمة الله عليه في حفل تكريم السيد نصير بطل حمل الأثقال . . فبعد أن قال فيه :

شرف نصيرا رفع جبينك عاليا
وتلق من أوطانك الإكليلا

وصل الى المعاني الدقيقة . . الى العطاء الالهي . .

فيقول شوقي في قصيدته مخاطبا السيد نصير :

ـ أحملت انسانا عليك ثقيلا

ـ أحملت دينا في حياتك مرة

ـ أحملت يوما في الضلوع غليلا

ـ أحملت طغيان اللئيم إذا اغتنى
أو نال من جاه الحياة قليلا

ـ أحملت ظلما من قريب غادر
أو كاشح بالأمس كان خليلا

ـ أحملت منا في النهار مكررا
والليل من مسد اليك قليلا

ـ أحملت في النادي الغبي اذا التقى

من مادحيه الحمد والتبجيلا

فيكون الشخص عيي اللسان ينادي بفصيح العرب ، ويكون بخيلا ويقال له يا حاتم . .
كل هؤلاء الذين عددهم أحمد شوقي وكل هذه الصور تبرز أثقال الحياة مقارنة بأثقال الحديد . .

تلك الحياة وهذه أثقالها
وزن الحديد بها فعاد ضئيلا

اذن فالمتاعب الحقيقية هي متاعب القلب وشغل المخ « فما الحمل الا ما وعاه الصدر » . وهذا هو ما يريد الله أن يمنعنا عنه ، أما تعب الجوارح والعضلات فهو مطلوب . . بل إن الله يغفر للرجل اذا بات كلا من عمله . .

* * *

مراحل اليقين
وتجديد الولاء الإيماني

لمن الكلمة ؟! :

تتجلى عظمة الايمان في أنك لا تسلم لي زمامك ولا أسلم لك زمامي ، وانما أنا وأنت نسلم زمامنا لله . . فلا يكون هناك طغيان لواحد ما على غيره في الأرض وتبقى الكلمة لله . . فلماذا يحرص البعض على أن يستذلوا الناس باسلامهم لمناهجهم !! واذا كانوا يريدون الخير حقا فيا الغضاضة في أن نسلم جميعا وجوهنا لمن هو أعلى منا . . لله سبحانه وتعالى . .

مفهوم العلماء :

الى جوار اسم الاسلام ووصفه اللذين اتخذهما شكلا وميزة لأمة محمد ﷺ . . فقد اتصف الاسلام بصفة اخرى ، وهي أن كل أمة محمد ﷺ امتداد لرسالة محمد ﷺ ، طالما لم يعد هناك رسل ولم يعد هناك أنبياء ولذلك عدة اعتبارات . . أولها أن المنهج محفوظ والمطلوب فقط هو البلاغ للمنهج . . ويظن البعض أن العلماء الذين يحملون المنهج للناس هم فقط العلماء المعممون والذين تعلموا في الأزهر الشريف وتعاطوا صناعة الدعوة . . وهذا غير صحيح . . لأن كل من علم حكما من أحكام الله فهو عالم به ولذلك قيل « نضر الله وجه امرىء سمع مقالة فوعاها وأداها الى من لم يسمعها فرب مبلغ أوعى من سامع » . .

التشريع الكامل :

قد نتعرض لأشياء لا تخطر على قلب الذين شغلوا أنفسهم بالتشريع لمصالح الناس . .

الجزار الذي ينفخ الذبيحة لكي يسلخها ، يحرم عليه الاسلام أن ينفخها بفمه ـ ويحتم عليه أن يستعين بمنفاخ حتى لا يدخل النفس ـ بفتح الفاء ـ في الذبيحة . فمن كان منا يعرف أن هذا النفس يخرج محملا بثاني أوكسيد الكربون وبأشياء ضارة أخرى من الجسم ؟ لم يكن أحد يعرف ذلك . .

صورة اخرى عن العجين . أي تشريع من تشريعات البشر يقضي بأن الخباز عليه ان يضع لثاما على فمه وأنفه مخافة أن يعطس في العجين .

ومن الذي قال ان الدين يعرض لمثل هذه الجزئيات ثم يقول لك بمقتضى الولاية الايمانية في أي أمة اسلامية ، إن من حق المكفوف الذي حرمه الله نعمة البصر أن يعين له ولي الأمر في المسلمين قائدا مبصرا يكون رزقه على بيت المال . .

فأي تشريع هذا ؟!! . .

أي تشريع هذا الذي يضمن كل حركة الحياة ؟!

من الذي قال إن المحتسب الذي يراقب تنفيذ الناس لمنهج الله يمنع الحلاق من ممارسة عمله في اليوم الذي يأكل فيه بصلا إن مهنته تقتضي أن يكون نفسه في أنف زبونه ؟!

ان قائل هذا الكلام لا بد أن يكون قوله تشريعا عاليا . ومع ذلك يتهمون شرع الله بأنه ناقص . فنقول لهم عندئذ . لا . . ان النقص في ايمانكم أنتم . . انكم لم تستطيعوا حمل أنفسكم على منهج الله ، فحاولتم أن يكون الله على دينكم لأنكم لم تستطيعوا أن تكونوا على دين الله . .

وما دامت حركة الحياة محكومة بهذا التنظيم الاسلامي فأي خلل في الوجود وأي قبح فيه يجب على ولي الأمر أن يبحث عن سببه وسيجد أن شيئا من منهج الله لم يطبق . .

فعلى سبيل المثال اذا ذهبت لشراء فاكهة من الفاكهي وكان صديقك وكانت الفاكهة غير جيدة انه في هذه الحالة سيبصرك بحقيقة هذه الفاكهة وينصحك الا تشتري منها وفي الوقت نفسه يسعى الى بيعها للآخرين . . وهذا الفاكهي نقول له : ان قضية الايمان مختلة عندك . . لأنك لا تحب لأخيك ما تحبه لنفسك ، فقد صنعت لنفسك ميزانا دون ميزان الله . .

في حالة أخرى نجد أننا قبحنا الوجود وقبحنا نعم الله . . فنقطف العنب قبل نضجه ليلحق بأسعار السوق العالية في فترة ما . . وفي هذا سخط على النعمة . . لأن الله يريد أن يمتع اعيننا قبل أن يمتع أفواهنا . . يقول تعالى :

﴿انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه﴾ .

ولا شك أن قطف الثمار قبل نضجها يؤثر على شجرتها [illegible] المعص يسخط على نعمة الله . . ومنشأ هذا السخط هو استعجال نعمة الله ، والمتعجل هو الملوم في ذلك ، فلو تركوا عند الفاكهي ما لم ينضج ولم يشتروه [illegible] الذى يجني الثمر في غير أوانه . . وليت الناس يحسنون التعرف على الله

الاسلام بين العلم والتطبيق :

ثمة لفتة يجب أن ننبه اليها وهي أن نحمل امانة الاسلام كعلم ونحيي الاسلام كتطبيق ، فهناك أمران هما تحقيق الاسلام وتطبيق الاسلام ، فهب أننا صرنا نقوم أبعدونا عن تطبيق الاسلام كمنهج سلوكي للبشر فماذا يكون موقفنا ؟ . .

موقفنا على الأقل يجب أن نكون أمة تبغي تحقيق الاسلام أي تحمل الاسلام كعلم الى أن يأذن الله لخلقه برجل يحمل مبادرة سماوية فيرى العلم والتحقيق موجودين فيطبق الاسلام . .

أما ان نرى أنفسنا بعيدين عن تحقيق الاسلام فنتركه . . فهذا هو الخطأ . . مطلوب منا أن نبقي على ضوء الشمعة الباقية وأن نحافظ عليها حتى لا تنطفيء . . فلعل واحدا يأتي فيأخذ من هذه الشمعة قبسا يعمل منه حريقا . .

اذن . . أمة مصر ان لم تكن قد حققت الاسلام منهجا وسلوكا فهي مطالبة بنعمة الله عليها أن تحافظ على الاسلام تحقيقا حتى تحفظ دين الله للدنيا . . وحتى يأذن الله لمن شاء أن يجري الخير على يديه ليطبق منهج الله . .

اياكم أن تقولوا . . وما علمنا بعلم الاسلام ؟! . .

دعوا الاسلام محققا وان لم يكن مطبقا ، وبعد ذلك طبق الاسلام فيما ولايتك فيه على نفسك . .

متى يسقط الحاكم بغير كتاب الله :

ان كل واحد فينا اذا طبق الاسلام فيما ولايته على نفسه لسقط الحاكمون بغير

الاسلام وحدهم . . ولو أن الحكام يعلمون أن الناس يحبون منهج الله لأنهم يرونهم يطبقونه في نفوسهم ، لتقربوا الى شعوبهم بتطبيق منهج الله . .

ان الحكام ـ في الوقت الحاضر ـ يتحسسون ما يرضي الشعوب ، فاذا علموا أن الشعب يطبق منهج الله فيما ولايته فيه على نفسه لعلم الحاكم عندئذ أن هذا الشعب عشق منهج الله . . فيتقرب الحاكم الى شعبه بتطبيق منهج الله لأن الشعب طبق منهج الله فيما ليس للحكومة فيه دخل . .

اذن فمهمتنا ذات شقين :

أولا ـ أن نسعى ونلح ونجاهد في أن نطبق الاسلام . .

ثانيا ـ اذا لم يتحقق التطبيق فعلينا أن نحقق الاسلام ونصفيه علما . . علما يجلي عقيدة الاسلام تجلية صافية ، ويبين حقيقة القرآن ويبين أن الله كنز في القرآن كنوزا سيفضي الزمن أسرارها حين يأتي ميلادها . . ويتحقق أن ذلك ليس من كلام البشر لأنه تعرض لأشياء لم تخطر على قلوب البشر أيام تنزيل القرآن . .

فعلمنا الآن يجب أن نعد له بأن نجلي الاسلام عقيدة ، ونجلي الإسلام عبادة .

مراحل اليقين :

العقيدة هي الايمان . . والايمان هو اطمئنان القلب الى قضية ما . . بحيث لا تطفو الى المناقشة من جديد . . فهذا هو معنى الايمان . . ان الله موجود . . الله قوي . . الله قادر . . الله خالق . . وهذه هي قضايا عقدية لا تطفو مرة أخرى لتناقش من جديد . . وان طفت الى العقل للمناقشة فلا يكون هذا ايمانا وانما نكون بصدد مشروع ايمان . .

وهناك فرق بين أن نؤمن بالأشياء ـعقلة وبين أن نؤمن بها متصورة .

فالمطلوب منك أن تتعقل الأشياء لأن التعقل يعطي الايمان . . والايمان لا يكون بالمحسوس أبدا . .

الايمان يكون بأمر غيبي ، ويتطلب توفر اليقين . . لكن اليقين له مراحل :

ـ اليقين يكون علما مرة .. ونسميه علم يقين ..

ـ ومرة أخرى نسميه عين يقين حين ينتقل الى شيء ما.

ـ ومرة ثالثة : لا يكون عين يقين لكنه يصبح حقيقة يقين ..

أي أن اليقين الايماني يمر بثلاث مراحل : علما وعينا وحقيقة .

ولتفسير ذلك نضرب مثلا : ان كنت أنا قد سافرت الى أندونيسيا ثم عدت الى طلابي وقلت لهم هبوا أنني قلت لكم انني رأيت فاكهة في أندونيسيا حجمها في حجم البطيخ ولونها لون البرتقال، وطعمها طعم الموز، ورائحتها رائحة التفاح . . فباعتباري أستاذا لهم فسيصدقونني وعندئذ يقال انني نقلت لهم صورة علمية . . حيث يصبح عندهم علم يقين على مقدار توثيق كلامي .

ثم ندخل مرحلة أخرى . . اذا أحضرت للطلاب نفس الفاكهة ووضعتها أمامهم . . في هذه الحالة ننتقل من علم اليقين الى عين اليقين . . ثم مرحلة ثالثة : اذا أحضرت سكينا وشققتها وأعطيت لكل طالب قطعة . . نصبح هنا في مرحلة « حقيقة يقين » بالنسبة للطلاب . . أي أن حقيقة اليقين هي أعلى مستوى في اليقين . ولهذا عندما سأل النبي عليه الصلاة والسلام حذيفة قال : كيف أصبحت قال : أصبحت بالله مؤمنا حقا . . حقا .

فنبهه الرسول الكريم الى المجازفة بكلمة « حقا » فباعتباري أستاذا لهم فسيصدقونني وعندئذ يقال إنني نقلت لهم، وسأله عن حقيقة ايمانه .

فقال حذيفة :

« عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها . وكأني أنظر الى أهل الجنة في الجنة ينعمون والى أهل النار في النار يعذبون » .

والملاحظ أن الذهب شأنه شأن الفضة . . وان المسائل الغيبية رآها حذيفة وكأنها حقيقة . . لهذا قال له النبي : عرفت فالزم . .

اذن هذه حقيقة . .

والحق سبحانه وتعالى حين أراد أن يعطي لنا هذه المراحل اليقينية قال في محكم آيته :

﴿ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر ، كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين ، ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾

(سورة التكاثر)

فجاء ﴿علم اليقين﴾ أولا ثم انتقلت الآيات الى ﴿عين اليقين﴾ وفي هذه السورة اقتصر الأمر على هاتين المرحلتين . . علم اليقين ، وعين اليقين ولكن في سورة أخرى تتضح « حقيقة اليقين » يقول تعالى :

﴿فلا أقسم بمواقع النجوم ، وانه لقسم لو تعلمون عظيم ، انه لقرآن كريم ، في كتاب مكنون ، لا يمسه الا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين﴾ .

(الواقعة ٧٥ ـ ٨٠)

ثم يقول تعالى :

﴿ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون ، فلولا إن كنتم غير مدينين ، ترجعونها ان كنتم صادقين ، فاما ان كان من المقربين ، فروح وريحان وجنة نعيم ، وأما ان كان من أصحاب اليمين ، فسلام لك من أصحاب اليمين ، واما ان كان من المكذبين الضالين ، فنزل من حميم ، وتصلية جحيم ، ان هذا لهو حق اليقين﴾ .

(الواقعة ٨٥ ـ ٩٥)

وهنا لا على المحدث ﴿ان هذا لهو حق اليقين﴾ . . وعندئذ قد تتساءل لماذا ذكر الله سبحانه وتعالى ﴿حق اليقين﴾ في مسألة الكفار ولم يقلها في مسألة أهل الجنة ؟ . .

فنقول ان السبب أن أهل الجنة المؤمنين مكتفون من الله بعلم اليقين أما الكفار فهم

الذين يتشككون الى إن يأتي لهم حق اليقين ويصطلوها ـ أي النار .

* * *

اليقين بالموت :

لم يجعل الله للموت سببا محددا ولم يجعل له شكلا محددا ليكون الانسان دائما على استعداد أن يلقى الله في أية لحظة ، فهل ذلك مرتب عند الناس في حركتهم على اليقين بالموت ؟ . .

هم متيقنون ولكنه يقين أشبه بالشك ، ولذلك يجب أن يتذكروا دائما ذلك المنطق ، فيعطي الله الموت في الحياة صورا متعددة ، فنجد جنينا يجهض ، ونجد جنينا يجهض في مختلف أعمار جنينيته ، فهذا ابن يوم وذلك ابن يومين . . الى آخره ، ونجد طفلا ونجد فتى ونجد يافعا ونجد مريضا يصح ونجد سليما يحتضر كل ذلك لماذا ؟ . .

حتى يبرز الله قضية اليقين بالموت ابرازا يظل في بؤرة الشعور .

الايمان بالله :

في شأن مطلق اليقين بقضية ما لا يكفي أن تحمل نفسك على هذه القضية الا اذا واليت نفسك تذكير نفسك بالقضية ، والا تجعلها تذهب الى حاشية شعورك البعيدة ويكون المطلوب : أن تظل القضية في بؤرة شعورك دائما لتتصرف على مقتضاها .

كذلك الايمان بالله . . فالايمان بالله يقين بأنه موجود . . ويقين بأن له الكمالات المطلقة ولكن قد توقن ذلك ، ولكن لا تعمل على مقتضاه . . وأنت لا تعمل على مقتضاه لأنك تغفل هذه المسألة وتصير في حاشية شعورك . . فاذا جلست لتتذكر انتهيت اليها .

تجديد الولاء الايماني :

يريد الله أن يديم على الانسان قضيته . . قضية الايمان به استدامة لا يغفل الانسان عنها أبدا حتى تكون حركته في الحياة موافقة لمنهج الله الذي أنزله . .

كيف يتحقق ذلك ؟ . . .

لا يكفي أن تؤمن بل لا بد أن تجدد ولاءك الايماني دائما فالله يناجيك كل يوم خمس مرات ليذكرك بقوله « الله أكبر » . ليذكرك أن الايمان به أولى من كل حركة تشغلك عنه في الوجود . . فحين تقول الله أكبر . . معنى ذلك أن أي شيء لا يشغلك عن هذا الإله . . لأن الله هو واهب حركتك ومخزك والمادة التي تتفاعل معها . . فلا تقل شغلني كذا . . لأن الله أكبر من كل ما يشغلك عنه . .

لأن الذي شغلك عنه من عطائه ، فكيف يشغلك عطاؤه عنه . . هل أنت تريد فقط أن تكون مع النعمة ؟! . .

ان الله يريدك أن تكون مع النعمة ولكن . . اذا دعاك المنعم تركت النعمة وذهبت اليه . .

ذلك هو جلال البعض الايماني فشرع الله لك الولاء الايماني بالصلاة تدعى اليها كل يوم خمس مرات .

واذا نظرت الى ذلك الولاء الايماني . . لم يتركه لك الله تشريعا لتتفكر أنت وتذهب اليه كل يوم خمس مرات ولكن جعل لك شعارا ينادي ليذكرك . . « الله أكبر » . .

معنى الله أكبر :

ان « الله أكبر » تعني أن كل شيء يشغلك عن الله هو أكبر منه فاذا ما ذهبت اليه وهو داعيك . . وهو ربك . . داعيك لا لتأخذ اليه شيئا من نعمته عليك لترده اليه ، فأنت لا تدخل عليه بهدية مثلا . . وانما دعاك ربك لتأخذ أنت منه الهداية والهدية . .

اذن فهو يحب لصنعته أن ترتقي ولذلك يجدد لقاءه بها فيأمر تكليفا ان تذهب اليه والى دعوته كل يوم خمس مرات . .

دعوة مفتوحة :

أروني مسيطرا على جماعة بأمرهم ويكلفهم أن يذهبوا اليه كل يوم ولو مرة واحدة ؟!! .

ان الانسان قد تمر حياته كلها ولا يحظى بلقاء من يحكمه مرة واحدة ، واذا عن له ما

يريده يطلب ويكثر ويلح ويطرق الأبواب حتى يلقاه ، واذا ما سمح له أن يلقاه ماذا يكون الموقف ؟ . . يحدد هو الزمان ويحدد هو المكان والمدة . . ويحدد موضوع الحديث . . هذا ان قبل . .

فكأن ربك المستغني عنك يقول لك أنا أدعوك الى رحابي كل يوم خمس مرات ، وأنا لا أقتصر في لقائك على خمس مرات ، فان أردت أن تلقاني كل لحظة فمرحبا ، فأنا لا أمل حتى تملوا ، وان أردت أن تديم معك وقتي كله فأنا لا أمل حتى تمل أنت .

ولذلك يجد المقربون الى الله أنهم بفريضة الصلاة عليهم أعزهم الله وجعلهم في رحاب حضرته ليديم عليهم عطاءه . . ولهذا قد نرى الرجل المقرب الى الله يقول ، وهو يدرك هذه المسألة التي ربما تمر على كثير منا دون فكر ودون وعي . . يقول الرجل المقرب الى الله :

حسب نفسي عزا بأني عبد
يحتفي بي بلا مواعيد رب
هو في قدسه الأعز ولكن
أنا ألقاه متى وأين أحب

ومن العجيب في أمر الله مع خلقه أن يترك الله الأعلى انهاء المقابلة للعبد . . بينما جرت عادة العظماء أن ينهوا هم المقابلة بوقوفهم ، ومعنى وقوفهم انتهاء المقابلة . . ولكن الله يظل معك الى أن تنهي أنت معه المقابلة . .

عطاء الله وهداياه :

أي عظمة تجعل الانسان يفخر بأن خالقه المستغني عنه يدعوه الى رحابه كل يوم ، واذا ما دعا داع الى بيته ـ ولله المثل الأعلى ـ يعطي الداعي المدعو من التحف والافضال والاكرام ما يناسب منزلته ، فهذا يعطى قهوة وذلك يعطى شاياً وآخر يعطى فاكهة . . كل يعطى على حسب قدره . .

اذن فانت اذا دعيت الى حضرة الله كل يوم خمس مرات فللـه ألطاف وتحية يحييك بها في بيته ، وما دامت التحية على أقدار الداعي والمحيي ، فانظر الى هديتك على قدر ربك . . فماذا يعطيك . . يعطيك العطاء الخفي لأن كل معط يعطي على قدر ذاته وصفاته . .

انت تذهب الى الطبيب فيعطيك أمرا ماديا ودواء ماديا لأن الطبيب مادي . .

وتذهب الصنعة الى صانعها في مصنعه فيجد سلكا دقيقا مقطوعا أو مسمارا صغيرا مفقودا قد عطل الآلة فصيانته أن يضع هذا المسمار ، وهو هنا أعطي أمرا ماديا . . لأنه مادي يعطي من جنس ذاته . . ولكن ربك غيبي فهو يعطيك من جنس ذاتيته وغيبه فلا تقل ماذا أخذت لأن عطاءه غيبي . فهو الذي أعطاك الطاقة ، أعطاك الشحنة ، أعطاك اليقين . . وهذا كله بعض من عطاء الله سبحانه وتعالى حين يناديك لتكون في حضرته . .

ان مثولك بين يدي الله خمس مرات كل يوم يديم ولاءك للحق وان حضورك الى بيته واعلان ولائك له خمس مرات كل يوم وما تناله من فيض كذا خارج البيت فأنت فاعله بالضرورة لأن في ذلك استدامة للولاء له . .

اذن فمشروعية معنى الأركان الاسلامية هو الأساس الذي ينبني عليه احترام كلمة افعل ولا تفعل . .

* * *

فضـــل الجماعة

صلاة الجمعة والولاء الجماعي :

ان الله حين شرع أركان الاسلام انما شرعها ليديم ذكر الانسان للاله الواحد ويديم ذكره لصدق الرسول المبلغ عن الله ويديم ولاءه له اعلانا في كل يوم خمس مرات ، ولكن الله لم يلزم في اللقاء إلزاما الا في صلاة الجمعة . . فقال تعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون﴾ .

(الجمعة ٩)

لأن الله لا يريد استدامة الولاء الفردي فقط ، وانما يريد استدامة الولاء الجماعي لأن الولاء الفردي قد أعلنه وحدي ولكن الولاء الجماعي اعلان مني بالعبودية لله أمام بقية خلق الله . . فحينئذ ينقطع في البشرية مظهر الاستعلاء . . كأن الله يقول لنا . . أنا أريد منكم جميعا أن تعلنوا عبوديتكم لي لا من وراء بعضكم البعض ولكن باجتماعكم معا حتى اذا ما رأى الضعيف ـ هذا الضعيف في مظهر الحياة الخارجية ـ اذا ما رأى القوي في حركة الحياة الخارجية مساويا له في سجوده لربه وخاضعا استقر في ذهنه أنه مساو له ، واستقر في ذهن الكبير أيضا أن غيره قد رآه في موقف الذلة لربه ، فلا مظهر للتعالي في أي صورة . . لذلك يلزمنا الله أن نعلن العبودية جماعة كل أسبوع مرة ﴿اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله﴾ . . ولنتذكر جيدا كلمة الى ذكر الله . . فكأن هذا اللقاء يذكرك بعظمة القادر .

فقد ينعقد في نفس الانسان الضعيف أنه صار ضعيفا ، وفي نفس القوي ينعقد شعوره بأنه صار قويا . . تجيء صلاة الجمعة فتذكر الأخير بأنه عبد . . حيث يذهب ويستوي مع الناس جميعا بحيث يراه الضعيف . فأنت اذا ما رأيت رئيسك وقد وقف باكيا

لله . . بينما كنت تعتبر هذا الشيء شيئاً في أي وقت رأيته فيه . . وعندئذ تدرك أنه ضعيف

مثلك وهنا يحضرني السؤال

لماذا البيع دون الشراء ؟

انظر الى دقة الأداء القرآني

﴿فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع﴾ .

بالطبع لا يوجد بيع الا اذا وجد شراء فلماذا قال سبحانه وتعالى ﴿وذروا البيع﴾ واختار أحد ركني الصفقة وهو البيع دون الشراء ؟ . . السبب أن البائع دائما يفضل البيع لكن المشتري قد يشتري وهو كاره أي أن الشراء قد لا يكون ممكنا في كل لحظة فقد تجد المحل الذي تشتري منه مغلقا أو قد تعترض على المحل كمبرر للتهرب من الشراء لعدم الرغبة فيه . لكن لا احد يحتمل الخسارة لكي لا يبيع لأن البيع يؤدي مباشرة الى الربح . .

اذن ورد البيع دون الشراء لأن كل تاجر يحب أن يبيع وليس كل مشتر يجب أن يشتري في أي وقت فجاءت الآية لتمنع ألوان الصفقة . .

وقد تتساءل لماذا اختيار التجارة والبيع في هذه الآية ؟ . . لأن كل عمل من الأعمال له ميلاد زمني فاذا طلبت من تلميذ أن يترك المذاكرة لن تتحقق الفعالية لأن حصيلة المذاكرة لا تظهر الا في آخر العام واذا كان المطلوب ترك الزراعة . . فالزراعة لا تظهر حصيلتها الا في وقت الحصاد . لكن الأمر يختلف في البيع فالبيع ربحه عاجل ومباشر إن الله سبحانه وتعالى يأمرنا أن نترك أمتع الأشياء وأقربها ثمرة وهو البيع ونتجه الى الصلاة . . لنكون جماعة ، ويتحقق الاستشعار الولائي الجماعي وهذا هو الذي يكون المجتمع المستطرق .

فضل الجماعة :

انك اذا نظرت الى توجيه الله لنا حين نقرأ فاتحة الكتاب :

﴿أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين﴾ .

لأنك أنت الذي تقرأ فكان المفروض أن تقول «اياك أعبد وإياك أستعين» .

ولكنك تقول معبرا عنك وعن غيرك ، وغيرك يقول عنه وعن غيره ، نردد جميعا ﴿اياك نعبد واياك نستعين﴾ . . فلماذا ؟ . . .

أنت قد لا تطمئن الى قبول عملك عند الله . . لكن اذا وجد جمع كبير لن يخلو هذا الجمع من عابد مقبول عند الله . . فاذا أنت ضممت نفسك الى العابدين . . فقد يقبل الله تعالى الجماعة كلها وأنت بينهم . .

ومن هذا المنطلق نقول . . انك اذا رأيت انسانا مقبلا على منهج الله وأنت غافل عن هذا المنهج في بعض الأحايين فاياك أن تخسره لأنك في وقت من الأوقات ستحتاج الى الانضمام اليه . . لكي يقبل عملك معه . . فمن خيرك اذن أن يوجد أناس منقطعون لله بينهم وبين الله وفق . . لأنك حين تقول ﴿اياك نعبد﴾ فقد يعمك الخير . . ولهذا لا ينبغي أن يكون حظهم منك أن تسخر منهم وأن تلمزهم وأن تحتقرهم حتى لا تضيق على نفسك وتحرم نفسك أطواق النجاة في الحياة . .

فاذا رأيت رجلا متعبدا . . فلا تحتقره . . لأنه قد يقدم لك طوقا من أطواق النجاة حين تشترك معه في عمل ربما ان انفردت به لا يتحقق القبول . .

اذن برسوخ هذا المفهوم وتطبيقه يتحقق في نفس الانسان الولاء الجماعي واستطراق العبودية ويتيح الانسان لنفسه أن يجد طوقا من أطواق النجاة .

ولنفترض حالة قيام مظاهرة ، والجماهير تكرر الهتاف . . ثم يكون القبض على بعض المتظاهرين . . سيقول كل من المقبوض عليهم : لست أنا الذي كان يهتف . . محتميا في ذلك بالجمهور . . فالجماعة هنا كانت في مصلحته . . ولهذا حين يرغم الله الناس على الحضور يوم الجمعة لصلاة الجماعة . . فهذا يكون لمصلحة الناس .

الزكاة بالوقت :

ترى . . لماذا يتكاسل بعض الناس عن الصلاة ؟ هل لأن الصلاة تستغرق وقتا . . وأن وقت الصلاة يعطل حركة الانسان العملية في الحياة ؟ . .

اذا كان الأمر كذلك . . نقول . . من أي شيء تستمد قيمة الوقت ؟ . . هل لكي

تتحرك فيه . . وما قيمة الحركة ؟ . هل تكون لك جدوى في الحياة فتكسب مالا ؟ .

ان الحق سبحانه وتعالى اذا اطمأن الى أنك ضحيت بالوقت الذي تخسر فيه حركة تؤدي الى كسب المال . . فأنت أيضا اذا ما تحركت وجئت بالمال يديم الله ابتلاء عبوديتك باعتبار أن المال الذي كسبته من الحركة يجب أن تخصص بعضه لأخوانك الضعاف فيشرع الله الزكاة . .

وحينما يقرأ المؤمن القرآن نجد أنه يقول له اخرج الزكاة ان كان عندك مال وكذلك افعل وتحرك لغرض الزكاة وهناك فارق بين العبارتين : بين أن تؤدي الزكاة وأن تنفعل وتتحرك في الحياة بقصد الزكاة . . يقول تعالى :

﴿قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون﴾

(المؤمنون ١ ـ ٤)

قال تعالى ﴿للزكاة فاعلون﴾ ولم يقل « مؤدون » لأن مؤدون تعني وجود المال عند الشخص وبالتالي يؤدي عنه ومنه الزكاة ، أما « فاعلون » فتعني غير ذلك المعنى . . اذ يرتبط معناها بحركتك في الحياة بنية الكسب لتعول نفسك ومن تحب ومن لا يقدر على العمل فتعطيه من فضل الله .

اذن عملية « العمل » تكون في بالك عند الفعل فلا تكون حركتك من أجل نفع نفسك ومن تعول فحسب لا بد من اضافة للضعيف الذي لا يقدر على العمل فيكون له في مالك نصيب .

اذن ﴿هم للزكاة فاعلون﴾ لأن غير المؤمن يفعل ويتحرك في الحياة لنفسه ولأهله . .

وهنا تظهر فائدة الدين ، فهو الذي يصعد حركتك ، يعرفك أنك ان لم تكن متدينا ستصنع لنفسك ولأهلك . أي ان الفرق بين المتدين وغير المتدين أنه يصنع لنفسه ولأهله ولمن لا يقدر على الحركة . فيكون من أهداف حركته أن يفيض عنه شيء ينفقه في سبيل

الله . . ولهذا تكون قضية الزكاة من ماله في ثورة شعوره ساعة الحركة . فينظر في الكون على أنه ليس وحده فيه ، ففيه أناس كثيرون وبعضهم لا يقدر على العمل وقد جعلهم الله كذلك لا ضنا منه عليهم بالرزق ولكن تربيبا لفائده الذي في نفس الانسان حين يرى وهو قادر على الفعل انسانا آخر غير قادر على الفعل . . وكلهم خلق الله . عندئذ تتحرك في نفسه الاريحية . . فيقول : « وهبني أنا غير القادر » . .

اذن على القادر أن يتحرك حركتين حركة تسعه وتسع من يعول ، وحركة تسع من لا يتحرك ولو من باب الشكر لله الذي جعله قادرا ورفع عنه الضعف في تلك الحياة . .

قضية القدرة والعجز :

ونصل الى أغيار الحياة . . ومعنى أغيار الحياة عدم ثبات المتحرك في الحركة . . حيث يصبح قوي اليوم ضعيفا في الغد . . وما دمت أعرف هذه الحقيقة فمن مصلحتي أن أعين الضعيف بحركتي . . حتى يمكن لمن هو أقوى مني فيها بعد أن يعينني فترة ضعفي .

ولهذا لم يجعل الله أناسا قادرين على الدوام أو يجعل أناسا عاجزين طوال العمر . . بل عمل قضية القدرة والعجز فجعلها قضية مستطرقة في الخلق جميعا حتى يظل الانسان وهو قادر مستشعراً أنه سيعجز ، وحين يستشعر أنه سيعجز يكون من مصلحته أن يتحرك المتحرك القادر حركتين : حركة تتسع له ولأهله وأخرى تتسع للضعيف .

* * *



الله والنفس البشرية

الله والنفس البشرية

ان الانسان يتصل بالعالم الخارجي بواسطة الفطرة . نحس بها ولكننا لا نفهمها . . فنحن حين نحب ونكره مهما حاولنا تفسير ذلك الاحساس لا نستطيع أن نصل الى حقيقته . وعندما نولد تبدأ الفطرة عملها . . قبل الحواس . .

يقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في حديثه ان الانسان في صلته بالعالم الخارجي يتمتع بما نسميه الحاسه . . أو الحواس . . فأنت ككائن بشري حين تتصل بالعالم الذي يحيط بك فانك تتصل به عن طريق حواس حددت بخمس هي : ان يسمع الانسان ويرى ويشم ويلمس ويتذوق . هذه الحواس نفهم بواسطتها العالم الخارجي ونميز بواسطتها هذا العالم ، بل ونعطيه صفاته التي نطلقها عليه . . فصفات الألوان مثلا نميزها بحاسة البصر . ونوع الطعام مثلا نعطيه لفظ الحلو . . ولفظ المر . . ولفظ الجيد . . ولفظ الرديء . بحاسة الذوق الى اخر هذا الكلام . . اذن فنحن نتصل بالعالم الموجود خارجنا عن طريق هذه الحواس . ولكن ماذا عن عالم ما هو داخل النفس البشرية . . وكيف يمكن أن يتم الاتصال بين الانسان . . وما هو موجود في داخله . . هل يتم هذا الاتصال عن طريق الحواس . . او عن طريق أشياء أخرى يطلق عليها بعض الناس البديهيات . وبعض الناس لفظ إلهام خاص . . وبعض الناس الفاظ أخرى . . ولكن المؤكد أن هذا الاحساس الذي يتم بالنسبة لما في داخل النفس البشرية لا يتم عن طريق الحواس الخمس التي نتصل بها بالعالم الخارجي . . وانما يتم عن طريق أشياء أخرى يطلق عليها كما قلت إلهام أو احساس داخلي الى آخر هذا .

ولنشرح الموضوع بشيء من التفصيل . . نبدأ أولا بالأشياء التي يصل اليها الانسان عن طريق حواسه التي توصله بالعالم الخارجي . . فهو يرى ألوانا مختلفة . . ويسمع أصواتا مختلفة . . ويلمس أشياء مختلفة . ويتذوق طعاما مختلفا . . ويشم روائح مختلفة . . هذا هو اتصال الانسان بالعالم الخارجي أما اتصاله بما في داخله فيأتي مثلا عن طريق شعوره .

بالجوع . . إننا لا نرى الجوع . . ولا نلمسه . . ولا نشمه . . ولا نتذوقه . . ولكننا نشعر به . . وما ينطبق على الجوع . . ينطبق على الأشياء الأخرى . . مثل الحب والكره مثلا . . الانسان يحب شخصا ما . . ويكره شخصا ما . . أو شيئا ما . . دون أن يكون لذلك سبب حسي معروف .

اذن فهناك أشياء في داخلنا . . تسمح لنا بأن نشعر شعورا معينا . . هذا الشعور نحس به ونعرفه تماما . . ولكننا لا نراه بحواسنا . . ان الانسان مهما قال في شرح أسباب الحب والكراهية لا يستطيع أن يصل الى الحاسة التي تسبب الحب . . أو التي تسبب الكراهية . . فهذه الحاسة لا تدخل ضمن الحواس الخمس . . التي يتصل بها الانسان بالعالم الخارجي . . أو التي تحدد علاقة الانسان بالعالم المادي . . ومن هنا فان العلماء حريصون حينما يتحدثون عن الحواس أن يقولوا ان هذه الحواس هي التي توصل الانسان بالعالم الخارجي . . وان الانسان له ملكات وغرائز وشعور وإلهام . . وأشياء اخرى في داخله توصله بداخل النفس البشرية . . وتؤثر في هذه النفس . .

والذي لا يخضع للمنطق أن نحاول أن ننكر أن في داخل الانسان أشياء كثيرة غير الحواس التي توصله بالعالم الخارجي . . وان الانسان يستطيع أن يتصل بالعالم . . بينما ما بداخله يترك بلا اتصال أو احساس معين بل الحقيقة أن الالهام أو الشعور والاحساس بما في داخل النفس البشرية يوجد قبل احساس هذه النفس بما حولها من العالم . . تلك سنة الخلق . . فالطفل الصغير مثلا يحس بالجوع والعطش . . ويعبر عنهما بالبكاء قبل أن يستطيع أن يستخدم حواسه في الاتصال بالعالم الخارجي . . وهو يحس بالحنان والدفء . . والحب والكره . . والقسوة . . والرحمة . . كل هذه الأشياء توجد في داخل نفسه مع دقات الحياة الأولى . . بينما الحواس قد تنتظر أسابيعاً أو شهورا قبل أن تستطيع أن تؤدي مهمتها بشكل يمكن أن يعبر عنه .

واذا درسنا هذه الحواس الداخلية . . نجد أن أقواها هو احساس الانسان بوجود الله . هذا الاحساس الذي قد يفتقر الى شيء من الدقة بالنسبة لعظمة الله وقدرته . . والكون . . ووجوده . . وكل شيء من هذا النوع . . ولكن هذا الاحساس يؤكد وجود قوة داخل الانسان تدفعه الى أن يشعر ويحس بوجود الخالق سبحانه وتعالى . .

أحاسيس النفس :

ولكي أوضح هذه النقطة . . أحب أن أقول ان النفس البشرية التي فيها أحاسيس لا نستطيع أن نحللها بدقة . . ولا أن نصل اليها لنعرف ما هي . . تحس أيضا هذه النفس احساسا يقينيا بوجود الله سبحانه وتعالى . . فاسم الله مثلا هو شيء لا تدركه الحواس الخمس . . لأنه أكبر من قدرتها . . ولكن تدركه حاسة داخل الانسان . . حاسة غير مرئية . . ومن هنا فان كلمة الله هي فوق قدرة الحواس الخمس . نجد أن الأذن تفهمها عندما تسمعها . . ولا يمكن للأذن أن تفهم شيئا لا يوجد أصلا داخل النفس البشرية . . بحيث يكون التصور هنا ليس غريبا تماما . . على هذه النفس . . بل هو معروف لها بشكل قد لا نفهمه نحن . . ولا نستطيع أن نحلله . . ولكنه معروف . . فعندما يذكر لنا أحد اسم الله . . فان الذي يقفز الى عقولنا هو وجود قوة خارقة . . هي التي أوجدت هذا العالم . . وان هذه القوة خارج نطاق العقل . . بل وخارج نطاق الحواس . . اذن . . كيف ندرك وجود هذه القوة . . وكيف يكون اسمها مألوفا عندنا . . وهي خارج نطاق الحواس . . وخارج نطاق العقل . . هنا يأتي ما في داخل النفس . . وهو الالهام . . أو الشعور . . ليقول لنا ان هذه القوة رغم أنها فوق مستوى العقل والحواس . . فانها موجودة داخل النفس . . والنفس تفهم وتحس بوجودها . .

وفي العصر القديم بدأ الفلاسفة . . خصوصا فلاسفة اليونان يبحثون عما وراء المادة . . عما وراء هذا العالم المادي . . عن الخلق . . وعن القوة التي أوجدت هذا العالم . . الى آخر فلسفة اليونان القديمة . . عن ما وراء المادة . . من الذي قال لهم ان هناك شيئا وراء العالم المادي . . يجب أن يدرس كيف عرفوا أن هناك شيئا خلاف المادة . . مع أن الحواس الخمس لا تقول لنا شيئا عن المادة . . ونحن هنا لا نناقش فلسفة اليونان . . وسواء نجحت هذه الفلسفة أو غيرها . . أو فشلت . . موضوع لا يهمنا في هذه الحلقة . . وانما الأمر الذي يهمنا أنهم كانوا مدفوعين لينظروا الى ما وراء الطبيعة . . وأنه كانت لديهم أشياء داخل أنفسهم . . ليست أشياء حواسية . . أي لا تخضع للحواس ليفعلوا ذلك . .

بل ان الانسان منذ فجر التاريخ . . منذ بداية خلقه . . وهو يبحث عما وراء

المادة . . يبحث عنه بطرقه المختلفة . . وهو أحيانا يتخذ سبيلا أو اخر لاظهار خضوعه أو عبوديته لهذه القوة التي هي وراء المادة ولكن المهم في هذا كله . . أن هناك شعورا داخليا في النفس البشرية . . يقول لها ان هناك شيئا وراء الطبيعة . . ان هناك قوة ما وراء هذا العالم . . وان هذه القوة . . هي قوة عظيمة وخارقة . . هناك شعور داخلي في كل نفس بشرية لوجود الله . . تلك القوة التي هي وراء هذا الكون . . هناك شيء داخل النفس البشرية يجعلها تدرك أو تفهم أن العالم المادي الذي تراه لا يمكن إلا أن تكون وراءه قوة خارقة قادرة منظمة قوية . .

العالم والمادة :

ولكن هذا العالم المادي نفسه الذي نعيش فيه . . لا يمكن أن يخلق فينا هذا الشعور . . لا يمكن أن يقول لنا اذا استخدمنا حواسنا فقط أن هناك قوة قادرة قاهرة خلف كل هذا . . اذن لا بد أن هناك قوة أخرى خلاف هذا العالم المادي هي التي وضعت فينا هذا التصور . . وهو أن هناك شيئا خلاف المادة يجب أن يتم البحث عنه . . ومن هنا بدأ البحث والفكر والاتجاه نحو هذه القوة . . ولو لم يكن هناك شعور في داخلنا . . واحساس قوي بوجود هذه القوة لما بحثنا . . ولما وجد كل هذا البحث عبر تاريخ البشرية .

على أن هناك ملاحظة أخرى أحب أن أسجلها . . هي أن الانسان حين يصل الى مرحلة التفكير في وجود الله . . أو المرحلة التي يعقل فيها أن هناك قوة خارقة وراء هذا الكون . . لا بد أن تكون قد مرت فترة من عمره . . فالانسان عادة لا يبدأ في التفكير في مثل هذه الأمور . . والتحدث عنها بعمق دون أن يكون قد تجاوز سن العشرين أو الثلاثين على الأقل . . ليكون لديه نضج العقل الكافي لمناقشة أمر عميق كهذا . . والسؤال الذي يجب أن يطرح هنا . . هو بأي منطق عبد هؤلاء الناس الله . . قبل الوصول الى هذه السن . . وكيف تفهموا كل هذه الفلسفة التي تحتاج الى عقل ناضج . . والى علم ودراسة وتأمل . . حتى يستطيعوا أن يصلوا الى أن هناك شيئا وراء المادة . . ولكننا نجد العقول البسيطة التي لم تقرأ كتابا واحدا . . تعرف أن الله موجود . . وتعبده بفهم . . ونجد أولئك الذين لم يناقشوا هذا الموضوع على الاطلاق . . يعرفون وجود الله . . ويقومون بعبادته . . بل ان أكثرهم يحس بانسجام فطري غريب بأن الله سبحانه وتعالى . . ووجود الكون شيئان

لا بد منها . . وأن وجودها حقيقة داخل النفس . .

ان هذا الشيء نفسه . هذا الذي يوجد داخل النفس البشرية ليؤكد أن هناك شيئا وراء المادة . . وأن هناك قوة كبرى وراء هذا الكون . . دون أن تكون قد وصلت الى سن النضج والدراسة والفلسفة التي تؤهلها لمناقشة هذا الموضوع . . هذا في نفسه دليل على وجود الله سبحانه وتعالى . فلقد عبدوه عن ايمان خلق في قلوبهم . . منذ اللحظة التي يولدون فيها . . وانطلاقا من هذا الايمان عندما نضجوا . . قادوا عقولهم الى التفكير . . وسواء سارت العقول في الطريق السليم . . أو ضلت الطريق . . فالايمان بالله . . والبحث عنه . . ووجود شيء فوق العالم المادي موجود في النفس البشرية . . بالفطرة وليس بالعلم . ولو وجد بالعلم لكان لا بد أن يبدأ عندما يبلغ الانسان سن النضج في التفكير . . ولو كان موجودا بالعلم عندما وصل العلم الى مرتبة العجز . . عجز العقل البشري عن الوصول الى صفات الله وقدراته . . لتركت هذه القضية على أساس أنها فوق قدرة العقل . ولكن بالرغم من أنها فوق قدرة العقل . . فهي قضية مثارة . . وأجهد الناس أنفسهم فيها كل واحد يحاول أن يصل الى وجهة نظره حول هذا الموضوع . .

ومعنى هذا الجدل كله الذي يمضي ولن ينتهي . . ومعنى البحث عن أدلة عن القوة الموجودة وراء العالم المادي معناها أننا نعرف وجود الله بالفطرة . . وأنه يوجد داخل أنفسنا ما يؤكد أن الله موجود والا لما أنهكت النفس البشرية قواها في هذا الجدل . . ولكان العقل البشري يعيش مطمئنا وسعيدا بالعالم المادي . . الذي خلق فيه . . ولا يحاول أن يصل الى أكثر من ذلك

ان الذين اتخذوا الها يعبدونه غير الله . . هم الذين وضعوا منهج العبادة حسب أهوائهم وأغراضهم . . ولكن رسالات السماء حددت للانسان طريق العبادة والطاعة . . وفرق بين عقل يخضع الخالق لحكمه وأهوائه . . وبين اله تخضع له كل العقول وتعجز أمامه . .

والايمان بالله قضية مثارة . . أجهد الناس أنفسهم فيها . . كل واحد يحاول أن يصل الى وجهة نظره حول هذا الموضوع . . ومعنى هذا الجدل كله الذي يمضي ولن ينتهي . . ومعنى البحث عن أدلة عن القوة الموجودة وراء العالم المادي . . معناها أننا نعرف وجود الله بالفطرة . . وأنه يوجد داخل أنفسنا ما يؤكد أن الله موجود . . والا لما أنهكت النفس البشرية قواها في هذا الجدل . . ولكان العقل البشري يعيش مطمئنا . . وسعيدا بالعلم المادي الذي خلق فيه .

ولكننا اذا نظرنا الى أولئك الذين يعبدون المادة . . نجد أن نفوسهم في داخلها قلق رهيب . . رغم ما يحققونه من نجاح في العالم المادي ففي أمريكا والسويد مثلا . . أعلى نسبة في الانتحار في العالم . . مع أن هذا يخالف المنطق والعقل . . فالذي يقوله المنطق . . انه اذا كان العالم ماديا فقط . . وحصل هؤلاء الناس على كل ما تستطيع المادة أن تهبهم اياه . . لكانوا أسعد الناس نفسا . . ولكنهم بشهادة الاحصائيات هم من أشقى شعوب العالم نفسيا . . وأكثرها عرضة للجنون . . لماذا ؟ . . لأنه يوجد في داخل النفس البشرية شيء ما يؤرقهم . . شيء ما لا يحقق لهم الانسجام بين هذه النفس والكون . . شيء ما يحول حياتهم التي فيها كل أنواع الترف الى جحيم نفسي . . ذلك الشيء هو عدم الايمان . . انه يورثهم أشياء كثيرة . . تحطم النفس تحطيما . . لماذا ؟ . . لأن الانسان هنا منسجم مع الكون بحواسه الخمس . . التي يتصل بها . . بهذا الكون المادي . . ولكنه

ليس منسجما مع نفسه في فطرتها التي خلقت عليها في عبادة الله . . والايمان به . . ومن هنا فانه رغم انسجامه مع الدنيا . . شيء داخل نفسه . . لأن هناك شيئا داخل هذه النفس . . يؤرقه . . لا يعطيه الحياة الامنة المطمئنة . . ذلك الشيء هو الايمان . . بينما نجد أن هناك نفسا بسيطة . لا تعطيها الدنيا كثيرا . . ولكنها تعيش في اطمئنان غريب . . حياتها حلوة . . قلبها سعيد . . عيشتها مطمئنة . . يضيء داخلها نور الايمان بالغد . . ولا يدخل اليها ظلام اليأس والقلق . . تلك النفس رغم أنها غير منسجمة مع العالم المادي في أنه لم يعطها كل ما تطلب . . انما هي منسجمة مع داخلها بالايمان بالله . . وهذا الانسجام يأخذ منها كل الشقاء الذي يقود الى الجنون والانتحار . . ويدخل فيها الطمأنينة . . ويمنحها الحياة السعيدة .

اذن فانسجام النفس مع العالم المادي . . قد يورثها شيئا من الحرمان . ولكن عدم انسجام النفس مع داخلها . . يحطمها تماما . . ويقضي عليها . . ولذلك كما قلت فان الايمان بالله هو من أقوى ما نسميه الفطرة . . أو الالهام . . أو الاحساس الداخلي الذي يجعل الانسان منسجما مع داخل نفسه . . مطمئنا في حياته . . وعدم الايمان يحطم الانسان نفسيا . . رغم ما يحيط به من نعيم مادي . . وهنا يكون الشعور الفطري الذي يولد مع النفس البشرية . . بأن الله موجود . . وأنه خالق كل شيء . . ومدبر كل شيء . . يكون هذا الاحساس هو أقوى احساس في داخل النفس وخارجها . . فلا يستطيع أن يعوضه الكون المادي . . وكما يمنحه للنفس البشرية . . ولا تستطيع أن تعوضه الأحاسيس الأخرى التي تولد داخل النفس البشرية . . ونسميها الفطرة . . كالحب والكره . . والجوع . . الى آخره . . تلك الأشياء التي مهما تحدثنا عن أسبابها ومصدرها . . لا نستطيع أن نصل الى الحاسة التي تسبب هذه الأشياء . فلا أحد يستطيع أن يصل الى الحاسة التي تسبب الكره . . أو التي تسبب الحب . . أو التي تسبب الحنان . . الى آخر هذا . . ومن هنا فان الايمان بالله يولد فينا بالفطرة . . ثم بعد ذلك نحاول أن نخضعه لتفكير العقل . . وهنا يحدث التصارع .

ولكن اذا كان يوجد داخل أنفسنا ما يؤكد وجود الله . . فما الذي أوجد هذا القلق في العالم . . وما الذي أوجد المذاهب المتضاربة . . ولماذا يحاول بعض الناس أن يثبت

وجود الله . . وبعض الناس أن ينكر وجود الله . ما سبب هذا التضارب العجيب الذي نراه . . ما دامت النفس البشرية يوجد فيها بالفطرة ما يؤكد وجود الله . .

الحقيقة أن الذي صنع هذا هو أن الفلاسفة وكل من حاول أن يخوض في هذا الموضوع . . وضع الخيال مكان المنطق . . ووضع التصور مكان التفكير . . ومن هنا فان العقل البشري في محاولته آن يخوض فيما هو أكبر من قدراته . . لم يستطع أن يقدم ما يريده . . فانطلق الى الخيال .

وأريد هنا أن أضرب مثلا يوضح ذلك . . اذا أقفلنا باب هذه الحجرة التي نجلس فيها . . ثم طرق أحدهم الباب فكلنا يعرف أن هناك شخصا ما هو الذي طرق الباب . . هذه قدراتنا . . وهذه نقطة لا خلاف عليها . . فاذا بدأنا نسأل أنفسنا . . من الذي طرق الباب . . هل هو رجل أو امرأة . . قصير أم طويل . . أبيض أم أسود . . عربي أم أعجمي . . هنا تبدأ الخلافات . . لماذا ؟ . . لأننا لا نحكم المنطق . . ولكن نحكم الخيال . .

وهذا هو ما حدث بالنسبة للفلاسفة . . لقد أرهقوا أنفسهم في تخيل الله . . مع أن هذا التخيل . . وما يستطيع أن يهبه هذا العالم من مال وأمان . . الى آخر ذلك . . ولعل أكبر دليل على ما أقول . . أنه في أكثر الدول المتقدمة ماديا . . أعلى نسبة من الانتحار والجنون . . خارج عن نطاق العقل البشري . . ومستحيل . . ذلك لأننا لكي نتخيل شيئا ما . . فان هذا الشيء يجب أن يشبه شيئا في قدرات العقل . . فأنت حين تريد أن تشرح شكلا معيناً لإنسان . . ولا يستطيع أن يفهمك . . تقول له : انه شيء يشبه الكرة مثلا . . وحينئذ تكون قد نقلت هذا التصور من خارج قدرة العقل البشري الى داخلها . . فاستطاع الانسان أن يتصور ذلك الشيء . . ولكن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء . . اذن كل ما سيقوله الفلاسفة هو من باب التخيل الذي لا يمكن أن يدركه العقل . . ولا يخضع لمنطق . . ومن هنا فاننا لو حكمنا المنطق لما اختلفنا . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بنفسه عما يريدنا أن نعرفه عنه . . وعن عبادته . . ولكننا نريد أن نتجاوز ذلك . . الى أشياء ليست في قدرة العقل البشري . . . فنضيع . . ولو أننا تمسكنا بما قاله لنا الله . . لكان في ذلك المنطق السليم . .

اذن فان ما نؤكد وجود الله . . موجود في قلوبنا بالفطرة . . وطريقة عبادة الله وطاعته . . وكل ما نريدنا أن نعرفه عنه موجود في رسالاته التي أرسلها بواسطة أنبيائه المختارين . . فالمنطق يقول اننا نتبع هذه الرسالات . . والخيال يقول : اننا نبحث عما فوق قدرات العقل . . في غيبيات حجبت عنا . . فنضيع ونتوه . . ذلك أن العقل له وظائف . . ليست من بينها عالم الغيب .

على أن رسالات الله سبحانه وتعالى للبشر . . هي في حقيقتها أكبر دليل على وجود الله . . ذلك أنه اذا كانت هناك قوة عليا . . قوة قاهرة قادرة . . تحكم هذا الكون . . وهي التي خلقته فان العقل لا يستطيع أن يصل الى هذه القوة . بمعنى أنه لا يستطيع أن يعرف ماذا يرضي هذه القوة . . وماذا يغضبها . . وكيف يقوم بالعبادة والشكر لها . . ذلك أن الله فوق قدرة العقل البشري . . ومن هنا كان لا بد أن تأتينا تعاليم العبادة من الله سبحانه وتعالى . . أي أن يقول لنا الله . . كيف نعبده . . فالانسان حين يعبد الله تتم العبادة بالطريقة التي يحددها الله لعبادته . . أما اذا ترك ذلك للعقل البشري . . فان كل انسان سيحدد لنفسه طريقا يعبد به الله حسب قدراته وفهمه . . وتتضارب الطرق . . وتختلف . . بل وتتناقض مع بعضها البعض . . فكيف يحدد المخلوق الطريقة التي يعبد بها خالقه . ان هذا انتقاص لقدرات الله وعظمته . . ومن هنا كان لا بد أن يعرف الانسان طريقة عبادته لله . . عن الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا نزلت الرسالات السماوية يقول الله للانسان : إنني أنا الله واذا أردت أن تعبدني فافعل كذا تدخل جنتي . . واذا عصيتني وفعلت كذا وكذا فسيصيبك عذابي . . وأنا أحدد لك طريق العبادة حتى لا تضل ولا تضيع . . كان لا بد للرسالات السماوية أن تهبط الى الأرض . . الى الانسان لتدله على الخير والشر . . والايمان والكفر . . وتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود . . .

ارسال هذه الرسالات في ذاته معجزة . . ذلك أن كل من عبد غير الله سبحانه وتعالى لم تصله رسالة لتبلغه طريق العبادة . . بل هو الذي اخترع هذا الطريق بعقله . فالذين عبدوا الشمس مثلا . . لم تصلهم رسل من الشمس تقول لهم اعبدوني بطريق كذا وكذا . . وافعلوا كذا ولا تفعلوا كذا .

بل هم الذين حددوها حسب أهوائهم . . وكذلك الذين عبدوا النار . . وكل من عبد شيئا آخر غير الله . . ولكن الله سبحانه وتعالى الذي هو فوق كل القدرات . . وفوق كل العقول أرسل الرسالات الى البشر ليحدد لهم هو الطريقة التي يعبدونه بها . . ومن هنا كان الفارق بين عقل يخضع الخالق لحكمه وأهوائه . . وبين اله تخضع له كل العقول وتعجز أمامه .

الانسان وقدرات الكون

« كل القوى التي خلقها الله للانسان هي أكبر منه كثيرا ولكنها مسخرة لخدمته . . فالشمس لا تستطيع أن تقول لن أشرق اليوم . والمطر لا يستطيع أن يتوقف عن مد الأرض بالماء . . والرياح لا تستطيع أن تختفي . . ذلك أن هذه القدرات الهائلة رغم أنها أكبر من البشر . . فانها مسخرة لخدمته » .

وان الله سبحانه وتعالى قد أخبر عباده بما يريد أن يعرفوه عنه . . حيث أنه سبحانه وتعالى فوق كل العقول . . وليس كمثله شيء .

ومن هنا فان ما ورد في الرسالات السماوية عن الله سبحانه وتعالى . . ومن خلال ما أتاحه الله للعقل البشري أن يعرفه عنه . . وضع الله معجزات في القرآن تدل على أنه الخالق . . وتنبيء الانسان بأشياء لم تكن متاحة للعقل البشري وقت نزول القرآن . . ولكنها بدأت بعد ذلك بالتدريج تدخل بعلم الله الى نطاق العقل البشري . . أي أن الله سبحانه وتعالى حين أنزل كتابه أراد أن يكون هناك عطاء فيه لكل جيل . . حتى قيام الساعة . . فالقرآن حينما نزل . . أعطى الذين عاصروه . . ثم أعطى الجيل الذي بعده . . ثم الجيل الذي بعدهم . . ثم جيلنا هذا . . ثم بعد ذلك هو سيعطي الأجيال القادمة . . وكل عطاء مختلف . .

ولكن يجب أن نفرق بين شيئين في الاسلام . . الشيء الأول هو : الفرائض وأحكام الدين . . والشيء الثاني هو ما يحتويه القرآن من معجزات وآيات . . وأشياء عن الكون . . وعن الخلق . . وعن كل ما احتواه القرآن من معان جامعة شاملة . .

الجزء الأول وهو المناسك . . أو طريق العبادات وكيفيتها . . هذا الجزء لا تبديل فيه ولا تمعن . . ولا تفسير . . واعادة تفسير . . وانما يجب أن يؤخذ وينفذ كما

أخذ ونفذ . . وفسر . . في عهد النبي ﷺ . . أي أن الصلاة مثلا . . لا يجوز لأي فرد مهما بلغ من العلم أن يبدل فيها . . وما يقال عن الصلاة . . يقال عن الصوم . . يقال عن كل فروض العبادة . . تلك الفروض قد أنزلت وفسرت . . وتم بيانها للناس وقت نزول الرسالة . . وهي تبين لنا كيف نعبد الله كما يريد الله سبحانه وتعالى أن يعبد .

أما الجزء الثاني وهو عطاء القرآن . . فكلما مر الزمن وجدنا للقران عطاء جديدا . . في أشياء أو حقائق كونية كانت غائبة عنا . . ثم دخلت الى منطقة العلم البشري بارادة الله . . فأصبحنا نعيها ونفهمها . . وهنا أجد أن القران لا يتصادم أبدا مع حقائق الكون . . ولا يمكن أن ينشأ أي نوع من التصادم . . ذلك لأن الله هو القائل . . والله هو الفاعل . . والله هو الخالق . .

على أن هناك نقطة الغيب . . أو منطقة الغيب . . تلك التي اختص الله سبحانه وتعالى بها نفسه . . أو من ارتضى من رسله وعباده . . وتلك النقطة هي خارج العقل البشري . . أو فوق طاقة هذا العقل . . واذا دخلنا فيها . . تاهت العقول . . وانتقلت من الواقع الى الخيال . . وهنا تضل وتبتعد عن الحقيقة .

ولقد أجهد الفلاسفة أنفسهم على مر السنوات في الوصول الى وجود الله . . محاولين استخدام العقل بدلا من الرسالات السماوية التي أنزلها الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا فانهم أرادوا أن يستخدموا العقل فيما لم يخلق له . . ذلك أن العقل له وظيفة . . أو وظائف في الحياة . . ليس من بينها أن يصل الى وجود الله بعيدا . . أو غير مستخدم الرسائل . . أو الرسالات التي أنزلها الله لعباده . . فهذه الرسالات قد وضع فيها الله سبحانه وتعالى الأدلة وبين فيها ما هو في قدرة العقل البشري . . منذ يوم خلقه . . الى يوم القيامة . . ولكن الفلاسفة يريدون أن يتجاوزوا هذا . . بأن يقدموا للعقل البشري ما هو فوق طاقته . . هذا مستحيل . . فأنت حين تريد أن تجعل انسانا يفهم شيئا . . يجب أن تدخله في قدرة العقل البشري أولا . . فاذا وصفت له شيئا غامضا مثلا . . فان العقل لا يمكن أن يفهمه . . ولكنك لكي تدخل هذا الشيء في نطاق الفهم العقلي . . فأنت تحاول أن تقربه من شيء يفهمه . . كأن

تقول مثلا . . انه شيء يشبه الجدد . . حينئذ فانك نقلت هذا الشيء من خارج نطاق الفهم العقلي . . الى داخل هذا النطاق . . واستطعت ان تجعل محدثك يفهم عن أي شيء تتحدث ولو أن الفلاسفة ألزموا أنفسهم بالمنطق والحقيقة . . لما كانت هناك مشكلة . . ولكنهم رفضوا ذلك بل أرادوا هم أن يحددوا أشياء لا تدخل في نطاق الحقيقة والمنطق . باستخدام الخيال الذي لا يعتمد الا على الهوى . . ولقد قال لنا الله في رسالته هذا هو الطريق الى عبادتي . . وشرحه لنا . . وبين لنا الثواب والعقاب . . وهذا دليل قوي على وجود الخالق . . ذلك أن الذين يعبدون الشمس والأصنام . . أو أي شيء غير الله . . فان هذه الأشياء لا ترسل لهم رسالات تقول لهم . . أو تبين لهم . . أو تعلمهم طرق العبادة . . ولذلك لم نسمع عن رسول أرسلته الشمس ليهدي الناس . . مع أن الناس عبدوا الشمس . . ولم نسمع عن رسول أرسله صنم ليهدي الناس . . مع أن الناس عبدت الأصنام . . والأحجار . . والحيوانات . . وكل شيء في هذه الدنيا عبد بطرق ابتدعها الناس أنفسهم حسب أهوائهم . .

واذا حكمنا المنطق وحده . . والعقل وحده . . فان الاثنين معا لا يقولان لنا أن ندخل في أشياء هي فوق القدرة البشرية . . بالرغم من ذلك . . فان الانسان رغم عجزه يحاول أن يخترق هذه الحجب . . بطريق الجهل . . وليس العقل . . ومن هنا فاننا لا نجد أي مدرسة فلسفية حاولت أن تخترق الحجب الى ما وراء المادة . . أو الى العالم غير المادي . . قد وصلت الى نفس النتائج التي وصلت اليها مدرسة أخرى . . بل ان كل مدرسة تصل الى نتيجة قد تكون مخالفة . . أو مناقضة للمدرسة الأخرى . . ولم تصل مدرسة من هذه المدارس الى نتيجة تقبلها كل العقول . .

ومن هنا . . فان الرسالات السماوية قد حملت الينا فوق الاثبات بوجود الله الأدلة على عدم وجود اي شريك لله سبحانه وتعالى في هذا الكون . . فهي أوجدت الدليل على وحدانية الله سبحانه وتعالى . . وانه لا اله غيره . . وأن الله أحد . . ليس له شريك . . وذلك حتى لا يدخل الى العقل البشري أن هناك وجودا لأكثر من قوة كبرى خلقت هذا العالم وأوجدته . . وأوجدت كل شيء فيه . . وأعطت العلم

للانسان ليسود في الأرض .. ومن هنا فهي نفت أن يكون هناك اله للسماوات .. واله للأرض .. واله للريح .. واله للنجوم .. الى آخر ما كان يتصوره العقل البشري في القرون الماضية .. وما زال بعض الناس يتصورونه حتى الآن .. بل انها قالت انه رغم أن القوة في العالم مختلفة .. أو موزعة .. فهناك الشمس مثلا بقدراتها على الإنارة .. وعلى الدفء .. وعلى انماء الزرع .. وعلى احراق من يقترب منها .. كل هذه القدرات التي هي موجودة في الشمس .. بحيث اذا اختفت الى الأبد أصبحت الحياة مستحيلة .. وهناك قدرات أيضا في الريح والعواصف .. تدمر .. ثم هي تنقل السحاب من مكان الى اخر .. وتبقي الحياة على الأرض بما فيها من مواد لازمة لحياة الانسان كالاوكسجين مثلا .. بحيث اذا اختفت الريح من الأرض .. وانعدمت .. أصبحت الحياة مستحيلة .. وهناك مثلا الأمطار التي تعطي الأرض مصادر المياه .. والله خلق من الماء كل شيء حي .. اذا توقفت الأمطار .. جفت الأنهار .. وانعدمت الحياة على الأرض .. وهناك الأرض نفسها التي يعيش فوقها الانسان .. انها هي الأخرى قوة أو قدرة من قدرات الله .. اذا انفجرت هذه الأرض .. وتحطمت .. وتناثرت .. فان الحياة تصبح مستحيلة ..

كل هذه القوى .. وغيرها هي قوى .. أو قدرات .. تؤثر في حياة الانسان تأثيرا جذريا .. بل ان اختفاءها عن الكون قد يجعل الحياة منعدمة .. ولكن هذه القوى والقدرات .. وغيرها .. قدرة العلم .. في اختراع أسلحة مدمرة مثلا .. تستطيع أن تفتت الكون .. أو تلوث الكون .. فتنفى الحياة من على الأرض تماما .. كل هذه القدرات أو القوى ليست في ذاتها آلهة .. وليست هي التي تصنع أي شيء .. بل هي مسخرة لخدمة الانسان .. والذي سخرها هو الله سبحانه وتعالى .. فالشمس ليس لها ارادة مثلا تستطيع أن تقول : اليوم سأشرق .. وغدا لن أشرق . لن أرسل أشعتي الى الأرض اليوم .. بل سأحجبها عنها .. وأرسلها غدا .. الشمس لا تملك هذه القدرة .. لماذا ؟.. لأن الله سبحانه وتعالى خلقها وسخرها لهدف معين .. ومن هنا فهي تقوم بوظيفتها فقط .. ولا تملك .. رغم أنها قوة قادرة هائلة . لا تملك هذه الشمس التحكم في هذه القوة . بل هي مسخرة لأداء

وظيفة معينة لن يعطيها الله العقل لتفكر وتختار .. ولكن أعطاها الوظيفة والقوة .. والقدرة لتعمل لما خلقت من أجله ..

وما يقال عن الشمس .. يقال عن الريح .. وعن الأصنام .. وعن كل القوى الموجودة في العالم .. فلا الريح تستطيع أن تترك الأرض مثلا وتذهب بعيدا .. أو أن توقف حركتها .. ولا الأرض تستطيع أن ترفض الدوران حول نفسها .. ولا أي من هذه القوى التي سخرها الله للانسان تملك لنفسها أن تخرج عن الوظيفة التي سخرها الله من أجلها .

بل ان الله سبحانه وتعالى سخر ما في السماوات والأرض للانسان .. فنجد مثلا حصانا قويا جامحا .. يستطيع بقوته أن يقتل عدة أشخاص .. يستطيع أن يفتك بهم .. ومع ذلك نجد طفلا صغيرا لم يبلغ العاشرة من عمره .. يمتطي هذا الحصان .. ويقوده الى حيث يريد .. والحصان يمضي به .. ويطيعه .. فيطلب منه أن يرقد باشارة معينة .. فيرقد .. ويطلب منه أن يتوقف فيتوقف .. ويقوده الى حيث يريد .. وأنت تقول ان هذا الطفل فارس ماهر .. هذا وجهة نظر العلم الأرضي .. ولكن الحقيقة التي يجب أن نتذكرها .. أن الله هو الذي سخر هذا الفرس بكل قدراته العضلية التي تستطيع أن تمزق هذا الطفل اربا .. سخره لخدمة الانسان .. ولخدمة هذا الطفل .. ولو أن هذا الحصان غير مسخر .. وله فكر .. ويستطيع أن يتصرف .. لما استطاع طفل أو رجل مهما كانت قوته أن يمتطيه .. وأن يجعله يفعل كما يريد ..

هذه حقيقة كونية .. صحيح أن لركوب الحصان مثلا أو الجمل .. أو أي حيوان آخر طرقا معينة .. يجب أن يتعلمها الانسان .. فتلك سنة الحياة .. ولكن كل هذه القوى مسخرة أولا للانسان .. ولو لم تكن مسخرة له .. لما استطاع أن يقترب منها .. رغم كل علوم الأرض .. وما تستطيع أن تهبه .

وما يقال عن الحصان .. يقال عن الابل .. والبقر ..

اذن كل القوى في هذا الكون سخرها الله لخدمة الانسان .. وقال الله سبحانه

وتعالى لنا في رسالاته أنا الله أقول لكم انني خلقت في هذا الكون قوى خارقة أكبر منكم وأقوى . . وأشد لا تستطيعون السيطرة عليها . . ولا اخضاعها بعلمكم لتكون في خدمتكم . . فأنتم لا تستطيعون ان توقفوا حركة الشمس . . أو حركة الأرض . . أو حركة الريح . . وأنتم لا تستطيعون أن تسيطروا على غيركم من مخلوقاتي . . ولكني سخرت هذا كله لكم . . وجعلته في خدمتكم ليصنع لكم الحياة على الأرض . . بإذني وبأمري . . وجعلت هذه الأشياء مسخرة ليس لها عقول تفكر بها . . لأقول لكم إنني أنا الله خالق كل شيء . . وهذا هو خلقي أمامكم . كل هذه القوى تخضع لي أنا . . وأنا جعلتها في خدمتكم . . جعلتها مسخرة لكم .

هذا ما قدمه الله في كتابه ليتدبر فيه الانسان . . في وجود الله . . ومع ذلك فان الانسان يترك هذا الكتاب . . ويذهب الى ما لا يعرفه . . ويحاول أن يتفلسف بعقله . . ويخلق من خياله أشياء عن الكون . . وكأنما لا يكفيه ما أعطاه الله له مما يستطيع أن يعمل فيه العقل البشري سنوات وسنوات طويلة . .

ومن هنا فان دخول العقل البشري في منطقة لا يعلم عنها شيئا . . وتركه ما أعطاه الله له . . مما يدخل في قدراته . . تبدأ المدارس الفلسفية المختلفة كلها تبحث عن الله . . بعيدا عن الله . .

الأسماء والمعانـي

اذا قلت كلمة بلا معنى . . فان العقل لا يفهمها . . فالانسان لا يستطيع أن يعقل الا ما يعرفه . . فاذا قلت كلمة « الله » وجدتها في كل لغة من لغات العالم . . ووجدت معناها واحدا في العقول . . انه القوة القاهرة التي خلقت كل شيء . . ولكننا لم نر الله . . ومع ذلك فان العقل يعرفه . .

كل ما في الكون مسخر للانسان . . هذه هي الحقيقة التي أعلنها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز . . وهذه هي الحقيقة التى نجدها في الكون . . فهناك أشياء كثيرة أكبر من قدرة الإنسان . . ومن قوته ملايين المرات . وتستطيع أن تدمره تدميرا . . ومـع ذلـك فـهـي مـسـخـرة لخـدمـتـه . . فـالـشـمـس والأرض . . والرياح . . والمطر . . والحيوانات . . والأنعام وكل ما في الأرض . . هو ليعطي الانسان الحياة عليها . . وييسرها له . . ولكن أحدا من هؤلاء جميعا لا يملك الارادة ليقول انني لن أخدم الانسان اليوم . . أو إنـني سأعصي أمر الله . . بأن أكون مسخرا لخدمة الانسان . . فلا الشمس مثلا تملك الارادة . . لأن تقول انني لن أشرق هذا الصباح . . أو انني لن أرسل أشعتي للأرض اليوم . . ولا المطر يملك أن يقول انه لن ينزل ليسقي الناس الماء . . ولا الهواء يملك ان يقرر أن يبتعد عن الأرض ويحرمها من الأوكسجين اللازم للحياة . . ولا الأرض نفسها تستطيع أن تتوقف عن الدوران . . أو تلقي بمن عليها . . ولا الفرس أو الجاموس . . أو الجمل على قدر قوتها تملك عصيان الخضوع لطفل صغير ضعيف يستطيع أن يقودها الى اي مكان يريده . . تلك القيادة والسيطرة من الطفل على هذه الحيوانات القوية . . لا تأتي بأنه أخضعها بقوته هو . . ذلك أن قوته عاجزة أمامها تماما . . ولا وجه للمقارنة . . ولكن الخضوع هنا يأتي بارادة الله الذي سخر هذه الأشياء للانسان في الأرض . .

والانسان قد عبد قوى كثيرة في العالم . . على أساس أن هذه القوى آلهة . . .

وبعض الناس عبدوا الشمس . . وبعض الناس عبدوا النار . . وبعض الناس عبدوا الأصنام والأحجار . . الى غير ذلك . . وقد جاء القران ليؤكد أن الله أحد . . لا شريك له . . وأنه ليس هناك اله في السماء واله في الأرض . . واله للريح . . واله للنجوم . . لأن كل هذه الأشياء مسخرة للانسان . . ولخدمة الانسان . . ومن هنا فانه اذا كانت هذه الأشياء لا تملك الارادة لنفسها . . فانها بالتالي لا تملك السيادة على غيرها . . ومن هنا فانها خاضعة لقوة كبرى . . هي الله سبحانه وتعالى . . وأنها كلها ايات من ايات الله سبحانه وتعالى تدل على وجوده . . وعلى عظمته . . وقدرته . . وقوته . .

بل إن الذين يكفرون بالله . . وينكرون وجوده . . هم في الحقيقة يثبتون أن الله سبحانه وتعالى موجود . . ذلك أن قولهم بأن الطبيعة هي منشأ الأشياء . . ومحاولاتهم انكار وجود الله سبحانه وتعالى . . تعني أنهم يحاولون انكار شيء موجود . . اذ ان الشيء غير الموجود لا يحتاج الى أي جدل . . أو انكار . . ولا يكون موضع سؤال . . فكيف يطرح على العقل انكار شيء غير موجود . . ما دام هذا الوجود أصلا غير حقيقي . . ان الجدل يحدث عادة حول شيء موجود . . فهذا يؤكده . . وذاك ينكره . . ومن هنا بعض الجدل . . والجدل الذي يثيره الكافرون حول هذا الموضوع . . أساسه شعورهم بالفطرة . . بأن الله موجود . . ثم محاولتهم انكار ذلك باستخدام الهوى والأغراض الشخصية . . لأنهم يريدون أن يخضعوا شريعة الله لأهوائهم . . فمثلا الجدل الذي يثار حول : هل الأرض كروية . . أو الأرض مسطحة . . أساسه أننا نرى أمامنا الأرض مسطحة . . ثم يأتي العلماء بعد ذلك ليقولوا ان الأرض كروية . . وينفي بعض الناس هذه الحقيقة . . اذن فالجدل هنا نتج عن أن الشيء نفسه موجود . . وأن هناك حقيقة تعرفها أذهاننا . . فالأرض موجودة . . وعيوننا تراها مسطحة . . ولكن لو لم تكن الأرض موجودة أصلا . . لما نشأ الجدل أبدا عن : هل الأرض كروية أم مسطحة . . اي ان الأصل في انكار الشيء هو وجوده أولا . . فوجود الأرض ذاتها . . ثم وجودها أمامنا منبسطة . . بدأ معه انكار كروية الأرض . . وكانت نقطة البداية . . فلو أن امرأة مثلا ليس لها أطفال . . لا تجد انسانا يقول لك ان هذه المرأة عندها أطفال . . وأخر يقول لك لا . . ويثور جدل حول هذا الموضوع . . ذلك أن أحدا لا يدخل في جدل . . عن شيء غير موجود . .

ولكن هب أن هذه المرأة لها طفل . . وتخفيه عن عيون الناس . . بعض الناس رأوه . . وبعض الناس لم يروه . هنا يبدأ الجدل هذا يؤكد . . وهذا ينفي . .

اذن الأصل في حدوث جدل حول شيء هو وجوده أولا . . والأصل في محاولة الكافرين انكار الألوهية وانكار وجود الله هو احساس بأن الله موجود . . وان هذه حقيقة واقعة . . وهم يحاولون نفيها . . لأنها لا تصادف أهواءهم . . والعجيب أنهم في محاولتهم لهذا النفي أو الانكار لا ينتبهون الى أشياء تكذبهم . . فمثلا اسم الله تجده في كل لغة من لغات العالم . . بل ان الاسم . . اسم الله سبحانه وتعالى في جميع اللغات له معنى واحد . . وهو الله خالق هذا الكون . . وخالق الانسان . . وخالق كل شيء . . فمن الذي أوجد هذا المعنى الموحد لهذه الكلمة في كل الدنيا . . وبجميع اللغات التي ينطق بها اي بشر . . وكيف يمكن أن يحدث ذلك وهناك من ينكرون وجود الله سبحانه وتعالى . . كيف يمكن لقوة كبرى لها اسم في كل لغة ينطق بها أي لسان . . وهذا الاسم في معناه . . وفي قدراته موحد في جميع أنحاء العالم . . ومع ذلك فهناك من ينكر الوجود أصلا . . ويجادل في ذلك . . ومن الذي وضع الاسم على كل لسان بهذه الصورة . . ومن الذي وضع معناه في كل العقول التي تنطق به . .

واذا دققنا في علم اللغة . . وصلتها بالانسان . . فان أهم ما يدرس الآن بالنسبة لاستخدام اللغة . . هو اتصال الكلمات بالعقل . . وهذا الاتصال هو الذي يعطي التأثير الفكري للكلمة في ذهن الانسان . . أي أن المعنى يكون موجودا أصلا في الذهن . . وتأتي الكلمة لتبرز صورة هذا المعنى الى العقل . . فاذا قلنا منزل مثلا . . فان له معنى معينا في عقولنا . . هو مكان يقيم فيه الناس . . مكون من عدة حجرات . . الى آخر ذلك . . ومن هنا فانه اذا ذكرت الكلمة . . قفز المعنى الموجود أصلا في العقل . . لتكون مقبولة . . أما اذا قلت كلمة بلا معنى لم يلحظها العقل . . ولم يعرف وجودها جيدا . . كأن تأتي لرجل عاش في أرض سهلة لم ير جبلا في حياته . . ثم تقول له كلمة جبل . . انه لا يستطيع أن يتصور ما معنى جبل . . ولا يفهم شيئا . . ذلك أنه لم يعقل هذا الشيء الذي تتحدث عنه أو تقوله له . . ومن هنا فهو لا يفهمه . . ولا يعرفه . . لأنه لم يدخل الى عقله أولا . . ولكنك اذا قلت كلمة الله . . فان العقول كلها تفهمها . . على أنها تلك القوة القادرة . .

القاهرة . . التي خلقت الدنيا كلها . . ولكننا لم نر الله . . فكيف نفهم هذه الكلمة . . لو أن الله غير موجود فينا بالفطرة . . وغير موجود في عقولنا ونفوسنا . . لما فهمناها أبدا . . ولما أخذت هذا المعنى العالمي الذي ينسجم مع النفس البشرية . . ان يقيننا بوجود الله هو الذي يجعلنا نفهم هذه الكلمة . . ووجود الله فينا بالفطرة هو الذي يجعلها تدخل الى عقولنا لأن أي كلمة لا يمكن أن تكون مفهومة الا اذا كان معناها ومدلولها موجودين في العقل البشري أولا . . بل ان وجود هذا المعنى يجب أن يسبق الكلمة نفسها فأنت لا تستطيع أن تحدث أحداً بكلمة جبل . . ويفهم ما تقول . . أو بكلمة « قوي » ويفهم ما تقول . . الا اذا كان المعنى موجودا أولا في عقله . . قبل أن تنطق بالكلمة . . فالمعنى يوجد أولا . . ثم بعد ذلك توجد الكلمات الدالة عليه . واذا راجعنا قواميس اللغة في جميع أنحاء العالم . . نجد أن الكلمات الموجودة فيها هي لأشياء موجودة أصلا . . وان هذه القواميس تراجع كل عام لاضافة أسماء لأشياء وجدت . . ولم تكن موجودة في العام الذي قبله . . وذلك يعني أن الشيء يوجد أولا ثم بعد ذلك يعطى تسمية . . بل ان هذا في حياتنا اليومية . . ملحوظ في كل شيء . . فهناك أسماء كثيرة في اللغة تضاف الى القواميس كل عام . . وهناك علماء متخصصون يجتمعون في مجمع اللغة . . ليضعوا أسماء لمعاني أو لأشياء وجدت . . ولم تكن موجودة . . اذن فالأصل ان يوجد الشيء أولا . . ثم يضع الانسان له الاسم. .ووجود اسم الله سبحانه وتعالى في جميع لغات الأرض. . وبمعنى موجود في جميع أذهان البشر . . دليل على أن الله سبحانه وتعالى موجود قبل أن توجد البشرية نفسها . . وقبل أن ينطق لسان بأي لغة . .

وبهذا نكون قد وصلنا الى حقيقتين هامتين . . الحقيقة الأولى أن نفي الشيء لا يمكن أن يكون مطروحا الا اذا كان الشيء نفسه موجودا . . والثاني أن معنى أي شيء يجب أن يكون سابقا لاسمه . .

الحقيقة الثالثة التي وصلنا اليها . . أننا اذا أردنا أن نعرف شيئا عن الله سبحانه وتعالى . . فاننا يجب أن نصل الى العلم الصحيح عن طريق ما أعطاه الله لنا . . مما يريدنا أن نعرفه عنه . . وألا نترك ذلك . . وندخل في متاهات الفلسفة التي تحاول استخدام العقل . فيما هو فوق قدرة العقل . . وبذلك تضل ولا تصل الى حقيقة . .

فاذا أردنا أن نزداد قربا من الله . . ومعرفة به . . فيجب أن نتجه الى رسالات السماء التي أرسلها الله سبحانه وتعالى للبشر . . ليخبرهم بها عما يريد سبحانه وتعالى أن يعرفوه عنه . . وعن هذا الكون . . وعن الخلق والكون . . والحياة والبعث . . ذلك أن هذه الرسالات هي الطريق الوحيد لهذا العلم . .

يقول الله سبحانه وتعالى في قرآنه . . انه خلق آدم . . خلق الانسان . . وآدم هذا من خلق الله سبحانه وتعالى . . لم يخلقه طفلا له أب وأم . . وينمو . . كما هو الحال في المخلوقات البشرية التي نمت من سلالة آدم . . ولكنه خلقه رجلا كامل الرجولة . . رجلا لم يكن طفلا في حياته في يوم من الأيام . . ووجد آدم نفسه مخلوقا من الله سبحانه وتعالى . . رجلا كامل النمو . . تسجد له الملائكة . .

وقال لنا القرآن ان ادم خلق من تراب . . ومن هنا فان آدم في خلقه هذا لم يكن رجلا له ماض معروف . . بل لم يكن رجلا بلا ماض . . دخل الى الوجود بقدرة الله . .

ثم قال الله سبحانه وتعالى . . ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ . . هنا قول الله سبحانه وتعالى هو منشأ العلم البشري . . فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية أخبرنا أن العلم البشري . . أو العلم الذي أعطيته لكم أيها البشر . . يجب أن يبدأ بالطريقة التي وضعها الله سبحانه وتعالى . . وهي تعليم الأسماء . . وانني لكي يبدأ العقل البشري الذي وضعته في آدم الحصول على المعرفة . . يجب أن يتعلم أولا الأسماء . .

نأخذ نحن هذه القصة . . ثم نسأل أنفسنا أن الله سبحانه وتعالى قال : ان منشأ العلم الأسماء . . أي ان أي انسان لا يستطيع أن يبدأ التعلم الا اذا عرف معاني الأسماء تماما كما علم الله آدم . . مبتدئا بالأسماء . . نجد أننا بعد مرور أربعة عشر قرنا . . ورغم تطور كل رسائل الدنيا . . عاجزون عن أن نغير هذه الحقيقة التي أعلنها الله في القرآن . . فنحن حين يبدأ العقل البشري خطواته الأولى في طريق العلم . . يجب أن يبدأها بتعلم الأسماء مهما اختلفت طرق التعليم وفلسفاته في العالم أجمع . . فنحن نأتي الى الطفل الصغير ونقول له : هذا كوب . . وهذا سلم . . وهذا طبق وهذه سيارة . . وهذا أسد . وهذا فيل . . وهذه سماء . . وهذه أرض . . ثم بعد ان نعلمه الأسماء يستطيع هو أن ينطلق في

العلم كما يشاء . . ولكننا لا نستطيع . . ولن نستطيع أن نعلم الطفل شيئا قبل أن نعلمه الأسماء . . . لا نستطيع أن نبدأ بتعليمه أية معلومات . . لا تدخل الى عقله الا اذا تعلم معاني الأسماء . . بل ان الطفل يظل لفترة طويلة في حياته بالفطرة . . يتعلم الأسماء . . فاذا خرج طفل مع أمه في نزهة . . فانه يسأل عن اسم هذا . . واسم هذا . . واسم هذا . . واذا جلس في البيت فانه يحاول أن يسأل عن اسم أي شيء غريب يقع عليه نظره . . وكلمة ما هذا التي يقولها الطفل لأبيه وأمه . . هي أكثر الكلمات ترددا في سني حياته الأولى بالفطرة . . لماذا ؟ . . لأن هذا هو منشأ العلم . . مدخل العلم الذي وضعه الله سبحانه وتعالى للعقل البشري . . فاذا كنا بعد أربعة عشر قرنا . . لم نستطع أن نجعل الانسان يتعلم شيئا الا اذا علمناه الأسماء أولا . . والأسماء هذه هي ما علمها الله لآدم . . انطلاقا للعقل البشري . . ليدخل الى العلم والمعرفة . . فاذا كان المدخل من الله . . فهل يكون العلم البشري من غير الله ؟ . .

معنى الوجود

وحينما ندخل المسجد . . نجد عباد الله جالسين معا . . عقول كلها مختلفة في السن والثقافة والفكر والمركز الاجتماعي والطباع والعادات وكل شيء . . ولكنها كلها منسجمة في عبادة الله . . تركع معا . . وتسجد معا وتسبح معا . .

لقد أجهد الفلاسفة أنفسهم على مر سنوات طويلة في محاولة الوصول الى وجود الله . . باستخدام العقل بدلا من الرسالات السماوية . . ومن هنا فانهم أرادوا أن يستخدموا العقل فيما لم يخلق له . . ذلك أن العقل له وظائف ليس من بينها أن يصل الى وجود الله بعيدا . . أو غير مستخدم الرسالات التي أنزلها الله لعباده . . تلك الرسالات التي وضع فيها الله سبحانه وتعالى الأدلة ، ووضع فيها ما هو في قدرة العقل البشري منذ يوم خلقه . . الى يوم القيامة . . ولكن الفلاسفة يريدون أن يتجاوزوا هذا . . ويقدموا للعقل البشري ما هو فوق طاقته . . فيخرجون بذلك من نقطة العقل الى الخيال والتخيل .

والرسالات السماوية قد حملت الينا أن الله واحد أحد لا شريك له . . ولا اله غيره . . ومن هنا فهي نفت أن هناك الها للسماوات . . والها للأرض . . والها للريح والها للنجوم . . الى اخر ما يمكن أن يتصوره العقل البشري وما تصوره فعلا خلال القرون الماضية . . بل ان هذه الرسالات قد أخبرتنا عن كل شيء في هذا الكون يدخل أو سيدخل في مقدرة العقل البشري .

فالشمس ـ مثلا ـ لازمة للحياة . . واذا اختفت أصبحت الحياة مستحيلة . . فلا الزرع ينمو . . ولا النهار يكون مضيئا . . ولا الأرض ستمضي في نظامها الحالي . . والهواء مثلا اذا اختفى من الأرض . . انعدم الأوكسجين اللازم للحياة وأصبحت الحياة بالنسبة للانسان والحيوان . . بتكوينهما الحالي مستحيلة . . وكذلك الماء والأمطار . . هي التي

تعطي الحياة كلها للأرض . . بل ان الأرض نفسها التي عليها الحياة . . اذا تفتتت أو انفجرت فان الحياة تنتهي . .

ومع أن هذه القوى كلها ضخمة هائلة . . تعطي الحياة للانسان على الأرض . . الا أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أن كل هذه القوة مسخرة لخدمة الانسان رغم أنها أقوى منه ملايين المرات . . ورغم أنه لا يستطيع أن يصنعها أو يخلقها . . فلا الشمس تستطيع أن تقول إنني سأشرق اليوم ولن أشرق غدا . . أو أنني سأبتعد عن الأرض واغير نظام الكون . . ولا الرياح تستطيع أن تترك الأرض الى مكان آخر . . ولا الأمطار تستطيع أن تتوقف . . ولا الأرض نفسها لها أي اختيار فيما تحمل أو فيما يحدث فوقها . . لماذا ؟ . . لأن الله هو الذي خلق كل هذه القوى . وهو الذي سخرها لخدمة الانسان . . ونحن حين نتدبر في خلق هذا الكون وقدرة الله . . نقف أمام هذه القوى الكبرى الهائلة التي هي بلا شك خارجة عن ارادة الانسان . . بل وأقوى منه بلايين المرات . . ثم نتدبر . . هذه القوى الهائلةمسخرة لخدمة الانسان . . لا تستطيع أن تعصي يوما واحدا . . ثم نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا في كتابه العزيز أن كل هذه القوى مسخرة لكم . . وهنا نقطة يقف فيها العقل مع الحقيقة . . والحقيقة جاءت من الله . . والوقوف هنا والتأمل أصبح في قدرة العقل بما أتاحه الله لهذا العقل من قدرة . . فاذا بحثنا عن اسم الله . . وجدناه في كل لغة من لغات الأرض . . ووجدنا أن معناه واحد في العالم كله رغم اختلاف معاني الألفاظ في اللغات . . ولكن اسم الله في كل لغة وكل لهجة موجود . . ومعناه تلك القوة القادرة القاهرة التي خلقت كل شيء .

اذن لفظ الله معناه واحد في كل العقول . . وفي كل اللغات . . فاذا أضفنا الى ذلك أنه بالنسبة للبشر فان المعنى يوجد أولا . . ثم اللفظ . . ذلك أنني لا أستطيع ان أضع اسما لما هو غير موجود . . بل ان الوجود يتم أولا . . ثم يطلق الاسم . . وذلك لنعلم أن اسم الله الذي وجد مع النفس البشرية . . كان موجودا قبل أن توجد هذه النفس البشرية وهو الذي خلقها وأوجدها . . بل ان تقبل العقل البشري لاسم الله سبحانه وتعالى معناه ان هذا العقل يعرف الله بالفطرة . . وان كان الله فوق قدرة العقول . . ومن هنا نعود مرة أخرى الى الرسالات السماوية . الى الآية الكريمة ﴿واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم

ذريتهم . . وأشهدهم على أنفسهم . . ألست بربكم . . قالوا بلى شهدنا . . أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين . . أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم﴾ . . هذه الاية الكريمة وهي التي أخبرنا بها الله . . تدلنا كيف أن الله يوجد فينا بالفطرة رغم أنه فوق قدرة العقل . . فقد عرفنا وجود الله يقينا . . وهذه المعرفة موجودة في داخلنا حتى وان لم يدلنا أحد عليها . . ومن هنا فاذا ذكر اسم الله فاننا لا نحس أن انسانا ينطق لفظا غريبا لا معنى له . . ولكننا نحس أنه ينطق لفظا نعرفه جيدا . . ونحس به في داخلنا . . ونحس بقدرته وقوته . . وبأن الحياة لا يمكن أن تنسجم الا بوجوده . . وهناك اميون لا يقراون ولا يكتبون. وربما لم يقرأوا كلمة واحدة في حياتهم . . فاذا أخبرتهم عن أي شيء في هذه الدنيا . . سألوك : ما معنى هذا الذي تتكلم عنه . . نحن لا نفهمك . . الا كلمة الله سبحانه وتعالى فانك اذا قرأتها عرفها الجاهل والمتعلم . . والصبي والرجل . . والكهل . . وكل انسان يجلس امامك . . ولن تجد أحدا يقف ليسألك : ماذا تعني بكلمة الله . . اننا لا نفهم هذه الكلمة ؟ لماذا ؟ . . لأن الله يوجد فينا بالفطرة . . ومن هنا فان الطفل يعبده . . والانسان البسيط الذي لم يقرأ كلمة في حياته يعبده . . والانسان المتعلم يعبده . . والانسان الذي تبحر في العلم ووصل الى أعلى مراتبه يعبده . . وكل هذه العقول على اختلاف مستوياتها قد تعجز عن فهم مشترك لقضية من القضايا . . ولكنهم جميعا لا يوجد بينهم تصادم في عبادة الله .

وانت تدخل الى المسجد . . تجد عباد الله جالسين معا . . عقول كلها مختلفة . . في السن والثقافة والفكر والمركز الاجتماعي والطباع والعادات وكل شيء . . ولكنها كلها منسجمة في عبادة الله . . تركع له معا . . وتسجد له معا . . وتقرأ له القرآن معا . . وتسبح له معا . . كل هذه العقول لا يمكن أن تجتمع وتنسجم هكذا الا اذا كان الله موجودا فيها بالفطرة . . والا مصداقا للآية الكريمة ﴿واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم . . وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم . . قالوا بلى شهدنا﴾ .

على أن بعض الناس يحاول أن ينكر وجود الله . . ومحاولة هذا الانكار في حدها اثبات . . ذلك أنك لا تنكر الا ما له وجود . . فما هو غير موجود أصلا لا نجد أنك محتاج الى انكاره . . فالأرض مثلا بعض الناس يقول انها مبسوطة ، وبعض الناس يقول انها

كروية . ويحدث جدل . . أو حدث جدل في الماضي حول ذلك . . ولو ان الناس لم يروا الأرض أمامهم مبسوطة . . ولو أن العلم لم يثبت للناس أن الأرض كروية لما حدث هذا الجدل . . فالجدل هنا حدث لأن هناك واقعا علميا يخالف واقعا تراه العين . . اذن فقبل النفي أو الجدل . . هناك وجود . . ومثل ذلك في كل شيء في الدنيا . . فاذا أردنا أن ننفي أو ننكر نظرية علمية . . فيجب أولا أن تكون هذه النظرية موجودة لننفيها أو نحاول انكارها . . واذا لم تكن النظرية موجودة أصلا . . فكيف ننفيها أو ننكرها ؟ . .

اذن محاولة انكار وجود الله قد سبقتها الحقيقة . . وان الله موجود فعلا . . وكل من يحاول الانكار انما يحاول أن ينكر شيئا موجودا أصلا ووجوده ثابت . . والا فما الذي يحاول أي كافر أن ينكره . .

محاولة النفي والجدل لا يمكن أن تتم الا بالنسبة لشيء موجود فعلا . . فاذا كان هناك انسان لم يرزق في حياته بأطفال . . هل يثور جدل حول وجود أطفال له . . الجدل يثور اذا كان لهذا الانسان طفل يخفيه . . بعض الناس رأوه . . وبعض الناس لم يروه . . وهنا يبدأ الجدل . . ولكن اذا لم يكن هناك شيء أصلا . . ففيم سأجادل . . الجدل هنا ومحاولة انكار وجود الله . . هي اثبات بأن الله موجود . . وأن هناك من يحاولون لهوى في نفوسهم أن يجادلوا في هذا الوجود أو ينكروه .

ويمضي فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في حديثه فيقول . . لقد عبد الانسان قوى كثيرة على أنها آلهة . . عبدوا الشمس وعبدوا النار . . وعبدوا الأصنام والحجارة . . وعبدوا الانسان كآل فرعون . . كل هذه الأشياء عبدوها وأطلقوا عليها أسماء مختلفة . . ولكن هل اذا قلت أي اسم من هذه الأسماء يقفز الى النفس البشرية معناه ؟ . . أبدا . . فأنت اذا قلت ـ مثلا ـ عن اله الشمس . . لم يفهم أحد شيئا . . واذا ذكرت اسم اللات أو العزى . . فان العقول لا تفهمها . . واذا قلت فرعون تجد كثيرا من الناس لا يدركون شيئا . . اذن فكل هذه الآلهة زيف وإفك . . ولا يوجد الا اله واحد هو الله سبحانه وتعالى . . الله الأحد . . الذي اذا ذكر اسمه . . وجدت كل عقل يفهمه . . وكل نفس تحسه . . وكل ما يشرك به من دون الله هو افك وزيف . . بلا أصل ولا حقيقة الا هوى النفس البشرية . .

ثم نأتي بعد ذلك الى نقطة هامة جدا . . لقد خلق الله آدم . . خلقه وأمر الملائكة أن يسجدوا له فسجدوا الا ابليس . .

عندما خلق الله ادم . . لم يكن لآدم ماض . . لم يكن له أب يعلمه . . أو أم تلقنه . . فمن الذي علمه . . الله . . . وماذا علمه . . كما يقول القرآن ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ . .

ما معنى ذلك . . معناه أن منطلق العلم الذي أتاحه الله للعقل البشري . . يجب أن يبدأ بالأسماء ثم بعد ذلك ينطلق الى علوم الدنيا . . اذن الله حدد لنا منطلق علمه الذي أعطاه للبشر . . قال يبدأ علمي لكم بالأسماء . .

تعالوا لنرى اليوم . . بعد كل هذا التقدم . . هل خرج الانسان عن الدخول الى نقطة العلم من المدخل الذي حدده الله . . أبدا . .

اذا أردت أن تعلم الانسان بكل صنوفه وأجناسه . . فيجب أن تبدأ بالأسماء أولا . . تقول للطفل هذه شمس . . وهذا نور . . وهذا ظلام . . وهذا فيل ، وهذا أسد . . وهذا كوب . . وهذه سبورة . أي انك تعلم الطفل الأسماء أولا . . ثم تتركه بعد ذلك فيستطيع أن يستوعب علوم الأرض كلها . . ولكن يجب أن يدخل من نفس المدخل الذي حدده الله للعلم البشري . . عندما علم آدم أول البشر . . علمه الأسماء أولا . . بل إن أحدث طرق التعليم في العالم تقوم الآن بتعليم الطفل الأسماء والصور حتى يستطيع أن يستوعب العلم بسرعة . . ويتقدم الى العلوم الأخرى.

اذن لم يخرج الانسان في دخوله الى العلم من نفس الطريقة التي حددها الله . . ولن يستطيع الخروج عليها . .

وبذلك نكون قد وصلنا الى أربع حقائق هامة :

الحقيقة الأولى أن الله موجود فينا بالفطرة . . نعرفه ونحس بوجوده جميعا . .

الحقيقة الثانية : ان الوجود يسبق الاسم دائما وان الوجود سابق لمحاولة النفي والانكار .

ثالثا : اننا اذا أردنا أن نعرف شيئا عن الله سبحانه وتعالى . . فإننا يجب أن نصل اليه عن طريق العلم الصحيح الذي أعطاه الله لنا في رسالاته ولا ندخل في متاهات الفلسفة . .

رابعا : ان الله قد حدد لنا مدخل العلم البشري للانسان عندما خلق آدم . واذا أردنا أن نتعلم فيجب أن ندخل نحن جميعا . . مؤمنين وغير مؤمنين . . يجب أن ندخل جميعا من الباب الذي حدده الله لنا وهو تعلم الأسماء .

الانسان والأمانة

ان السماوات والأرض والجبال .. رفضن أن يكون لهن اختيار في أمورهن .. وفضلن أن يكن مقهورات مسخرات لما يريده الله سبحانه وتعالى .. ولكن الانسان حمل الأمانة وأخذ حرية الاختيار في الفعل .. ولا تفعل ..

الله سبحانه وتعالى حينما يخاطبنا فانه يخاطب العمول جميعا .. ويجعل لكل منها قدرا من الفهم يحس به بقدرة الله وعظمته .. وهذا من اعجاز القرآن الكريم ذلك أن القرآن يخاطب وجدان كل البشر .. وأنت حين تخاطب الناس تجد أن معرفة الله سبحانه وتعالى موجودة فيهم بالفطرة .. ومن هنا فانه اذا ذكر اسم الله فاننا لا نحس أن لفظا غريبا يقال لنا .. ولكننا نحس يقينا أن هذه المعرفة موجودة في داخلنا حتى وان لم يدلنا أحد عليها .. ونحس بقدرته وقوته .. وبأن الحياة لا يمكن أن تنسجم الا بوجوده ..

وهناك أميون لا يقرأون ولا يكتبون .. وربما لم يقرأوا كلمة واحدة في حياتهم .. فاذا أخبرتهم عن أي شيء في الدنيا قالوا ما معنى هذا الذي تتكلم عنه .. نحن لا نفهمك .. الا كلمة الله سبحانه وتعالى .. فانك اذا قلتها عرفها الجاهل والمتعلم والصبي .. والرجل .. والكهل .. وكل انسان يجلس أمامك ..

وحينما ندخل المسجد نجد عباد الله جالسين معا .. عقول كلها مختلفة في السن والثقافة .. والفكر .. والمركز الاجتماعي .. والطباع .. والعادات .. وكل شيء .. اذا حاولت أن تتحدث اليها عن أي موضوع فانها لا يمكن أن تفهمه .. ولا تنسجم معه .. ولكننا نجدها كلها منسجمة في عبادة الله .. تركع معا .. وتسجد معا .. وتسبح معا ..

وينتقل فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي بعد ذلك الى خلق الانسان ..

فيقول ان الله سبحانه وتعالى خالق ادم . . وقال للملائكة : اسجدوا له . . وأدم مخلوق بلا ماض . . لم يعلمه أحد شيئا . . ولم يرث حضارة ولا علما . . ثم قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وعلم ادم الأسماء كلها﴾ . . فالله قد أخبرنا في كتابه العزيز أن مدخل العلم الى النفس البشرية هو الأسماء . . وحتى هذه اللحظة . . ورغم مرور هذه القرون الطويلة لا يزال مدخل العلم البشري للإنسان هو الأسماء . . فالطفل أول ما يتعلم . . يتعلم أسماء الأشياء . . ثم بعد ذلك يستطيع أن يستوعب من العلم ما يشاء ولكن مدخل العلم الذي أتاحه الله للبشر لا يتأتى الا من المدخل الذي حدده الله . . وهو تعليم الأسماء أولا . . فالطفل في اول سني عمره يستوعب الأسماء . . فأنت تقول له هذا ثوب . . وهذا منزل . . وهذا شارع . . ثم بعد أن تعلمه الأسماء نتركه . . فيستطيع عقله البشري أن يحصل ما يتاح له من العلم معتمدا على نفسه .

ثم نأتي بعد ذلك الى نقطة تالية . . وهي أنه عندما خلق الله سبحانه وتعالى أدم حمله الأمانة . . قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال . . فأبين أن يحملنها وأشفقن منها . . وحملها الانسان . . انه كان ظلوما جهولا﴾ . .

ما معنى الأمانة . . معناها الشهادة بالحق . . طواعية فيها لك اختيار فيه . . وبمحض ارادتك . . فاذا أودع انسان لديك مالا . . وأخذ عليك ورقة تثبت أنه أودع هذا المال . . فان هذه ليست أمانة . . لماذا ؟ . . لأن هذه الورقة تثبت حقه . . وبالتالي فانك اذا أنكرت يستطيع أن يثبت كذبك . .

هذه الورقة التي كتبتها . . أخرجتك من دائرة الاختيار . . فلم تعد تستطيع أن تقول نعم . . أو لا بمحض اختيارك . . لأن هذه الورقة سلبت منك حق الاختيار في الانكار . . وأثبتت لصاحب الحق حقه . . ومن هنا فان هذه ليست أمانة . . لأن جانب الاختيار فيها غير متوافر . . أو غير متاح . . ولكن اذا أعطاك أي انسان مبلغا من المال بينك وبينه ودون شهود . . ودون ورقة مكتوبة . . فانه يكون قد أعطاك هذا المال كأمانة . . لماذا ؟ . . لأنه بينك وبينه معتمدا على تمسكك بالحق . . ومن هنا

فانك تستطيع أن تقول نعم . . أخذت منه هذا المال . . وتستطيع أن تقول لا . . لم آخذ منه هذا المال وتنكر ما حدث . .

اذن ما دام الاختيار موجودا في أنك تستطيع أن تفعل هذا أو لا تفعله . . أي تستطيع أن تقول انني أخذت المال أو لم آخذه . . فهنا تكون الأمانة . . الاختيار موجود . . وأنت وأمانتك . . تستطيع أن تقول الحق . . أو تنكره . .

فاذا قال الله سبحانه وتعالى إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال . . ﴿فأبين أن يحملنها﴾ . . فمعنى ذلك أن هذه الأشياء كلها قد رفضت أن يكون لها اختيار في أمورها . . وفضلت أن تكون مقهورة مسخرة لما يريده لها الله سبحانه وتعالى لماذا ؟ . . لأنها جميعا خافت من عواقب هذا الاختيار . . وما يمكن أن يؤدي بها الى معصية . . أو الى مخالفة لأمر الله . . ولكن الانسان بعقله قبل الأمانة . . أي قبل أن يكون له اختيار . .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي . . ولنبسط المسألة قليلا . . هب أن انسانا جاءك . . ومعه مبلغ كبير من المال . . وقال أنا أريد أن أضع هذا المبلغ عندك أمانة . . أحد أمرين . . إما أن يكون تصرفك كتلك المخلوقات التي رفضت أن تحمل الأمانة بأن تقول لنفسك . . ان هذا اختيار صعب . . هذا الرجل سيترك لي ماله . . وقد تمتد يدي اليه . . وقد أنفقه فيما تغريني الحياة . . ثم بعد ذلك يأتي وقت السداد فلا أجد المال . . فحتى لا أقع في أي اغراء . . وأقطع الشك باليقين فانني أرفض هذه الأمانة لأنها تعرضني الى ما لا أستطيع أن أحتمله . . والى اغراء الشيطان . . ومن هنا فأنا لا أريد أي اختيار لنفسي . . ولن آخذ هذا المال كأمانة . .

ولكن قد توسوس النفس والعقل بأنك تستطيع أن تأخذ هذا المال وأنك قادر على أن تودعه عندك . . وربما قادر على أن تستخدمه فيما ينفعك . . ولكنك قادر أيضا حسب ظنك وعلمك أن ترد هذا المبلغ لصاحبه عندما يأتي وقت الحساب . . وتأخذ المال . . وتنفقه . . ثم يأتي وقت الحساب فلا تجد عندك منه شيئا . .

اذن الأساس هنا هو الاختيار . . والانسان عندما حمل الأمانة معناها : أن أخذ

حرية الاختيار في أن أفعل ولا تفعل . . ومن هنا كانت الرسالات السماوية التي نزلت للانسان . . لأنه قبل حمل الأمانة . . أي أخذ الاختيار في يده ليعمل أو لا يفعل . . أخذه وهو يحسب أنه قادر على أن يعمل ما يرضي الله . . وأن يحسب ما يفعله . . ولكن اغراء الشيطان . . وبريق الدنيا . . وضعف النفس البشرية . . لم يكن في حسابه . . وبذلك كان ظلوما . . أي ظالما لنفسه . . في أنه اعتقد فيها أكثر من قدراتها . . وهذا هو الغرور الذي اذا دخل النفس خرج منها الايمان . . الغرور الذي جعل قارون يقول : إنما أوتيته على علم عندي . . أي أن الانسان يعتز بنفسه وعقله وقدراته . . ناسيا أن هذه القدرات هي من عند الله . . وأنه هو الذي أعطاها له . . ويستطيع أن يأخذها منه . . جهولا . . أي أن الانسان جاهل بالحقيقة . . التي حوله . . في أن الله سبحانه وتعالى هو القادر . . والقابل . . والمعطي . . والمانع . . والرافع . . والخافض . . والمعز . . والمذل

وهكذا حمل الانسان الأمانة . . ووضع الله سبحانه وتعالى أمامه البدائل في أن يفعل ولا يفعل . . وما دام الله سبحانه وتعالى قد قال للانسان افعل كذا . . فمعنى ذلك أنه في مقدور هذا الانسان ألا يفعل . . وإلا لما قال له الله افعل ومعنى قول الله سبحانه وتعالى للانسان لا تفعل كذا . . ان الانسان قادر على أن يفعل . . والا لما قال له الله سبحانه وتعالى لا تفعل . .

اذن أخذ الانسان الاختيار في أفعل ولا تفعل . . فماذا حدث . . صور له جهله أشياء كثيرة . . فخلق آلهة ليعبدها من صنع يديه أي انه عبد ما يستطيع أن يصنعه . . ونسي أن الذي يصنعه انسان لا يمكن أن يكون هو خالقه . . أي خالق الانسان ثم عبد الانسان نفسه . . ثم حاول أن ينكر وجود الله . . وانطلق مع هوى نفسه . . جاحداً نعمة الله . . ترك الرسالات التي أنزلها الله سبحانه وتعالى له ليبين له طريق الحق . . وطريق الحياة الطيبة الآمنة . . وأخذ يشرع لنفسه وحسب أهوائه . . فأصابه الشقاء في الدنيا . . وحلت به الكوارث . . وعاش عيشة ضنكا . . ولكن لماذا فعل الانسان ذلك . .

الانسان والاختيار

اذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يتحدى البشر . . فانه يتحداهم في أمر اختياري أي أن يستطيعوا القيام به بمحض اختيارهم وبكامل ارادتهم . . ذلك أن التحدي في أمر لا اختيار للانسان فيه لا يكون تحديا . . وفي القرآن تحديات كثيرة . . في أمور اختيارية . . لم يستطع الانسان ان يواجهها . . .

أخذ الانسان حرية الاختيار في افعل ولا تفعل . . فماذا حدث . . صور له جهله أشياء كثيرة . . فعبد كل شيء في الدنيا . . لا ينفعه ولا يضره . . عبد الأحجار والأصنام . . وعبد النار والشمس . . وعبد الحيوانات المفترسة . . والحيوانات الأليفة . . وانطلق في جهله بعيدا عن الله سبحانه وتعالى الخالق لكل هذا الكون . . المدبر له . . انطلق الانسان جاحدا نعمة الله . . ترك الرسالات التي أنزلها الله سبحانه وتعالى له ليبين له طريق الحياة الطيبة الآمنة . . وأخذ يشرع لنفسه حسب أهوائه . . فأصابه الشقاء في الدنيا . . وحلت به الكوارث . . ولكن لماذا فعل الانسان ذلك . .

اذا أردنا أن نصل الى ما تريده النفس البشرية في هذه الدنيا . . فقد لخصه الله سبحانه وتعالى في شيئين أساسيين . . ووصف بهما وصفا بليغا مدخل الشيطان الى النفس البشرية . . وما يريده كل انسان . . ذلك أن الشيطان حين أراد أن يغري آدم بمعصية الله سبحانه وتعالى قال له هل أدلك على شجرة الخلد . . وملك لا يبلى . . وقال الشيطان لهما ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ . .

اذن الانسان يريد شيئين في الدنيا . . الخلود والأموال التي لا تفنى . . ولا تنتهي . . انه يريد أن يبقى في الدنيا خالدا لا يموت . . ويريد أن يكون له ملك يعيش فيه عيشة الترف التي يريدها دون أن تتأثر هذه الأموال بكل ما ينفقه . . ومن

هنا كان مدخل الشيطان للنفس البشرية . . هذه الالهة كلها التي أخترعها البشر هي اما جالبة للرزق . . أو دافعة للضرر مبعدة للموت . . وهي في الحقيقة لا تفعل هذا ولا ذاك . . ولكنه الخوف الذي يضعه الشيطان في النفس غير المؤمنة هو الذي يجعلها تعتقد أن هناك شيئا في يد أحد غير الله سبحانه وتعالى . . وهنا نتوقف قليلا عند هذه النقطة . . الله سبحانه وتعالى حين أخذ من آدم ذريته . . وأشهدهم على نفسه . . نجد في النفس البشرية أثر هذا حتى الآن . فكل نفس بشرية تعرف الله بالفطرة . . ولا تحتاج لأي شرح اذا ذكرت لها كلمة الله سبحانه وتعالى . . ويكفي أن تذهب الى الحج لترى اسم الله ينطلق بجميع لغات الدنيا . . بكل لغة من لغات العالم . . والمعنى واحد . . وهؤلاء الناس الذين جاءوا من كل بقاع الأرض قد لا يستطيعون التحدث معا . . أو التفاهم معا ، لأنهم لا يفهمون بعضهم البعض . . ولا يتكلمون لغة بعضهم البعض . . ولكن اذا ذكر اسم الله أمامهم توحدت قلوبهم عند كلمة الله . . واذا أقيمت الصلاة توحدت وقفتهم جميعا بين يدي الله . . مع أنهم غرباء تماما . . ولكنهم متعارفون في الله . . بغير المعرفة المألوفة بين البشر . . وربما التقوا أياما في الحج . . ثم بعد ذلك لا يلتقون . . ولكن رغم أنهم غرباء في كل شيء . . تجمعهم كلمة الله سبحانه وتعالى . . بل ان الله سبحانه وتعالى يمعن في التحدي . . ويقول سبحانه وتعالى في سورة مريم : **﴿رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا﴾** . . أي أنه تحدى في القرآن أنه هو خالق كل شيء . . وهو الله لن تجد اسمه يطلق على أحد . .

وهذه نقطة يجب أن نقف عندها . . ان عادة الانسان أن يطلق اسما على كل شيء . . لا يوجد شيء في الدنيا بغير اسم الا اذا كان مجهولا للانسان . . فكل شيء يطلق عليه اسم . . أنت لك اسم . . واذا جاءك ابن تطلق عليه اسما . . والظواهر الطبيعية لها أسماء . . وكل شيء في الدنيا له اسم . . والاختراعات الجديدة والاكتشافات الجديدة يضع الانسان لها الأسماء . . حتى يستطيع الانسان أن يعرفها أو يعرفها . . اذن فكل شيء في هذه الدنيا له اسم يميزه عن غيره . . ثم يأتي القرآن ويتحدى . . ويقول . . ان الله سبحانه وتعالى لن تجد له سميا . . أي لن تجد انسانا

باسمه . . والتحدي هنا لمن ؟ . . التحدي في القرآن . . وفي الايمان . . هو للمشركين والكفار . . ذلك أن القرآن لا يتحدى المؤمن أبدا . . لأن المؤمن قد آمن وأطاع . . وهو ليس محتاجا للتحدي . . ولكنه محتاج لما يزيده ايمانا . . وقرباً لله سبحانه وتعالى . . أما المحتاج للتحدي فهو ذلك الذي يكفر . فيأتي الله ليقول له ان هناك تحديا . . تحديا لك في كذا وكذا . . فهل تستطيع أن تفعله يا من تعبد نفسك . . أو تعبد الانسان . . أو تعبد الحجر . . أو تعبد أي شيء آخر . . اذا كنت تريد أن تثبت حقيقة أنك أنت وما تعبده . . ومن يعضدونك ويشدون أزرك . . لهم قطرة من القوة . . فانني أتحداكم أن تفعلوا كذا وكذا . . والتحدي دائما من الله سبحانه وتعالى للانسان . . يكون في أمر اختياري . . اذ أن التحدي لا يمكن أن يكون في أمر اجباري يجبر الانسان عليه . . بمعنى ـ مثلا ـ انني لا أستطيع أن أقول لانسان انني أتحداك ـ مثلا ـ أن تطيل عمرك شهرا أو شهرين . . أو أتحداك ألا تصاب بمرض طوال حياتك . . الى آخر هذه الأمور التي لا اختيار للانسان فيها . . هنا يكون التحدي بالغ الصعوبة ، غير ميسر . . وأحيانا مستحيلاً ولا يعتبر تحدياً . .

ولكن الله سبحانه وتعالى حينما يتحدى . . يأتي بأمر اختياري يمكن لأي انسان أن يصل اليه ويتحدى فيه . . فالله سبحانه وتعالى مثلا علم أزلا أن بعض الناس سيتخذون العلم الذي أتاحه الله لعقول البشر . . وجعله في طاقتها . . سيأخذون هذا العلم ليعبدوه ويتخذوه الها . . ويقولون انتقلنا من عصر الدين الى عصر العلم . . ولذلك وضع الله في القرآن ما يرد عليهم . . قال لهم . . ان العلم الذي تعبدونه من دون الله قد يوصلكم الى أشياء تدهش عقولكم . . وتزعزع ايمانكم . . ولكنني أقول لكم ان هذا العلم بهيلمانه عاجز عن أن يخلق ذبابة . . هذا تحد رهيب للعلم الذي وصل الى القمر . . وهو في طريقه الى المريخ لن يستطيع أن يخلق ذبابة واحدة . ولو اجتمع لها علماء العالم كله . . وفعلا كان هذا هو التحدي . . والتحدي هنا يقول أنا ساعطيكم من علمي ما أريد . . لتصلوا الى القمر . . وتطيروا في الهواء . . وتفعلوا ما يعتبره العقل البشري أشبه بالمعجزات . . ولكن لكي تعلموا أن هذا بإذني وأمري . . فانني سامنع عنكم خلق احقر شيء « الذبابة » . . ستصلون بعلمكم الى

ما أريد . . ولكن لو اجتمع علماء العالم كلهم ليخلقوا ذبابة . . ما استطاعوا . . ولن يستطيعوا أن يصلوا بعلمهم الى ما لا أريد . . رغم بساطته . .

ويأتي العلم ليحقق للعالم أشياء كثيرة . . حتى أن الانسان أصبح يملك وسائل نسف الأرض . . ووسائل الكترونية حديثة تفوق في خدماتها كل ما تصورته العقول . . ونزل الانسان فوق القمر . . وهو في طريقه الى كوكب الزهرة . . الى غير ذلك . . ولكن التحدي ظل قائما . . ذلك أن الانسان لا يستطيع مع كل ما أوتي من العلم أن يخلق ذبابة . . أو حتى جناح ذبابة . .

جاء التحدي في أشياء أخرى كثيرة في القرآن . . . مثل المطر . . وبالرغم من كل الاختراعات الحديثة . . فان العلم عاجز عن أن ينشىء سحابة صناعية . . ويجعلها تمطر حيث يريد . . بل ان بعض بلاد الدنيا تعاني من كثرة الماء . . وكثرة الأمطار . . والبعض الآخر يعاني من القحط الشديد . والعلم لا حيلة له في ذلك . . مع أن الله كشف لنا الطريقة التي يتكون بها السحاب . . ثم الطريقة التي ينزل بها المطر . . وهنا امعان في التحدي . . اذ أنه يعطينا الأسباب . . ويجعلنا عاجزين عن العمل . . ثم يتحدانا في أمر اختياري كانزال المطر مثلا . . وهو أمر أبسط كثيرا علميا من الوصول الى القمر والمريخ . . ولكن الانسان لا يستطيع أن يقوم به . .

وفي القرآن تحديات كثيرة ليست هي موضوع حديثنا الآن . . اذ أن الحديث عن الله والنفس البشرية . . حين يأتي الله سبحانه وتعالى ويريد أن يتحدى الكفار في شيء اختياري . . هل الله يريد أن يتحدى كافرا بعينه . . أو طبقة من الكفار بعينها كالعلماء أو التجار . . أم أنه يريد أن يكون التحدي شاملا للجميع . . يستطيع أن يقدر عليه كل كافر . . حتى ذلك الذي لم يكتب حرفا . . لم يعرف من الدنيا شيئا . . يأتي الله سبحانه وتعالى ويجعل التحدي هنا عاما في مقدرة كل فرد . . فيأتي بالآية الكريمة : ﴿رب السموات والأرض وما بينهما . . فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا﴾ . .

أي أنه يتحدى في الاسم . . والاسم هنا شيء يقدر عليه كل انسان . . بل ويستخدمه كل انسان في الدنيا كلها . . فكل فرد يستخدم الأسماء مهما بلغت ثقافته أو علمه أو جنسيته . . الى آخره . . يأتي الله سبحانه وتعالى ويتحدى . . ويقول انني أنا الله . . وهذا اسمي سأختص به نفسي . . ولن تجد سميا . . أي مسمى بهذا الاسم في الدنيا كلها . .

يأتي هذا التحدي وأنا أوجه السؤال الى كل من يقرأ هذا الحديث . . هل سمعتم عن انسان اسمه « الله » . . هل سمعتم أن عقلا بشريا جرؤ على أن يطلق هذا الاسم على ابن له . . أو زوج له . . أو على أي شخص كان . . حتى الآلهة التي اخترعها الانسان ليعبدها جعل لها أسماء ليس بينها اسم « الله » سبحانه وتعالى . . ولقد جاء هذا التحدي في أمر اختياري . . أي يستطيع أي انسان أن يفعله بارادته . . وفي أمر لا يستلزم أي مؤهلات . . أي يستطيع اي فرد في الدنيا أن يقوم به دون أن يكون له ثقافة أو علم . . أو فكر . . أو أي شيء مميز . أي أنه تحد للبشرية كلها . . ومع أن هذا التحدي نزل منذ أربعة عشر قرنا . . ومع أن هناك أناسا يعملون ضد دين الله . . ويحاولون هدمه . . لم يستطع واحد منهم أن يطلق الاسم على فرد أو شيء . . أو حتى على اله يعبده . . وهكذا بقي التحدي . . وسيبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها . .

هذا التحدي لا يقدر عليه انسان . . ولا يمكن أن يقوم به بشر مهما بلغ شأنه . . ذلك التحدي في أمر اختياري لا يستلزم أي صفات أو مؤهلات معينة . . وعجز الانسان عن مواجهة هذا التحدي . . هو قدرة من قدرات الله سبحانه وتعالى وحده . .

ورغم هذا التحدي الذي لا يجيب عليه أحد . . نجد بعض الناس يحاولون جاهدين انكار وجود الله سبحانه وتعالى . . ويجادلون في ذلك جدالا كثيرا . . ولكن هؤلاء الناس أنفسهم حينما تعجز الأسباب عن أن تدفع عنهم ضرا . . وحين يجدون أنفسهم في كرب لا يستطيعون الخروج منه . . أو في بلاء لا يستطيعون رده . . تجد

ألسنتهم تصيح بلا شعور « يا رب » . . وتستنجد بالله الذي يحاولون انكار وجوده . . كيف تستنجد نفس بالله سبحانه وتعالى . . وهي في نفس الوقت تحاول أن تنكر وجود الله . . إنها تجزع إليه . . تستغيث بالخالق . . بالقدرة . . بالقوة . . بالذي يقول كن فيكون . . كيف يتم ذلك ؟ .

الكون والانسان

كل ما في هذا الكون مسخر لخدمة الانسان ولكن ماذا فعله البشر ليتم ذلك . . وكيف يستطيعون أن يسخروا لخدمتهم من هو أقوى منهم ملايين المرات . . ان كل هذه الأشياء تستطيع أن تفني البشر في ساعات قليلة . . وربما في لحظات قليلة . . ولكنها خاضعة ذليلة لخدمتهم . .

ان الله سبحانه وتعالى أمرنا بالتدبر في الكون . . ولماذا يأمرنا الله بهذا ؟ . . لو أن في هذا الكون دليلا واحدا على عدم وحدانية الله . . وقدرته ووجوده . . ما أمرنا الله أن نتدبر في الكون . . وأن نتدبر في مخلوقاته . . وأن نتدبر في أنفسنا . . لماذا ؟ . . لأن الذي يعرض عليك شيئا فيه أدنى شك . . لا يقول لك افحصه جيدا . . أو تدبر فيه . . انك اذا أردت ان تعلم عن أي شيء تراه . . فان صاحب الشيء اذا لم يكن موقنا مما يقوله لما قال لك تدبر وانظر جيدا . . وافحص جيدا . . وإنما يحاول بشتى الطرق أن يجذب انتباهك عن ذلك الشيء الذي تنظر اليه . . حتى لا تتبين فيه أي نقص أو عيوب موجودة . . إنما الذي يقول لك تدبر . . وفكر . . وانظر . . موقن من اتقان عمله . .

ولأضرب مثلا بسيطا لأقرب هذا الى الأذهان . . اذا دخلت لتشتري أي شيء في هذه الدنيا . . أي شيء . . أمامك واحد من اثنين . . اما أن يكون هذا الشيء متقنا اتقانا بديعا . . وحينئذ يقول لك صانعه . . افحصه جيدا . . ويطلب منك أن تفحصه مرات ومرات . . لتتبين دقة الصنع . وتعرف متانة الشيء وكماله . . ولكن اذا كان الشيء ناقصا . . أو فيه عيوب فان صانع الشيء الذي يحاول أن يغشك أو يخدعك . . يفعل كل ما يستطيع من الحيل ليأخذ انتباهك بعيدا عن ذلك الذي في يدك . . حتى لاتتبين عيوبه ونواقصه

والله سبحانه وتعالى يطلب منا في قرآنه الكريم . . أن نتدبر الخلق . . أن نتدبر الكون . . ويقول ان هذا الكون فيه آيات بينات . . ويقول ان في خلقكم وخلق السموات والأرض أيات بينات . . وفي أنفسكم . . لماذا يقول الله ذلك ؟ . . اذا لم يكن قائل هذا الكلام هو خالق الكون . . وعارف لأسراره أفلا يخشى أن تكون هنالك عيوب ونواقص . . وأشياء لا يعرفها . . قد يأتي التدبر فيها بنتيجة عكسية . .

ولكن الله سبحانه وتعالى هو الخالق . . وهو القائل . . وهو العالم . . ومن هنا فهو يعرف دقة ما خلق . . واعجاز ما خلق . فيقول لنا تدبروا في هذا الكون . . أنظروا فيه . . فستجدون آيات واعجازا لخلقي وقدرتي . . وفي أنفسكم . . ويقول سبحانه وتعالى ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق . . وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ . . أي آيات تلك التي يتحدث عنها الله سبحانه وتعالى . . ان لم يكن هو الذي خلقها باتقان واعجاز . لا يملك البشر أمامه الا أن يسجدوا لقدرة الله سبحانه وتعالى في كونه . . وفي خلقه .

اذن هذا التحدي في التدبر في آيات الكون . . والتدبر في الخلق . . والتدبر في أنفسنا . . لا يمكن أن يحدث الا اذا كان القائل هو الخالق . . هو الذي وضع آيات . . ومعجزات في هذا الكون . . فما الذي يريدنا الله أن نتدبره الا آياته في الكون . . واذا لم يكن الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون . . فكيف يعرف أسراره كلها . . . ويعلم أن فيها آيات ومعجزات . . إن الذي خلق . . هو الذي قال . . هو الذي أعجز . . سبحانه وتعالى . . ومن هنا فهو يطلب منا أن نتدبر . . لنرى من الآيات ما يجعلنا نسجد لعظمة الله سبحانه وتعالى وقدرته . .

نأتي بعد ذلك الى نقطة أخرى . . الله سبحانه وتعالى أخبرنا في قرآنه الكريم أنه سخر كل ما في هذا الكون لخدمة الانسان . . تعالوا نتدبر قليلا في هذه الحقيقة الهامة . . كل ما في الكون يخدم الانسان . . الحيوان . . والجماد . . والشمس . . والقمر . . والنبات . . كلها تخدم الانسان . .

والانسان ليس هو الكائن الوحيد الحي في هذا الكون . فالنبات له حياة . . والحيوان له حياة . . والانسان له حياة . . ولكن كلا منها تختلف عن الأخرى . .

تعالوا نتدبر في خلق الله . . الله سبحانه وتعالى جعل كل شيء مسخرا لما فوقه . . الجماد مثلا بكل صوره مسخر لخدمة ما فوقه من الخلق . . وهو النبات والحيوان والانسان . . على أن التمييز . تمييز الخالق . . وليس تمييز المخلوق . . بمعنى أن الله سبحانه وتعالى هو الذي سخر . . ولكن الانسان بقدرته . . وعقله . . وقوته . . عاجز عن أن يسخر . . والدليل على ذلك أن هناك أشياء مسخرة للانسان . . والحيوان . . والنبات . . أقوى منه ملايين المرات . . ولا يستطيع أن يوجدها . . أو أن يسيطر عليها . . الشمس والنجوم . . والكواكب . . والأرض . . مسخرة لخدمة النبات . . والحيوان . . والانسان . . الشمس لا تستطيع أن تقول انني سأشرق هذا اليوم على جزء من هذا الزرع لأعطيه الحياة والنمو . . ولن أشرق على جزء آخر ليموت . . فالشمس بقدرتها الهائلة . . وقوتها التي لا يستطيع أن يقترب منها العالم أجمع . . مسخرة لخدمة النبات . . تشرق عليه . . وتعطيه الحياة والنمو . . وتغرب عنه . . ليتم دورته . . وهكذا . . وهي في هذا الاختيار لها . . وكذلك الرياح . . والأمطار . . والأرض . . نفسها . . كلها مسخرة لخدمة النبات والحيوان والانسان . . الأرض اذا وضعت فيها الحب لا تستطيع أن تقول لن أعمل على انماء هذا الحب وتغذيته . . ولكنني سأغذي هذا الحب . . وكذلك المطر لا يستطيع أن يقول سأنزل هنا اليوم . . ولن أنزل غدا . . أو لن أنزل في العام القادم . . كل هذه الأشياء مسخرة ليس لها أي اختيار . . وهي تعطي عطاء متساويا للجميع بلا تمييز . . لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي سخرها . . وهو الذي جعلها في خدمة أنواع الحياة التي هي أرقى منها . . كالنبات . . والحيوان . . والانسان . . وليعلن للعالم أجمع أن هذه الأشياء هي مسخرة بقدرته سبحانه وتعالى . . وبعلمه . . وبكلمة كن . . جعلها أقوى من الانسان . . والحيوان . . والنبات . . ملايين المرات . . ومع ذلك هي في خدمتهم جميعا . . لا تستطيع يوما واحدا أن تمتنع أو ترفض أن تقوم بخدمتهم رغم قدرتها . . وضعف من تخدمهم من البشر . . والنبات والحيوان . .

هذه واحدة . . فاذا انتقلنا الى النبات . . نجد أنه مسخر لخدمة من فوقه في الخلق . . وهما الحيوان والانسان . . والحيوان يستطيع أن يأكل من النبات كما يريد ويحطمه كما يريد . . ولا يستطيع النبات أن يمنعه من ذلك أو يقول له لا . . لن أعطيك طعاما

اليوم . . سأمنعه عنك . . أو يبعده عنه . . اذا أراد به ضرا . . وكذلك بالنسبة للانسان . . فان النبات مسخر لخدمته . . عطاء له عندما يريد . . لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا أمام ارادة البشر . . حتى في اهلاكه وافساده . . اذن فالنبات مسخر لخدمة ما فوقه . . لا يستطيع له نفعا ولا ضرا . . وانما يعطيه عطاء بلا حساب . . ويكون في خدمته دائما كلما أراد . . حتى اذا أراد له هلاكا . . فالصبي قد يأتي بفأس أو منشار . . . ويصل الى شجرة ضخمة هائلة . . ويظل يقطع فيها عدة أيام حتى تسقط . . ولكن الشجرة رغم ضخامتها وقوتها . . حتى انه اذا سقط غصن منها على هذا الصبي أهلكه . . بل اذا سقط غصن منها على رجل أهلكه . . واذا سقطت الشجرة نفسها على عدة رجال أقوياء أهلكتهم . . رغم أن هذه الشجرة تملك هذه القدرة الهائلة على البشر . . فانها لا تستطيع أن تأمر غصنا منها ليسقط . . فيهلك صبيا أو رجلا يقطعها بفأس او منشار . . ولا تستطيع ان تأمر جذعها أن يسقط على رجال يقومون باقتلاعها من جذورها . . ومن هنا فهي تملك القوة . . ولكنها لا تملك القدرة . . لماذا ؟ . . لأنها مسخرة لخدمة الانسان والحيوان . . رغم قوتها الهائلة . . وقدرتها على التدمير . . الا أنها تقف عاجزة تماما أمام الانسان . . لماذا ؟ . . لأن التسخير هنا من الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا فلا القوة لها قيمة . . ولا القدرة لها قيمة . . وانما الأمر جميعا للقائل . . وهو الله سبحانه وتعالى . . والقائل هنا سخرها للانسان . . فهي مسخرة له . .

اذا انتقلنا بعد ذلك الى الحيوان . . نجد أنه أرقى حياة من النبات . . فقد منحه الله الحواس . . ومنحه قدرة على الحركة . . ومن هنا فهو أعلى خلقا من النبات . . ومن الجماد . . وكل خلق تحته مسخر له . . لخدمته . . ولكن الحيوان نفسه مسخر لخدمة الانسان . . وقد يكون الفرس . . أو الجاموسة . . أو الثور . . أو الجمل . . أو أي حيوان آخر يملك من القدرة والقوة ما يستطيع أن يحطم به أقوى رجل في العالم ويهلكه . . ومع ذلك . . فان صبيا صغيرا يستطيع أن يقود الجمل . . أو الفرس . . أو الثور . . الى حيث يريد . . وهو طائع له . . لا يستطيع أن يعصيه . . اذا تدبرنا في ذلك . . فان العقل يقول ما دام الحيوان هو الأقوى . . فهو الذي يتحكم ويفرض ما يريد . . ولكن الله سبحانه وتعالى الذي أراد ذلك سخر الحيوان القوي فجعله ضعيفا ذليلا أمام الانسان الذي يقل عنه

قوة وقدرة .

اذا انتقلنا بعد ذلك الى الانسان . . فهو حياة أرقى من النبات . . والحيوان . . لماذا ؟ . لأن له فكرا . . له عقلا . . وله اختيارات . . ومن هنا فهو أرقى ما خلق الله في الدنيا . . رغم قدرة الشمس . . وقوة الريح . . وجبروت الأمطار . . وضخامة النبات . . والقدرة البدنية للحيوان . . فان هذا الانسان أرقى هؤلاء جميعا . . وكل هذه الأشياء مسخرة لخدمته . . بارادة الله . . وليس بارادة الانسان . .

فاذا كانت مخلوقات الدنيا هي : الجماد . . والنبات . . والحيوان . . والانسان . . وكل خلق منها يعلو على الآخر . . فيكون مسخرا له . . وهذا لا يتوقف على القوة . . ولا على الحجم . . وانما على ارادة الله . . الجماد يخضع للمخلوقات الأرقى منه . . وهي النبات والحيوان والانسان . . والنبات يخضع لمن فوقه . . وهما الحيوان والانسان . . والحيوان . . يخضع لمن فوقه وهو الانسان . . فلمن يخضع الانسان . . يخضع لخالقه . . يخضع لله سبحانه وتعالى ليكون هناك انسجام في الكون . . كل شيء يخضع لما فوقه . . ومن هنا يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ .

ومن هنا كان هدف الانسان أن يخضع لخالقه الذي سخر له كل ما في الكون . . وهذا هو الذي يعطي الحياة معناها الحقيقي . . لأن كل شيء يخضع لما فوقه . .

ونحن حين نتدبر في الكون نرى كيف أن الانسان يجب أن يخضع لخالقه . . ليتم الانسجام في الكون . . وعلامة الخضوع هي العبادة . . وهذا هو هدف العقل الأول في أن يعرف ماذا يجب أن يؤدي وأن يتدبر في الكون ليعرف أن كل شيء يجب أن يخضع لما فوقه . . وان الانسان يجب أن يخضع لخالقه . . الذي خلق هذا الكون كله . . وسخره لخدمته . .

ولكن العقل البشري ينسى الله . . وينسى كل هذه المعجزات . . ويتحدث عن العلم . . وعصر العلم . . فماذا استطاع العلم أن يحقق للبشر . .

الانسان والعلم

العلم لا يستطيع أن يخلق مقومات الحياة . . فما بالكْ بالحياة نفسها . . ان الانسان عاجز عن أن يخلق غلافا جويا للقمر مثلا . . أو بحيره بالماء اللازم للحياة . . والزرع . . أو أن يجعل حبة تنبت على يدك . . بدلا من أن تنبت على الأرض . . والقرآن الكريم يقول لنا ان هناك مضلين . . سيأتون ليجادلوا في خلق الانسان . .

ان العلم يتحدد في شيئين رئيسيين . . علم مادي يخضع للتجربة البحتة . . لا يدخل فيه هوى البشر . . ذلك العلم هو الذي يتناول المادة فقط . . وهو الذي يمكن أن يفحص في المعمل . . وتجري عليه التجارب . . وليس فيه هوى النفس البشرية . . وهذا العلم هو الذي أتاحه الله للعقل البشري . . وطلب منه أن يجتهد فيه . . ووعد الله بأن يكشف آياته في الكون لأولئك الذينْ يعملون . . ويبحثون . . ويجرون التجارب . . ويجتهدون . . وعلم آخر هو علم تدخل فيه الأهواء . . وذلك ما لم يدخل فيه معمل . . ولا يمكن اجراء تجارب عليه . . وهذا العلم مثل النظريات الفلسفية والسياسية . . وكل شيء لا يخضع لتجربة المعمل . . هذا العلم تختلف فيه الأهواء وتتصارع . . وسيظل الصراع بينها الى يوم القيامة . . لأن هذا العلم لا يستند على أسس مادية موضوعية بحتة . . وانما تدخل فيه الأهواء الشخصية . .

النوع الأول من العلم . . صاحبه يظل يعاني حتى يصل الى هدفه . . فاذا وصل الى الهدف استفاد منه الناس كلهم . . فالعالم مثلا الذي يجري تجارب في معمله . . على اختراع جديد . . أو شيء جديد . . يظل يسهر ليالي طويلة حتى يصل الى نتائج . . فاذا وصل الى نتائج . . استفادت منها البشرية كلها . . واذا أردنا أن نضرب مثلا لذلك . . فهناك مثلا اكتشاف الكهرباء . . واختراع الراديو والتليفزيون . . والتليفون . . الى آخر هذه الأشياء التي اقتضت بحثا من أصحابها . . فاذا وصل البحث الى نتيجة . . استفادت

منها البشرية كلها . .

أما النوع الثاني من العلم . . فهو الذي يخضع للهوى . . فان صاحبه هو الذي يستعبد . . ويخرجه تعالى . ذلك أنه يضع العلم على هواه . . وعلى أساس ما يرضيه هو . . ومن هنا فان صاحب النظريه الفلسفية أو السياسية . . لا يعاني شيئا بقدر ما يعاني أولئك الذين يخضعون لها . . أو ينفذونها . .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي بعد هذه المقدمة القصيرة ليقول : ماذا قدم العلم للبشرية . . تعالوا نناقش ذلك من واقع التجربة العلمية . . ان أساس الحياة البشرية من خلق الله سبحانه وتعالى لم يتغير . . ولم يتبدل . . ولا يستطيع العلم أن يجد له بديلا . . وانما العلم يقدم الرفاهية للبشر . . أي أنه يجعل الحياة أكثر سهولة . . وأكثر نعومة . . ولكنه لا يعطينا مقومات الحياة . . بل ان الله سبحانه وتعالى علما منه بظلم الانسان للانسان . . جعل مقومات الحياة في يده . . وما أعطاه منها ليد البشر أعطاه بشكل لا يجعل الانسان قادرا على هلاك الانسان باستخدام أسباب الخلق . .

ولنشرح هذه النقطة قليلا . . مقومات الحياة من كرة أرضية . . وشموس . . ونظام كوني لا دخل للانسان فيه . . ولا يستطيع . . ولن يستطيع الانسان بعلمه أن يتدخل ليخلق كرة أرضية جديدة . . أو شمسا جديدة أو نجوما جديدة أو سماوات جديدة . . الى آخر هذا . . هذا خلق الله . . والعلم اذا استطاع أن يكتشف الآيات في هذا الخلق . . يكون قد تقدم تقدما هائلا . . ولكنه لن يستطيع أن يخلق شيئا . . أو يبدله . . أو يغيره . . واذا كنا نتحدث الآن . . ونحن في عصر العلم . . فتلك حقيقة هامة . . لا يستطيع أحد الجدال فيها . .

نأتي بعد ذلك الى مقومات الحياة على الأرض . . الهواء . . والماء . . والطعام . . لوازم ثلاثة لحياة الانسان على الأرض . . الانسان بطبعه لا يستطيع العيش بدون الهواء أكثر من دقيقة أو دقائق . . ولذلك أخرج الله الهواء من قدرة البشر على التحكم في البشر . . فالله شاء أن يكون الهواء مباحا للناس . . جميعا . . لا يستطيع واحد أن يمنعه عن مجموعة من الناس فيهلك . . بل انه أخضع الهواء لعدله . . فكان متساويا بين الناس

جميعا . . فقيرهم وغنيهم وعظيمهم وذلك الذي لا يملك من أسباب الدنيا شيئا . . فهم جميعا يتنفسون بنفس السهولة . . وبنفس الطريقة دون أي عناء . . يصلهم الهواء الى حيث هم وأينما كانوا في حجرات مغلقة . . أو في الطريق . . أو في السيارة . . أو في أي مكان في العالم . . فان الهواء يصلهم سهلا . . ميسرا . . متاحا . . للجميع . . وهذا عدل الله سبحانه وتعالى . . ولا دخل لبشر فيه .

نأتي بعد ذلك الى الماء . . وهو ما يستطيع الانسان أن يعيش بدونه يوما . . أو عدة أيام . . نجد أن القدرة على اختزان الماء قليلة . . والقدرة على منع الماء عن البشر قليلة . . ومحدودة . . وان كانت لها امكانيات . . وهنا يتدخل ظلم الانسان . . ولكن بقدر محدود جدا . نظرا لأهمية الماء للحياة البشرية . . نأتي بعد ذلك للطعام . . فنجد أن قدرة الانسان على اختزانه ومنعه . . أكبر . . ولكن احتمال الانسان لعدم تناول الطعام أكثر . . فان الانسان يستطيع أن يتحمل عدة أيام بدون طعام . . ولكنه في نفس الوقت يستطيع أن يحصل على ما يقيم أوده . . أو يبقي الحياة في جسده بسهولة نظرا لأن الكمية التي يحتاج لها الجسم البشري من الطعام ضئيلة نسبيا . . فهي كما قال رسول الله ﷺ لقيمات أي كمية محدودة من الطعام وكلما زاد اقبال الانسان على الطعام فسد جسده واعتلت صحته . .

وهذه هي مقومات الحياة الثلاثة . . شيء لا يستغني عنه الانسان . . ولا يستطيع الحياة بدونه أبدا وهو الهواء . . نافذ فيه عدل الله . . ليحصل كل انسان على حاجته بلا عناء . . وشيء يستطيع الانسان أن يستغني عنه يوما وهو الماء . . متوافر للناس وشيء ثالث وهو الطعام . . تحكم البشر فيه أكثر . . ولكن احتمال الانسان للعيش بدونه أكبر . . وهنا ترى عدالة السماء في توزيع مقومات الحياة . . وتدخل الانسان فيها .

نأتي بعد ذلك الى العلم . . ماذا استطاع العلم أن يقدم للانسان من هذه المقومات . . الهواء المحيط بالأرض . . هل يستطيع العلم أن يخترع غلافا جويا . . كذلك الذي يحيط بالأرض . . أو أن يوفر الهواء على كوكب القمر مثلا . . مثل توفير ارادة الله للهواء حول الأرض . . وبنفس العدالة . . الجواب : مستحيل طبعا . . فاذا انتقلنا من الهواء الى الماء . . هل يستطيع العلم أن يمد ماء . . أو يوصل ماء لكوكب من الكواكب

ليس فيه ماء ويجعل الحياة ممكنة فيه . . هل يستطيع العلم أن يخلق ماء على كوكب من الكواكب . . كالماء الموجود على الأرض يشرب منه ألوف الملايين من البشر والحيوانات . . والطيور . . وكل شيء حي . . بحيث يكون متوافرا . . ويسقي هؤلاء جميعا . . ويسقي أرضهم . . وينبت لهم الزرع ليأكلوا منه . . الجواب : مستحيل . . فالعلم عاجز عن أن يمد الصحارى في الأرض بالماء اللازم لها . . للزرع . . وهناك مساحات شاسعة من الأرض صحراء جرداء . . لا يستطيع العلم ان يعطيها الماء . .

بل اننا نجد الصحراء تمتد بجوار الأرض الخضراء . . تلك فيها حياة . . والأخرى ميته لا حياة فيها ولا ماء . . والعلماء يعترفون أن العلم عاجز عن أن يسقي البشر ماء . . رغم أن الله سبحانه وتعالى قد أتاح للعلماء معرفة تكوين عناصر الماء . . وطريقة تكوين السحب . . ولكن كل هذا هو من خلق الله . . والعلم لا يستطيع أن يقدم شيئا في ذلك . . ولا يستطيع أن يخلق ظروف الحياة . . على كوكب لا حياة فيه . .

ننتقل الى الطعام . . هل يستطيع العلم أن يجعل حبة تنمو على يدك . . أو على شيء غير الأرض . . أو التربة الأرضية . . هل يستطيع العلم أن يزرع زرعا في الهواء فينمو ويزدهر . . لا يستطيع . . بل يجب أن ينمو الزرع في الأرض . . وأن يتغذى من التربة وبالماء . . ومن هنا فان مقومات الحياة الثلاثة لا يستطيع العلم أن يقدم للانسان فيها شيئا . . ولا يستطيع أن يعطيه فيها بديلا . . الانسان محتاج الى الهواء . . والماء . . والأرض . ليعيش . والعلم عاجز عن أن يخلق له ماء أو هواء . . أو أرضا جديدة . .

وكل ما يستطيع أن يقدمه العلم هو الرفاهية . . بمعنى أنني عندما أحس بالعطش يجب أن أذهب الى النهر أو الى النبع . . أو الى مكان فيه ماء لأشرب . . العلم يجعل هذا الماء يصل الى مكاني مثلجا . وبالنسبة للطعام . . المفروض عندما أجوع أن أذهب الى المكان الذي يزرع فيه الطعام أو يست فيه لاكل . . العلم يوفر لي هذا الطعام في بيتي . . ويستطيع أن يكتشف طريقة لتحسين الانتاج وتطويره . . بحيث يكون الحجم أكبر . . والطعام أشهى . ولكنه لا يستطيع أن يخلق طعاما . . والعلم يوفر لي رفاهية في العمل الذي أقوم به . فيخترع لي آله بدلا من الفأس الذي استخدمه في الزراعة . . ويخترع لي

آلة حاسبة أو عقلا الكترونيا يقوم بالحسابات . . وييسر لي الانتقال السريع بالطائرة . . الى غير ذلك من وسائل الانتقال . . ولكنه لا يخلق لي شيئا من مقومات الحياة . . وهذا واضح في قول الله سبحانه وتعالى . . في سورة الواقعة حينما يتحدث عن مقومات الحياة . . وكيف أنها من صنعه سبحانه وتعالى . . فيقول : ﴿أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ . . ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾ . . ﴿أفرأيتم النار التي تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون﴾ . .

بقيت نقطة هامة جدا وهي نقطة الخلق . . وهذه محتاجة الى حديث قادم حيث أن هناك من يجادل في خلق الله . . وهناك من يحاول أن ينكر الدين . . والله سبحانه وتعالى قد أنبأنا عن هؤلاء في القرآن . . وقال لنا الله ان هناك أناسا مضلين سيأتون . . ويحاولون أن يضلوكم عن دينكم . . ويتحدثوا عن خلق السموات والأرض . . وعن خلق الانسان . . وهم سيحاولون اضلالكم عن الحق . . هؤلاء المضلون الذين أنبأ القرآن عنهم قد جاءوا . . وبدأوا في محاولة اضلال الناس . . ولكن مجيئهم كان تثبيتا للدين . . وتصديقا للقرآن . . فلو أن هؤلاء المضلين لم يجيئوا ولم يجادلوا في خلق السماوات والأرض . . لكان عدم مجيئهم ضد قضية الدين . . فالله سبحانه وتعالى قد قال لنا ان هناك مضلين . . وانهم سيأتون . . ويجادلونكم في الخلق . . فكأن هؤلاء المضلين في محاولاتهم التشكيك في الدين . . إنما يثبتون أن هذا الدين حق . . ولكن كيف . .

الانسان وخلق الله

من الذي ميز الانسان عن أي انسان اخر مخلوق مثله . . رغم تشابه الخلق . . وجعل الفرد رغم تشابه الخلق مميزا عن الدنيا كلها . . بحيث لا يتكرر شخص رغم تكرر الخلق . . هل تستطيع أن تميز بين عصفورة وعصفورة . . أو بين قرد وقرد أو بين أسد وأسد . . ولماذا التمييز . .

واذا أردنا أن نستشهد بالقرآن الكريم في أمر هؤلاء الذين يضلون عن سبيل الله . . فاننا نجد الاية الكريمة : ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض . . ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا﴾ . . ومعنى الاية الكريمة أن هناك أناسا سيأتون ليضلوكم عن سبيل الله . . ويتحدثوا عن خلق الانسان . . وخلق السموات والأرض بنظريات من صنع هواهم . . لا تستند الى الحقيقة ولا الى الواقع . . وأنا أقول من الآن ان هؤلاء الناس لم يشهدوا معي . . أو لم اشهدهم لم يشهدوا معي . . ولا خلق الأرض . . ولا خلق الانسان . . وما كنت متخذا من هؤلاء المضلين عونا لي في الخلق حتى يقولوا ما يعلمون .

لو لم يأت هؤلاء المضلون لقلنا ان القرآن قد أخبرنا أن هناك من يأتي ليضل من سبيل الله . . وهؤلاء لم يأتوا . . . ولو أن هؤلاء الناس لم يجادلوا في خلق السموات . . وخلق الأرض . . وخلق الانسان . . لقلنا ان القرآن قد أنبأنا أن هناك أناسا سيجادلون في الخلق . . ويضلون عن سبيل الله . . ولكن هؤلاء الناس جاءوا ليضلوا عن سبيل الله . . وتركوا مسألة خلق السموات والأرض . . وخلق الانسان . . ولم يجادلوا فيها باعتبار أنها مسألة غيبية . . ومن هنا كان من الممكن جدا أن يأتي هؤلاء المضلون . . ويجادلوا في الله . . ولكن عندما نأتي نقطة خلق السموات والأرض . . وخلق الانسان . . يقولون لن نجادل في هذا الأمر . . حيث انه أمر غيبي خارج عن نطاق علمنا . . ولم نشهده . . ولا نستطيع أن نجادل فيه . . كان من الممكن أن يحدث هذا فعلا . . ولكن كون هؤلاء المضلين أتوا . . وكونهم جادلوا في خلق السموات والأرض . . وفي خلق الانسان . .

وجادلوا دون برهان مادي يستطيعون تقديمه . . فهم لا يستطيعون مثلا وضع الشمس والقمر داخل معمل لإجراء تجارب عليهما . . أو ادخال الروح البشرية تحت الميكروسكوب . . ولكنهم رغم علمهم المحدود . . جاءوا وجادلوا في هذه الأشياء . . ليس عن علم ، ولكن عن هوى . . حينئذ نقول ان هؤلاء المضلين قد قدموا الدليل على صحة القرآن وأنه منزل من عند الله وقدموه وهنا المعجزة . . وهم يحاولون الاضلال عن سبيل الله . . أي أنهم أثبتوا أن الله حق . . وأن القرآن حق . . بينما هم يحسبون أنفسهم أنهم يضلون . .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي فيقول اذا أردنا أن نناقش أحدا من الذين يضلون عن سبيل الله . . أو ينكرون وجوده سبحانه وتعالى . . فانهم لا يقدمون الدليل . . أو الحجة على ما يقولون . . ولا يناقشون جوهر الرسالة نفسها . . يأتي الواحد منهم ليقول إن هذا القرآن ليس منزلا من عند الله مثلا . . وهذه قضية جدلية . . لا يستطيع أن يثبتها . . فالله سبحانه وتعالى لم يخبره بهذا . . وهو لم يأت بعلمه الانكاري عن أي طريق يقيني . . وانما هو أتى به عن طريق هوى في نفسه . . يريد أن يحققه بالهروب من شريعة الله . . الى شريعة أخرى . . تعطيه فوق ما له من حقوق . . وتسلب الآخرين ما لهم من حقوق .

ومن هنا فاننا اذا أردنا أن نناقش هذا الموضوع لا يجب أن نبدأ المناقشة بهذه النقطة . . ولكننا يجب أن نقول لكل من يجادل في الله محاولا الانكار . . تعال وناقشنا في المنهج الذي وضعه الله . . تعال وناقشنا في المبادىء التي وضعها الله . . ولكننا نجد أنه يهرب من المناقشة . . ويحاول أن يتخلص منها . .

على أن الذين يجادلون في خلق السموات والأرض . . وخلق الانسان . . انما يأتون بأشياء عجيبة . . يحاولون إلباسها ثوب الحق . . وهي باطل . . ويحاولون أن يخدعوا الناس بأشياء كثيرة لا تمت الى العلم بصلة . . نجد واحدا يأتي ويقول ان أصل الانسان قرد . . ثم هناك حلقة مفقودة . . ونظرية الارتقاء الى آخر ما يقال في هذا الموضوع . . هذا شيء مبني على الظن . . فالرجل الذي قال هذا الكلام لم يشهد قردا تحول الى انسان . . ولا يستطيع أن يحول قردا الى انسان . . اذن فهي نظرية غير يقينية مبنية على افتراضات

شكلية بعيدة عن العلم تماما . .

ولكننا حين نبدأ المناقشة معه في المضمون . . نقول له . . تعال . . هل شهدت قردا يتحول الى انسان . . سيقول لا . . هل تستطيع أن تحول قردا الى انسان . سيقول لا . . هل شهدت خلق الانسان . . يقول لا . . نقول اذن علام تبني نظريتك . . على أي أساس . . يقول على الملاحظة والتخمين . . نقول له . . اذا كان كذلك . . فلنناقشك بالملاحظة والتخمين كما بنيت نظرياتك .

هل تستطيع أن تفسر لنا كيف ميز الله الانسان . . سيقول انها نظرية الارتقاء . . نقول له نريد أن نتوقف قليلا . . الانسان كمخلوق من خلق الله مثله مثل باقي خلق الله . . ولكن الله سبحانه وتعالى ميزه بأشياء كثيرة . . أهمها العقل الذي يميز به الانسان بين الحق والباطل . . والذي يكون في كثير من الأحيان هو الطريق الى الضلالة . . اذا وضع العقل البشري تحكم مطلق . . وزاد عليه الغرور الانساني . .

والآن فلنبدأ . . هل نستطيع أن نميز بين عصفور وعصفور آخر من نفس الجنس . . هل تستطيع أن تميز بين حصان وحصان آخر من نفس الجنس واللون . . وهل تستطيع أن تميز بين جاموسة وجاموسة . . أو قرد وقرد . . أو أسد وأسد . . أو أي حيوان وحيوان اخر . . الجواب طبعا لا . . ولكنك تستطيع أن تميز بين انسان وملايين البشر . . رغم أننا كلنا مخلوقون بنفس الشكل . . فكل منا له عينان . . وأذنان . . وأنف . . وفم . . ويدان وقدمان . . أي أن الشكل العام واحد . . ولكن كل انسان له صورة معينة . . تميزه عن ملايين البشر . . فأنت حين ترى انسانا بين الملايين التي تسكن الكرة الأرضية . . تقول هذا علي . . وهذا اسماعيل . . وهذه فاطمة وهذه زينب . . وهذا أبي . . وهذه أختي . . الى اخر كل هذا . .

من الذي ميز الانسان عن أي انسان أخر مخلوق مثله . . وجعل هذا التمييز تمييزا خاصا . . رغم تشابه الخلق . . ووضع هذا التمييز في كل انسان ليستطيع أن يميز زوجته وابنه وأباه . . وأصدقاءه . . الى اخر هذه العملية . . بل ويستطيع هو أن يكون مميزا عن الناس أجمعين الذي هو الله سبحانه وتعالى ليستقيم ذلك مع الحياة التي رسمها له . .

فهو مميز في الدنيا ليمكن حسابه في الآخرة . . ويكون شهيدا على نفسه . . وهو مميز في الدنيا ليكتب عمله له أو عليه . . وهو مميز في الدنيا لأنه سيحاسب في الآخرة . . فلو أن الانسان كان غير مميز . . والخلق متشابه . . لكانت حياة الانسان على الكرة الأرضية مستحيلة التنظيم . . لماذا ؟ . . لأن الانسان لم يخلق للدنيا وحدها . . وانما خلق للدنيا وللآخرة . . خلق وسيحاسب ويكون شهيدا على نفسه . . وأنا حين لا أستطيع ان أميز أبي وأمي وأولادي . . وزوجتي . . والناس حولي . . كيف يمكن أن أحاسب . . وكيف يمكن أن يأتي هؤلاء الناس الذين أسأت اليهم . . وأكلت حقوقهم في الآخرة . . ليكونوا شهداء ويأخذوا حقوقهم من حسناتي . . وكيف يمكن أن أكون شهيدا على نفسي . . وأنا لا أميزهم . . وكيف يمكن أن أحاسب على اتصالي بامرأة أخرى . . وأنا لا أميز زوجتي . . اذن التمييز هنا ضروري وأساسي . . . وقد وضعه الله باعجاز شديد . . رغم تشابه بلايين الخلق . . فان لكل انسان صورة مميزة لا تتكرر . والدليل على ذلك صور وتماثيل الملوك . . الأقدمين التي تركوها في الأرض . . الفراعنة مثلا ماتوا منذ قرون . . فهل تستطيع أن تأتي بانسان . . وتقول هذا رمسيس . . أو هذا هو نابليون . . الجواب مستحيل . . الانسان قائم بذاته . . لا يتكرر رغم تكرر الخلق . . ومن هنا فان الحساب يكون عدلا . . ويقول الرسول ﷺ انه حين يتشفع المؤمنون للعاصين في الآخرة . . لإخراجهم من النار . . يقول الله سبحانه وتعالى . . اذهبو واخرجوا من النار من كان في قلبه حبة خردل من الإيمان . . فيذهبون إلى النار . . فيعرفونهم بصورهم . . أن حياة الإنسان كحيوان بلا تمييز ممكنة إذا كان الهدف هو الدنيا وحدها . . ذلك ان هناك ألوفاً من المخلوقات تعيش بلا تمييز . .

ولكن ماذا عن الآخرة . .

اذن تمييز الانسان ضروري للحساب في الآخرة . . ولو أنه لم يكن هناك حساب وثواب وعقاب . . لما ميز الانسان عن غيره من سائر المخلوقات . . ولكان الخلق قد تشابه كما هو في عالم الحيوان مثلا . . هذا التمييز الدقيق جدا . . المعجز . . لا يمكن أن يأتي بالتطور . . لأنه غاية في الدقة . . وغاية في الاعجاز . . خلق متشابه في كل شيء . . ومع ذلك كل انسان فيه مميز عن الآخر . . تمييزا دقيقا . . بحيث لا يتطابق انسان في هذه

الدنيا كلها مع انسان آخر . . بل لا يتطابق في الخلق من أوله إلى يوم القيامة انسان مع انسان آخر ، أترى الاعجاز الذي يجب أن يسجد له كل ما في السموات والأرض ان الانسان لا يستطيع . . ولا يقدر مهما بلغت عبقريته . . ومهما استعان بقوى الأرض جميعا أن يصنع أشياء متكررة منمرة لا يشبه أحدها الاخر . . مستحيل . . وفكر قليلا في كل شيء يصنعه الانسان . بل نصنعه أكبر عقول البشر . . لا يمكن تمييز شيء متشابه بحيث يكون لكل فرد منه شخصية معينة . . ليكون مميزا تمييزا دقيقا عن البلايين غيره . . أي ارتقاء هذا الذي يتجاوز كل قدرات الدنيا . . أي ارتقاء يمكن أن يضع هذا الاعجاز المطلق في طفرة واحدة . . ولا مقدمات أي ارتقاء ذلك الذي يقفز بالانسان ليجعله سيد الأرض كلها . . ويجعل كل شيء مسخرا لخدمته . .

ولكن بعض الناس يحاول أن يفرض أشياء خاطئة . . ثم يدّعي كذبا أنها الحقيقة . . وفي خلق الانسان . . معجزات لا يمكن أن تكون طفرة . . ولا ارتقاء . . ولا أي شيء . . مثلا العقل البشري . . ذلك الذي ميز به الله سبحانه وتعالى . . آدم وذريته . . والعقل البشري اذا أردت أن تخلق عقلا الكترونيا في قوته . . فانك محتاج الى أضعاف مساحة الكرة الأرضية . . لتقيم هذا العقل . . لأن العقل البشري الصغير الذي تراه أمامك في هذه المساحة المحدودة . . مكون من ألف مليون خلية عصبية . . وأريدك أن تضع معي خيالك قليلا . . ألف مليون خلية في هذه المساحة الصغيرة . . هذه الألف مليون خلية تعمل وتترجم وتهاجم وتدافع . . وهناك ثلاثة آلاف شعيرة تتذوق الطعام وتقول للانسان هذا حلو . وهذا مر . . واذا اقترب جسدك من شيء حار . . صرخت ٣٠ الف خلية في مخك . . احترس هذه نار . . الى آخر الاعجاز في الخلق . .

كل هذا الاعجاز لا يمكن أن يتم بالارتقاء أبدا . . فالطفرة رهيبة بين الانسان وغيره من المخلوقات لا يمكن إلا ان ينطبق عليها قول الله سبحانه وتعالى . . ﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ . .

على أن بعض الناس يجادل ويقول كيف يكون هناك من هو موجود بلا حيز ولا مكان ولا زمان . . وأنا أقول أنظر الى نفسك تعرف الجواب .

ليس كمثله شيء

الأشياء يجب أن تنسب الى الفاعل لتستطيع أن تدرك معناها . . فاذا قلت ان طفلا ضربني بكل قوته . . وقلت ان أقوى رجل في العالم ضربني بكل قوته فالفعل واحد . . ولكن الفرق بين الفاعلين كبير . . واذا كان هذا في قوانين البشر . . فما بالك بقدرة الله . .

يأتي هؤلاء المضلون محاولين استغفال عقول البشر . . واثارة قضايا لا تتفق أو تتصادم مع ظاهر العقل البشري . . والله سبحانه وتعالى قد جعل لكل قضيه تتصادم مع ظاهر العقل البشري حلا يقربها الى ذلك العقل . . حتى يستطيع الانسان أن يواجه هؤلاء المضلين بالحجة البالغة التي هي من عطاء الله للنفس البشرية . . فالله سبحانه وتعالى كان لطيفا في علمه . . لطيفا بعباده . . فأعطاهم أمثلة تقرب الى عقولهم ما يعجزون عن فهمه . . مثلا يقول أحد الذين يضلون عن سبيل الله . . ويحاولون إيجاد تصادم وهمي بين كلام الله . . والعقل البشري . . كيف يكون هناك من هو موجود بلا حيز ولا مكان ولا زمان . . وأنا أقول ان الله سبحانه وتعالى بسط هذه المسألة . . وجعلها في أنفسنا لتقرب ما الصورة وتجعلها موجودة أمام العقل البشري بشكل قريب . .

والسؤال الذي أطرحه هنا هو عن الانسان . . عن نفسك . . أنت تتساءل عما هو موجود بلا حيز ولا مكان ولا زمان . . وأنا أسألك عن روحك . . أين هي هذه الروح التي تجعل كل جسدك يعمل وينطق ويرى ويعيش . . هل هي في قلبك الذي ينبض بلا توقف ما دامت الروح فيك . . أم هي في عينيك تجعلهما يبصران فتريان الأشياء . . أم هي في أذنيك تجعلهما تسمعان . . أم هي في صدرك تجعله يتنفس . . أم هي في معدتك تجعلها تقوم بوظيفتها لتغذية جسمك . . أم هي في اليدين تجعلهما تتحركان وتفعلان ما تريد . . وتبطشان بمن تريد . . أم هي في قدميك تمشي بهما وتجري كلما شئت . . أم هي في امعائك

تجعلها توصل الطعام للدم . . أم هي في عقلك تجعله يفكر ويحسب . . ويدبر لك شؤون حياتك . . أم هي في دمك تجعله ينبض ويجري في عروقك ليعطيك الحياة . . أين مكانها بالضبط . . هل تستطيع أن تحدده . .

قد يرد بعض الناس ليقولوا انها في عقلك . . فهو الذي تتصرف به ويعطي الاشارات لكل شيء لينحرك . . ولكن هذا مردود عليه بأن في الجسم مئات من الأشياء غير الارادية التي تعمل دون ارادة الانسان . . فالقلب ينبض بلا ارادة . . والدم يمشي في العروق بلا ارادة . . والتنفس يتم بلا ارادة . . والمعدة تعمل بلا ارادة . . الى آخر ما تستطيع أن تعدده في الجسم البشري .. اذن فهناك الروح وهي مخلوق لله سبحانه وتعالى . . وقد وضعها الله في جسدك . . ورغم ذلك . . رغم ضيق المكان . . وتحديده فانك لا تستطيع أن تقول . . أين هي الروح على وجه الدقة . . ولا تستطيع ان تحدد مكانها لتقول هنا في هذه النقطة توجد روحي . . فاذا إردنا أن نحدد الوزن نقول ان الجسد لا يفقد شيئا بعد الموت . . الوزن واحد تماما . . ومع ذلك فان الروح تكون قد خرجت من الجسم . . ومن هنا فانك لا تستطيع أن تحدد للروح مكانا ولا وزنا . . وهي مخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى . . فاذا أردت أن تحدد لها الزمان تحديدا علميا مطلقا يعتمد على أبحاث المعامل دون هوى من النفس . . فانك لا تستطيع . . فأنت لا تعرف ان كانت روحك موجودة قبل ميلادك أم لا . . ولا تعرف أين تذهب بعد الموت . . ولا تعرف عمرها حتى يوم القيامة ولا بعد يوم القيامة . . ولو أن الله لم يخبرنا بأمرها قبل ميلاد الانسان وبعد وفاة الانسان لعجزنا عن أن نعرف ذلك تماما . . بل انك لا تعرف كم تلبث الروح في جسدك رغم كل ما تحاول العلم أن يحدده . . فالانسان قد يموت فجأة من مرض أو صدمة أو حادث لا تخطر أن يتنبأ به أحد . . ولا تدري نفس متى وقت الموت . . ولا يمكن أن تدري مهما بلغ التقدم من العلم . . ولا يمكن أن تدري بأي أرض تموت . . اذن الزمان هنا غير موجود . . والمكان غير موجود . . والوزن أو الشيء المادي غير موجود . . هذا في خلق من خلق الله . . فما بالك بالله سبحانه وتعالى . .

على أننا بعد ذلك اذا انتقلنا الى نقطة ثانية . . وهي الموت والحياة . . نجد أن الله سبحانه وتعالى قد قرب من الموت شيئا تقريبا من الخلق . . فإن الموت نقض للحياة . .

ونقض الشيء يأتي على عكس بنائه . . فأنت حين تبني عمارة تبدأ بالدور الاول أو الأساس . . وحين تهدمها تبدأ بالدور الأخير . . وأنت حين تذهب الى الاسكندرية مثلا وتنزل في محطة سيدي جابر . . فانك حين تريد العودة الى القاهرة تبدأ من محطة سيدي جابر . . اذن الموت نقض للحياة أول ما يخرج من الجسد هو الروح . . وبذلك نكون آخر شيء قد دخل فيه . . ثم يتصلب الجسم الى حمأ مسنون . . ثم يتحلل الى طين لازب . . ثم الى تراب . . وهذه الأطوار هي العكس المقابل لأطوار الخلق . . كما ذكرها القرآن الكريم .

على أن الله سبحانه وتعالى حينما يريد أن يعطينا . . يعطينا قضية عامة . . فاذا رأيت فيها شيئا يقف فيه عقلك . . لأنه يخالف ما تعتاد وتألف فضعها تحت عنوان سبحان الله . . وليس كمثله شيء .

ونفسر هذه العبارة قليلا . . اذا قلت ان فلانا قد ضرب فلانا بكل قوته . . هل تعني نفس الشيء . . الجواب أبدا . . لا يكون للشيء معنى الا اذا نسب لفاعله . . ووضعت فيه قدرات هذا الفاعل . . بمعنى أنني اذا قلت ان طفلا صغيرا عمره أشهر ضربني بكل قوته . . وقلت ان بطل العالم في الملاكمة ضربني بكل قوته . . فهناك فرق كبير بين المعنيين . . الأول ضربه لا يؤثر في . . ولا أحس به . . . والثاني ضربه قد يقتلني . . مع أن الاثنين قد استخدما كل قوتهما التي وهبها الله لهما في عملية الضرب . . ولكن الفعل هنا يتناسب مع القوة . . فالطفل الصغير لا أكاد أحس بضربه . . وبطل العالم يستطيع أن يحطم ضلوعي بسهولة . . هذا في قدرة البشر المحدودة . . هذا في قوة المخلوقات . . فما بالك بالله سبحانه وتعالى . . الخالق . .

واذا أخذنا هذا المثل . . ووضعنا الله سبحانه وتعالى تحت عبارة سبحان الله . . وليس كمثله شيء . . استطعنا أن نقرب كثيرا من المعاني التي قد يستغلها البعض لاضلال البشر . . لله سبحانه وتعالى قوة . . ولي قوة . . ولكن هل قوتي مثل قوة الله سبحانه وتعالى . . لله سبحانه وتعالى علم . . ولي علم . . ولكن هل علمي مثل علم الله سبحانه وتعالى . . والله حي . . وأنت موصوف بالحياة . . فلا نقول ان حياتك مثل حياة الله سبحانه وتعالى . . وجود الله سبحانه وتعالى ليس كوجودك . . وعلمه ليس كعلمك . . وقدرته

ليست كقدرتك . . ومن هنا يخرج وجه المقارنة . . حيث أنه لا مقارنة . . فالله بقدراته وقوته يأتي تحت وصف سبحان الله . . وليس كمثله شيء . . ومن هنا فانني لا يجب أن أنسب الى نفسي بالمدلول البشري ما يقول الله سبحانه وتعالى عن ذاته . . فعندما أتصور قوة الله لا أقارنها بقوتي . . ولكني أقول سبحان الله . . وليس كمثله شيء . . وعندما أتصور انتقام الله لا أقارنه بانتقامي . . وانما أضعه تحت عبارة سبحان الله . . وكيس كمثله شيء . .

ومن هنا نجد أننا اذا تذكرنا«سبحان الله . .وليس كمثله شيء» . . يمكن أن نصل إلى مدلول أشياء كثيرة . . فأنت مثلاً لا تستطيع أن تتصور إلا ما تراه . . وعندما يخبرك الله سبحانه وتعالى عن أشياء لا تراها تضعها تحت عنوان سبحان الله وليس كمثله شيء . . لأنه شتان بين رؤ يتك ورؤ ية الله سبحانه وتعالى . . مثلا سبحان الله الذي أسرى بعبده . . من الذي أسرى . . الله سبحانه وتعالى . . أسرى بنبيه الى المسجد الأقصى . . لا تأتي لي في هذه الحالة بقوانين الزمان . . وقوانين المكان التي تنطبق عليك أنت . . والتي تستطيع أن تراها وتتصورها . . ثم تحاول أن تطبقها على فعل من أفعال الله . . لماذا ؟ . . لأن الله ليس كمثله شيء . . ومن هنا فان هذه القوانين التي تحكمك لا تحكمه . . والزمان والمكان اللذان تخضع لهما لا وجود لكليهما عند الله سبحانه وتعالى . . لأنه ليس كمثله شيء . . الذي أسرى بمحمد ﷺ هنا هو الله سبحانه وتعالى . . ولذلك حين قال بعض الصحابة أيستطيع محمد أن يذهب الى بيت المقدس . . ويصعد الى السماء . . ويعود في ليلة واحدة . . نقول ان محمدا عليه الصلاة والسلام لم يدع ذلك . . وانما أسري به . . والذي أسرى به هو الله سبحانه وتعالى . . والله ليس كمثله شيء . . ومن هنا فان قوانين الزمان والمكان . . وقوانين الدنيا كلها . . والقوة والقدرة الى آخر كل ما يتصوره البشر لا ينطبق على الاسراء . . لأن الله هو الفاعل . . والله ليس كمثله شيء . . وإذا كان كل شيء يأتي بالتشابه . . فان الذي يأتي من الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء . . ولذلك عندما نقول سبحان الله وليّس كمثله شيء . . فاننا نعلو به سبحانه علوا كبيرا عن كل شيء يأتي بالتشابه . . اذن كل ما نطق به الله سبحانه وتعالى خذه على أنه له . . أما عن كيفيته فلا أحد يستطيع أن يصل اليه . . لماذا ؟ . . لأنه ليس كمثله شيء . .

والغيب والملائكة

« عندما يحدثنا الله سبحانه وتعالى عن معجزة من المعجزات التي يؤيد بها أنبياءه أو . . عن عالم الجن أو الملائكة الذي لا نراه . . يجب أن نعرف أنها حقائق . . لماذا ؟ . لان ما هو فوق قدرة العقل موجود . . وما هو فوق قدرة السمع موجود . . وما هو فوق قدرة البصر موجود . . » .

الذي أسرى هو الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا فان قوانين الزمان والمكان . . وقوانين الدنيا كلها . . والقوة والقدرة لا تنطبق على الاسراء . . لأن الله هو الفاعل . . واذا كان كل شيء يأتي بالتشابه فان الذي يأتي من الله سبحانه وتعالى ليس كمثله . . بل هو يعلو علوا كبيرا عن كل شيء يأتي بالتشابه . .

ومن هنا عندما يحدثنا الله سبحانه وتعالى عن معجزة من المعجزات التي يؤيد بها أنبياءه . . أو عن عالم الملائكة والجن الذي لا نراه . . فنحن نعرف أن هذه حقائق لأن الله سبحانه وتعالى قادر وقدرته لا تقارن بالدنيا كلها . . وعلمه لا يصل الى ذرة من ذراته . . علم البشر جميعا . . فهو يخلق ما نرى . . . يخلق ما لا نرى . . ويخلق ما لا نراه الان . . وقد نراه في المستقبل . .

ولكن الله سبحانه وتعالى كما قلت لطيف بعباده . . ومن هنا فانه يضع في الكون آيات تقرب الى العقل البشري . . ذلك الذي يعجز عنه هذا العقل وتجعله قريبا من تصوره . . وهو بذلك يريد أن يدخل الاطمئنان الى قلوبنا . . وأن يعطينا الايمان واليقين بحيث يستطيع أن يجابه المضلين . . وأن نرد عليهم . . والانسان المؤمن دائما في قلبه سكينة . . وفي قلبه أمل . . ذلك أنه يؤمن بقدرة الله التي هي بلا حدود . . ويؤمن بان الله الذي كتب على نفسه نصر المؤمنين . . وكتب على نفسه انجاء المؤمنين . . وكتب على نفسه أن يدافع عن الذين آمنوا . تلك القدرة الهائلة . . قادرة على حمايته . . وعلى دفع

الضر عنه . . ولو كانت أسباب الدنيا كلها ضده . .

ولكن كما يجادل بعض الناس في الروح يأتي واحد منهم ويقول ما هذا الكلام عن عالم الجن والملائكة . . أنا لا أصدق الا ما أراه . . ويجادل ويجادل الى آخر هذا الكلام . . فاذا قلت له هل شهدت الخلق . . هل شهدت خلق الجن والملائكة . . يرد عليك وأنت أيضا لم تشهده . وهنا نرد عليه بأن الله سبحانه وتعالي قد وضع لنا في هذا الكون الدليل على أن ما فوق قدرة العقل . . وما فوق قدرة البصر . . وما فوق قدرة السمع . . موجود في هذا العالم . . . منذ خلق الأرض ومن عليها . . وكل هذا يخرج من علم القادر وهو الله سبحانه وتعالى الى علم غير القادر وهو الانسان . . ليدل على أن ما هو فوق القدرة البشرية . . موجود ولكننا لا نعقله . . ولا نسمعه . . ولا نراه . . ولنناقش هذه المسائل الثلاث . .

ما هو فوق قدرة العقل موجود منذ الأزل . . وان كان قد أصبح في قدرة العقل خلال السنوات الأخيرة مثلا . . أن يطير الانسان في الهواء بطائرة كانت فوق قدرة العقل في الماضي . . بحيث انك اذا قلت منذ مائة سنة مثلا . . انك ركبت طائرة وطرت بها في الهواء لاتهمك الناس بالجنون أو بالكفر . . ولقتلوك . . ولو قلت انك تحدثت في آخر الدنيا فسمعك ملايين البشر في وقت واحد. .لو قلت هذا منذ مائة سنة فقط لما صدقك أحد . . ذلك أن هذا كان فوق قدرة العقل البشري . . ولكنك الآن تذهب الى أي مطار فتركب الطائرة وتطير في الهواء . . وتتحدث في الاذاعة فتسمعك الدنيا من أقصاها الى أقصاها . . كيف حدث ذلك . . هل اخترع الانسان غلافا جويا جديدا للأرض يمكنه من الطيران . . هل دار حول الدنيا ليضع موجات الأثير . . لا . . لا هذا . . ولا ذاك طبعا . . انما الغلاف الجوي كما هو منذ خلق الأرض ومن عليها . . وموجات الأثير كما خلقها الله سبحانه وتعالى منذ بداية الكون . . ولكن الذي حدث أن الله أدخل الانتفاع بهذه الأشياء مما هو فوق قدرة العقل البشري الى علم البشر . . أي أن هذه الأشياء خرجت من علم القادر الى علم غير القادر بكلمة كن . . فاستطاع الانسان أن يطير في الفضاء . . وأن يتحدث فتسمعه الدنيا كلها الى اخر ما حققه وسيحققه العلم بقدرة الله . . وهذا دليل قاطع على أن ما فوق قدرة العقل البشري موجود . . وأن العقل البشري ليس هو الحد

الأعلى للعلم والمعرفة في هذه الأرض . . وأنه كلما تقدم الزمن أعطى الله سبحانه وتعالى علما كان فوق قدرة البشر أعطاه للقدرات البشرية حتى يستطيع الانسان أن يصل اليه . . وحتى يؤمن الانسان ان ما فوق قدرة العقل موجود . . وحقيقة واقعة . . وان يكن يجهلها . .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ويقول هذا بالنسبة للعقل . . أما بالنسبة لما هو فوق قدرة الأذن فذلك شيء نعرفه كل يوم . . اذا جلست أنت في حجرة مغلقة ليس فيها أي صوت وسألتك أنا هل يوجد صوت في هذه الحجرة . . تقول لي أنا لا أسمع شيئا . . وكوني لا أسمع شيئا . . فانه لا يوجد صوت في هذه الحجرة . . فاذا « أدرت الراديو » سمعت مئات الأصوات من جميع أنحاء الدنيا . . من أين جاءت هذه الأصوات . . هذه الأصوات تسبح في جو الحجرة . . ولكنك لا تستطيع أن تسمعها بالأذن المجردة لأنها فوق قدرة الأذن . . فاذا أتيت بآلة استطاعت أن تجعل هذه الأصوات في قدرة الأذن . . كان في امكانك أن تسمعها وتميزها . . اذن فهذه الأصوات موجودة . . ولكنك لا تستطيع أن تسمعها الا اذا أتيت بآلة تجعل أذنك قادرة على أن تستمع اليها . . وربما في المستقبل تكون هناك اختراعات أخرى بما هو في علم الله . . . . ولم يصل الى العلم البشري بعد . . . تستطيع أن تجعلك تسمع أصواتا لا نسمعها الآن . . ولا ندري عنها شيئا . . بل انني أريد أن أزيد على هذه التجربة لمحة صغيرة . . اذا أتيت بالراديو الترانزستور ووضعت سماعة الأذن الصغيرة في أذنك . . وجلسنا نحن الاثنان معا بجوار بعضنا البعض . . وسألتني هل اسمع شيئا سأقول لا . . هل يوجد صوت هنا سأقول لا . . بينما أنت جالس الى جواري والسماعة في أذنك تسمع الدنيا كلها كما تشاء وأنا بجانبك لا أسمع شيئا . . ما معنى هذا . . معناه أن الجهاز الذي تستخدمه قد جعل الأصوات التي تسبح في الحجرة . . التقطها وجعلها في مقدرة أذنك . . بينما أنا جالس الى جوارك . . وفي نفس المكان . . ولكن هذه الأصوات فوق قدرة سمعي . . هل معنى ذلك أن الأصوات التي تسمعها أنت بسماعة الراديو غير موجودة . . لأنني لا أسمعها . . مستحيل . . ولكن معناه أن هذه الأصوات التي تسمعها أنت وحدك . . والتي هي فوق قدرة أذني موجودة . . ولكني غير قادر على سماعها . . لأنني لا أستخدم الراديو الذي

تستخدمه أنت ليجعلك قادرا على السمع . . نكون بذلك قد وصلنا الى أن ما هو فوق قدرة العقل موجود . . وما هو فوق قدرة السمع موجود . . ثم نأتي الى ما هو فوق قدرة البصر . .

أنت تقول أنا لا أرى العوالم الأخرى التي يتحدث عنها الله . . ومن هنا فهي غير موجودة . . وأنا آتي لك بنقطة ماء من الترعة . . وأقول لك هل ترى في هذا الماء شيئا . . ستقول لا . . وعندما أضع الماء تحت الميكروسكوب . . تظهر فيه مئات الجراثيم الدقيقة الحية التي تتحرك بشكل عجيب . . أقول لك أنظر في الميكروسكوب . . سترى هذه الجراثيم . . بل ان الانسان المريض حينما تأخذ نقطة من دمه فانك لا ترى فيها شيئا . . فاذا وضعتها تحت الميكروسكوب . . أو وضعت عليها سائلا معينا تكتشف جراثيم وأشياء عجيبة . . أين كانت هذه الأشياء . . كانت فوق قدرة بصرك . . فعندما استعنت بالة مكبرة . . جعلتها في قدرة البصر ليصبح من الممكن رؤ يتها . . ولكن هل عدم رؤ يتك لهذه الجراثيم معناه أنها غير موجودة . . أو أن هذه الجراثيم لم تكن موجودة قبل اختراع الميكروسكوب . . كانت موجودة قطعا . . ولكنها كانت فوق قدرة البصر . . وجاء اختراع الميكروسكوب ليدخلها من فوق قدرة البصر الى القدرة البشرية . . ولكنها كانت موجودة رغم أنك لا تراها . .

واذا جلست في حجرة بها تليفزيون . . هذه الحجرة ليس فيها صورة . . فاذا فتحت التليفزيون أصبحت الحجرة فيها صورة . . بل ورأيت وأنت جالس أمامك انسانا يمشي فوق القمر . . هل في قدرة البصر أن يرى انسانا يمشي فوق القمر . . الجواب نعم . . اذا استخدمت امكانيات الله في الكون . . ولقد استخدم العلم امكانيات الله في الكون في نقل الصورة من مكان الى آخر . . فالعلم لم يخترع طبقات الجو التي تنقل الصورة . . ولا يستطيع أن يخترعها . . بل اكتشفها بكلمة كن . . والله هو القادر الذي كان في علمه كل هذا . . وأخرجه الى علم غير القادر . . وهو الانسان . . لماذا ليعلم الانسان علم اليقين . . ان ما هو فوق قدرة عقله موجود . . وان ما هو فوق قدرة سمعه موجود . . وان ما هو فوق قدرة بصره موجود . . حتى اذا حدثه الله سبحانه وتعالى عن قضية غيبية هي فوق قدرة العقل . . أو السمع . . أو البصر . . عرف يقينا أنها موجودة . . وأن ما يقوله

الله سبحانه وتعالى حق . .

اذن ما هو فوق قدرة الانسان موجود فعلا . . وموجود بفرق شاسع . . جدا . . هو الفرق بين قدرة المخلوق والخالق . . والله سبحانه وتعالى أراد ألا تكون هذه القضية الايمانية . . وهي قضية الغيب . . ألا تكون مادة للمضلين ليضلوا بها الناس . . ويبعدوهم عن طريق الله . . فجعل العقل البشري نفسه ينتقل بقدرة الله مما هو مستحيل عقليا ومما هو ممكن . . ليثبت أن ما فوق قدرة العقل موجود . . وجعل العقل يستطيع بقدرة الله أن ينتقل مما هو فوق قدراتها العادية . . وجعل الغير يستطيع أن يرى ما لم يكن يحلم بأنها ستراه . . وكان الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يعطي كل هذا العلم للعقل البشري في اللحظة الأولى التي خلقه فيها . . ولكنه لم يرد ذلك حتى يكون العطاء للانسان عطاء فيه اثبات لقدرة الله . . وفيه اثبات لوجود الغيب . . وفيه اثبات لما هو فوق القدرات البشرية . . وأن يكون العطاء متجدداً لكل جيل . . وعطاء الله لا ينتهي ولا ينضب أبدا .

ولكن هناك بعض القضايا التي يثيرها المضلون . . مثل قضية تغيير القبلة مثلا . يقولون ان الله سبحانه وتعالى يقول ﴿ولله المشرق والمغرب﴾ . . ويقول ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ . . ومن هنا فانني حين أتجه الى أي مكان فهناك الله سبحانه وتعالى . . ثم ان الاتجاه الى المسجد الأقصى أو الاتجاه الى المسجد الحرام ليس فيهما زيادة تكليف . . أو زيادة في الطاعة . . الله سبحانه وتعالى قد يفرض شيئا لزيادة طاعته . . أو زيادة في الايمان به . . ولكن الاتجاه الى المشرق مثل الاتجاه الى المغرب لا يكلف المؤمن شيئا أن يتجه الى هنا أو هناك . . فلماذا نغير القبلة . .

ولا خطر على قلب بشر

إن الله يدافع عن الذين أمنوا . . ويدافع عنهم بقدراته هو . . وليس بقدراتهم هم . . ومن هنا فإن الانسان المؤمن قلبه مطمئن مهما حدث . . نفسه لا تضيع مهما أظلمت الدنيا أمامه . . لأن الله يؤيده بنصره يؤيده بقدرة الله . . وليس بقدرات البشر . .

ولقد اكتشفنا في الغلاف الجوي خصائص مكنت الانسان من الطيران في الفضاء . . ومن الوصول الى القمر . . ولا يستطيع عقل أن يدعي أن ذلك من صنع البشر . . لأن الذي خلق الغلاف الجوي هو الله سبحانه وتعالى . . والذي خلق المادة التي تصنع منها الطائرات أو الصواريخ هو الله سبحانه وتعالى . . والذي أوجد النظرية التي يطير بها الانسان أو يخرج بها من الغلاف الجوي للأرض هو الله سبحانه وتعالى . . ولا يستطيع الانسان أن يصنع شيئا من ذلك . . بل هو اكتشفه . . ومعنى اكتشاف الانسان له . . أن هذه الخاصيات كانت موجودة منذ خلق الله الأرض ومن عليها . . المعادن التي تصنع منها الطائرات . . كانت موجودة في الأرض منذ الخلق . . ولكنها كانت فوق قدرة العقل البشري . . فلم يستطع أن يستخدمها . . ثم أدخلها الله في قدرة العقل البشري ليؤكد لنا . . ويقرب لنا . . أن ما هو فوق قدرة العقل موجود . . وان كنا لا ندري بوجوده . . وأنه من الممكن أن يدخل في نطاق العقل . . فيصبح أمرا ممكنا للبشر . . وهذا حتى لا نجادل عندما يحدثنا الله عن أنباء في الغيب هي فوق قدرة عقولنا . . ولا يأتي انسان مضل ويقول : أنا لا أصدق ما هو فوق قدرة عقلي . . لأنه غير موجود . . ويدعي أنه رجل علمي في تفكيره . . متقدم في أفكاره . . نقول له ان العلم الذي تستشهد به . . والتقدم الذي تتمسح فيه . . كلاهما يكذبك . . لأن العلم هو مثبت مؤكد . . ان ما هو فوق قدرة العقل موجود بما يكتشفه من قدرات في الكون وضعها الله منذ الأزل . . ولم تدخل في نطاق

العقل البشري الا منذ عشرات السنين . . وإن التقدم يكذبك . . لأن التقدم كل يوم يسجل لنا كشفا كان فوق قدرة العقل . . ولكنه موجود . .

ويمضي فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي . . في أن الاذن تستطيع أن تسمع ما يدور في أقصى الدنيا . . بل ما يدور فوق القمر من حديث . . اذا استخدمت لها الالات . . أو الوسائل التي ترفع قدراتها الى ذلك . . فجهاز الراديو الصغير يستطيع أن يجعلك تسمع كل ما يدور في العالم . . والعين تستطيع أن ترى بصرا ممدودا الى ما لا نهاية . . وقد استطاعت باستخدام نظريات وقوانين الله في الكون أن ترى ما يحدث فوق سطح القمر . . وأنت جالس في حجرة في منزلك . .

فاذا كانت الأذن تستطيع أن تسمع ما يدور في الدنيا كلها . . وقد تلاشت المسافة بالنسبة له تماما . . واذا كانت العين تستطيع أن ترى ما يحدث فوق القمر وأنت جالس في منزلك . . أو مكان عملك . . اذا كان هذا كله ممكنا بقدرات البشر . . وبالعلم الذي أعطاه الله لبني آدم وكرمه به . . ورفعه على كل مخلوقاته . . اذا كان هذا العلم اليسير القليل الذي أعطاه الله لبني أدم . . استطاع أن يجعله يسمع ما في الدنيا كلها . . ويرى ما يحدث فوق القمر . . فكيف يكون الحال في الآخرة عندما تكون القدرة لله . . وليست للبشر . . وعندما يكون العلم لله وليس للبشر . . وعندما يعطينا الله سبحانه وتعالى الذي ليس كمثله شيء القدرات . . بدلا من أن تعطيها لنا يد بشرية محدودة القدرة والقوة . . ماذا سترى العين . . وماذا ستسمع الأذن . .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي قائلا ان هذه نقطة لا بد أن نتأمل فيها . . قدرات البشر أرتنا ما فوق سطح القمر . . ونحن جالسون في بيوتنا . . والذي رأى هو العين . . لأن كل هذه الآلات والاختراعات البشرية لا تستطيع أن تجعل رجلا أعمى يرى . . فالذي رأى هو العين التي خلقها الله . . وليست الآلة التي اخترعها الانسان . . الآلة أو جهاز التليفزيون كان وسيلة فقط . . ولكن العين التي خلقها الله غير التي رأت وشاهدت . . ولو أن الله ذهب بنور هذه العين ما استطاعت أن ترى شيئا رغم كل اضافات البشر التي منحها الله لهم بالعلم . .

أقول اذا كانت العين استطاعت أن ترى بقدرات البشر المحدودة ما يحدث على القمر . . . وربما ترى غدا ما يحدث على كوكب الزهرة . . اذا كان ذلك قد تم في الدنيا . . واذا كان الفعل في الآخرة هو من الله سبحانه وتعالى الذي ليس كمثله شيء . . أفلا تستطيع أن تتصور معنى أن الجنة فيها ما لا عين رأت . . عيوننا رأت في الدنيا أشياء كثيرة . . واستطاعت أن ترى بقدرة البشر أشياء تحدث على بعد مئات الألوف من الأميال . . وربما ترى أشياء تحدث على بعد ملايين الأميال . . هذا بقدرة البشر . . فاذا جاءت الآخرة كان ذلك بقدرة الله سبحانه وتعالى . . فترى العين ما لا عين رأت . . والفرق بين الرؤ ية هنا . . والرؤ ية في الآخرة . . انها في الدنيا بقدرة البشر وفي الآخرة بقدرة الله . . وشتان بين القدرتين . . لا مقارنة . .وبالتالي فلا مقارنة بين ما يراه الانسان في الدنيا . . وما سيراه في الآخرة . . الفرق رهيب هائل . . هو الفرق بين قدرة الله سبحانه وتعالى الذي ليس كمثله شيء . . وبين قدرة البشر . . وأكرر . . لا مقارنة .

وما ينطبق على العين . . ينطبق على الأذن . . حينما يأتي الحديث الشريف ان الانسان سيسمع في الجنة ما لا اذن سمعت . . أقول ان ذلك صحيح مائة في المائة . . وانه سيكون هناك فرق رهيب وهائل بين ما تسمعه الأذن في الدنيا . . وما ستستطيع أن تسمعه في الآخرة . . الأذن في الدنيا بقدرة الله سبحانه وتعالى قد استطاعت أن تسمع انسانا يتكلم في آخر العالم . . بل انسانا يتكلم فوق القمر باستخدام آلة صغيرة هي الراديو . . وباكتشاف قوانين الله في الكون وهي الأثير الذي يحمل الصوت للدنيا كلها . . وكما قلت عن العين أقول عن الأذن . . الأذن أيضا هي التي تسمع كل الآلات المخترعة وسيلة . . ولكنها وسيلة لا تسمع الصم . . انما الذي يسمع هو الأذن التي خلقها الله سبحانه وتعالى . . فعندما نقول ان الآخرة سيكون فيها ما لا اذن سمعت . . تسجد لجلال هذه العبارة . . ذلك أن الفارق سيكون رهيبا وهائلا . . وهو الفرق بين قدرة الله خالق كل شيء . . وبين قدرة البشر المخلوق . . وما دام هناك لا مقارنة بين قدرة الخالق والمخلوق . . فلا مقارنة بين ما تسمعه الأذن في الدنيا . . وما ستسمعه في الآخرة . .

فاذا حدثنا الله سبحانه وتعالى عن الغيب . . واذا حدثنا عن عوالم الملائكة والجن . . واذا رجعنا الى الحديث الشريف أنه في الجنة سيكون هناك ما لا عين رأت . .

ولا أذن سمعت . . ولا خطر على قلب بشر . تعلم أن هذا يقين لماذا لأننا حين نأخذ ما في أيدينا . . ثم نقارن نجد أن الفرق سيكون هائلا . . واذا كان العلم قد تقدم ليكتشف قوانين الله في الأرض واستطاع أن يقدم للعين قوة الرؤية على بعد ملايين الأميال . . وأن يقدم للأذن قدرة السمع على بعد ملايين الأميال . . والعلم سيتقدم في الأجيال القادمة ليقدم لنا أكثر من ذلك . . وأكثر . . وبعد مائة أو مائتي عام . . وبما استطاعت العين أن ترى ما لاتراه الأن . . كما استطعنا نحن مثلا أن نرى الميكروبات التي لم يكن يراها أجدادنا . . وأن نرى الانسان فوق القمر الذي لم يره الجيل الذي قبلنا . . وستكون الأذن قد تقدمت لتسمع ما لا تسمعه الآن . . تماما كما تقدمنا نحن لنسمع ملايين الأصوات التي لم نكن نسمعها من قبل . . ولكن المهم هو أن الفرق سيبقى كما هو . . وهو الفرق بين قدرة البشر . . وقدرة الله سبحانه وتعالى . . . وهذا الفرق هائل ولا وجه فيه للمقارنة . . ومن هنا فان عظمة ما قيل من أن الانسان سيرى في الآخرة ما لم تره عين . . وما لم تسمعه اذن . . وما لم يخطر على قلب بشر . . يزداد عمقا واعجازا كلما تقدم العلم . . لأن الفرق باق بين قدرة الله وقدرة البشر . . وذلك تصديقا للاية الكريمة ﴿سنريهم اياتنا في الآفاق . . وفي أنفسهم حتى يتبين لهمْ أنه الحق﴾ . . ولذلك فكلما تقدم العلم . . ازددنا خشوعا وخضوعا لله سبحانه وتعالى الذي يرينا آياته في الآفاق . . وفي أنفسنا .

ثم يقول لنا ما أعطيته لكم من العلم هو ذرة . . ولكن في الآخرة سأمتعكم على قدر قدراتي أنا . . سأجعلكم تسمعون لا بقدرة أعطيتها لبشر . . ولكن بقدرتي وسأجعلكم ترون بقدرتي . . وسأمتعكم بقدراتي ولنا أن نتصور الفرق الهائل الذي سيتم على أساسه متاع الآخرة بالنسبة لمتاع الدنيا . . وكلما ازدادت الرفاهية . . وازداد ما تقدمه المدنية من حياة مريحة ليس فيها تعب ولا نصب . . فان ذلك يزيد من قدراتنا على التصور فيما سيمتعنا الله به في الآخرة . . ان كنا من أهل الجنة . . جعلنا الله واياكم من أهلها . .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي فيقول . . ومن هنا فان الانسان المؤمن حين يقدم صدقة . . فهو ليس بانسان يضيع ماله . . وهو ليس بانسان غبي . . لأن هذا المال الذي أخرجه في سبيل الله . . كان يستطيع أن يتمتع به وهو في الدنيا متاعا محدودا . . وبنفس قيمة المال . . ولكنه لذكائه اختار أن يتمتع به متاعا بلا حدود على قدر

قدرات الله سبحانه وتعالى الذي ليس كمثله شيء . . واختار أن يتمتع بعشرة أمثال قيمته . . أو بأكثر . . لأن الحسنة بعشر أمثالها . . ومن هنا فانه عندما يخرج هذا المال يكون قد حقق به فائدة لا يمكن أن يحققها له هذا المال في الدنيا . . بل يكون قد عقد صفقة رابحة لا يمكن أن يعقدها في الدنيا ولو كان مكسبه من هذا المال أضعافا مضاعفة . . ذلك أن كل شيء يتم في الدنيا على حسب قدرات البشر . . وكل شيء في الآخرة بقدرة الله . . والله ليس كمثله شيء

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي أن هذه الصورة ربما تقرب لنا بعض ما ينتظر الانسان المؤمن والمسلم . . ذلك فضلا عن أن الله سبحانه وتعالى يدافع عن الذين آمنوا وهو يدافع عنهم بقدراته . . وليس بقدرات البشر . . ومن هنا فان دفاع الله عن الانسان المؤمن . . لا يمكن أن تقف أمامه قوة في الدنيا . . ولا يخشى أي قوة مهما بلغت . لأن الذي يدافع هو الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا أيضاً فإن الإنسان المؤمن قلبه مطمئن مهما حدث له . . ومهما ضاعت الأسباب من يده . . لماذا . . لأنه يحس أن الله معه . . والله معه بقدراته فوق الأسباب والمسببات . وليس كمثله شيء . . ولا يمكن لإنسان مؤمن مسلم أن تضيع نفسه حسرات أمام عقبات الدنيا مهما حدثت . . وأمام أمور الدنيا مهما أظلمت . . وذلك ان الذي يؤيده بنصره . . . والذي هو وليه . . والذي يفتح له الأبواب المغلقة . . ويضيء له الطريق المظلم هو الله سبحانه وتعالى . . وفي كل أمر من الأمور هو يرد الأمر الى الله الذي ليس كمثله شيء . . فالله سبحانه وتعالى يفتح له من الأبواب ما لم يخطر على قلبه أو عقله . . ويسبب له من الأسباب ما لم يكن يعتقد أنه سيتم . .

على أن هذا كان استطراداً لا بد منه قبل أن نبدأ في الحديث عن لماذا تغيرت القبلة . . مع أن الله سبحانه وتعالى قال ﴿ولله المشرق والمغرب﴾ . . ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ .

لماذا تغيرت القبلة

ووصفهم الله سبحانه وتعالى بالسفهاء قبل أن يتكلموا . . وأنبأنا عنهم قبل أن يجادلوا . . وكان من الممكن أن يمتنعوا عن الكلام . . ويتوقفوا عن الجدل ولكن الله أتى على يد خصوم الدين . . . بما يثبت صحة هذا الدين . .

بعض الناس يقول أن ما تم بقدرة العلم هو شيء يأخذ بالعقول ويحقق أحلام الانسان . . ولقد شرحت كيف أن مقومات الحياة الأساسية كالماء والهواء . . والزرع . . كلها من صنع الله سبحانه وتعالى . . ومن نعمه على عبيده . . ولكننا اذا نظرنا الى مقومات الحياة المرتقية . . أو العلمية المتقدمة . . نجد أنها كلها مما خلق الله للانسان في الأرض . . وسخرها له . . فانت تأتي الى ميكروسكوب معقد . .مثلا يريك مواقع النجوم على بعد ملايين الأميال . . وتسأل صانعه من أين صنعت هذا . . فيقول لك أنني أستورد العدسات من المانيا مثلا . . والخشب الذي صنعت منه القاعدة من السويد . . والصلب مثلا من أمريكا فتذهب الى المانيا للرجل الذي صنع العدسة فيقول لك أنا آتي بالرمل النقي الذي يصنع هذه العدسة من المكان الفلاني . . أو من بلدة كذا . . وتسأل الذي يأتي بالخشب . . فيقول أنا آتي به من غابات السويد . . فتسأل من يزرع غابات السويد فيقول لك أنها تنبت . . فاذا ذهبت الى أمريكا لتسأل عن الصلب قالوا لك انه يأتي من باطن الأرض من بلدة كذا . . والمرآة الضخمة التي تستخدم في الميكروسكوب من مادة كذا . . الى آخره . .

اذن كل هذه الآلة العلمية المعقدة التي يدعيها الانسان لنفسه عادت الى الله سبحانه وتعالى . : فالرمال المستخدمة خلقها الله . . والخشب المستخدم أنبت غاباته الله . . والحديد المستخدم أوجد مناجمه الله . . وهكذا في كل شيء في العالم . . في العقول الالكترونية في مراكب الفضاء التي تذهب الى القمر . . كلها اذا أعدتها الى مادتها

الأولية . . فأنت تعيدها الى خلق الله في الأرض . . يوم خلق الله الأرض . . اذن كل هذه المواد التي تستخدم في أحدث تطورات العلم هي من خلق الله سبحانه وتعالى في كونه يوم خلق الكون . . وكل الظواهر الكونية من نقل الصوت والصورة . . والأشعة تحت الحمراء هي أيضا مخلوقة منذ خلق الله الكون . . بل ان الله سبحانه وتعالى أعطاها لبعض مخلوقاته من الحيوانات قبل أن يعطيها للانسان كالثعابين مثلا التي يستخدم بعضها أنواعا من الأشعة ليتحسس طريقه ويهاجم عدوه . . لم يعرفها الإنسان في العصور الحديثة .

فالعلم مكتشف لايات الله في الأرض . . مستخدما نفس المواد الأولية التي خلقها الله سبحانه وتعالى منذ خلق الكون ما الذي زاد . . هو قدرة الانسان على اكتشاف خواص هذه المواد . . هذه القدرة التي أعطاها الله سبحانه وتعالى له مصداقا للآية الكريمة . . ﴿سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ . .

على أنني أريد أن أنبه الى كلمة هامة وردت في الأية الكريمة . . وهي « في الآفاق » .

لم يقل الله سبحانه وتعالى في الأرض . . وهذه الكلمة لها معان بدأت تتكشف الآن بشكل أولي وستتكشف في المستقبل حيث سيكشف الله للانسان آيات في الآفاق لا نعرفها نحن . . وهذا من عطاء القرآن المتجدد . . والمهم هنا أنني أريد أن ألفت النظر الى استخدام لفظ الافاق . . وعدم استخدام لفظ الأرض . . حيث أن الله سبحانه وتعالى غاية في الدقة في اختيار الألفاظ التي تطابق المعنى تماما .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ويقول : ونأتي الآن الى مسألة تغيير القبلة . . وهي مسألة مثار جدل بين بعض الناس . . . واستخدام من المضلين يحاولون بها أن يقولوا أو يدعوا أن هناك نوعا من التناقض ! . . فالله سبحانه وتعالى يقول ان لله المشرق والمغرب . . ويقول فأينما تولوا فثم وجه الله . . . ذلك يأتي فيأمرنا بأن نتجه الى بيت الله الحرام في صلاتنا . . واذا كان الله سبحانه وتعالى موجودا في كل مكان وزمان . . واذا كان التوجه الى المشرق والتوجه الى المغرب لا يكلف المؤمن شيئا . . فهو يتجه الى الشرق . . أو الى المغرب . . أو الى الشمال . . أو الى الجنوب . . هذا لا يضيف عليه أعباء جديدة أو تحمله جهدا اضافيا . . بل هو نفس الجهد . . فلماذا تغيرت القبلة ؟ . .

وأنا أقول ان في هذه الآية اعجازا . . ولنذكر الآية الكريمة ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ . . وأنا أريد هنا أن أنبه الى شيء هام هو استخدام لفظ السين في القرآن . . ولفظ السين لا يستخدم الا لشيء مستقبلي . . أي سيحدث في المستقبل . . لا يمكن أن أقول سيفعل فلان كذا . . ويكون هذا الشخص قد قام بالفعل الذي أعنيه . . بل لا بد أنه لم يقم به . . وانما ينوي القيام به أو حدد الوقت للقيام به . . المهم أنه لم يتم . . ولكنه قادم . .

يأتي الله سبحانه وتعالى ويقول في كتابه العزيز لنبيه الكريم ﴿سيقول السفهاء﴾ . . ومعنى سيقولون انهم لم يقولوا بعد . . ولكنهم بعد تغيير القبلة سيقولون . . وهؤلاء الذين سيقولون ليسوا بالمؤمنين . . فالمؤمن يتبع تعاليم الله وقوانينه . . ولكن الذين سيقولون هم أعداء الدين الذين يحاولون التشكيك فيه وصرف الناس عنه . . واذاعة الأباطيل حوله . . يأتي هنا الله سبحانه وتعالى ويعلن ﴿سيقول السفهاء﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى يصف هؤلاء الناس قبل أن يقولوا بأنهم سفهاء . . ولو أن الذين أثاروا تغيير القبلة من أعداء الاسلام . . كان عندهم ذرة من التفكير . . ونزلت هذه الآية الكريمة لا تبعد تماما عن السؤال . . ولما سألوا لماذا تغيرت القبلة . . وكانوا حينئذ يملكون سلاحا أقوى لهدم هذا الدين . . حيث أنهم كانوا سيقولون ان محمدا عليه السلام قد قال في كلام يقول انه كان موحى به من الله . . ومنزلا اليه من السماء . . إن السفهاء أعداء هذا الدين سيسألون لماذا تغيرت القبلة . . ونحن نقول ان تغيير القبلة شيء ايماني لا يهمنا وانه اذا اتجه المسلمون الى المشرق . . أو الى المغرب . . فليس هذا دلالة على صحة دينهم أو بطلانه . . ولذلك فاننا لم نسأل عن هذا الأمر بالذات . . لأنه لا يمس جوهر الدين . . ولكن محمدا قال اننا سنسأل . . ووصفنا بالسفهاء . . وهكذا لم يسأل أحد عن تغيير القبلة . . ولم يحاول احد أن ينال من الدين الاسلامي في أمر تغيير القبلة حتى نعرف جميعا أن ما يقوله محمد ليس موحى اليه من السماء . . ولكنه كلام منه . .

ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يضع اعجازا في هذه النقطة . والاعجاز هنا أن الله تحدى الكفار في أمر اختياري يمكن أن يفعلوه . . ويمكن الا يفعلوه . . وزاد على ذلك

بوصفهم بلفظ منفر وهو السفهاء . . فلو أنهم ابتعدوا عن هذه النقطة ولم يسألوا ما ولى المسلمين عن قبلتهم التي كانوا عليها لكانوا بذلك قد هاجموا الدين في نقطة ايمانية كبرى . . وهي أن الله هو القائل . . ولذلك يجب أن يكون ما يقوله صدقا . . والقرآن كلام متعبد بتلاوته . . لا تبديل فيه . . ولا تغيير الى يوم القيامة . . أي أن محمدا لا يمكن ولا يستطيع لا هو ولا أحد في الدنيا كلها أن يغيره . . أو يبدل حرفا منه . . ومن هنا فلو أن السفهاء لم يسألوا عن سبب تغيير القبلة . . وتجنبوا هذا تماما . . لكانوا بذلك قد طعنوا القرآن . . وطعنوا الدين كله . . ولكن الله قائل القرآن . . يأتي على يد خصوم القرآن . . وخصوم محمد بما يثبت الرسالة . . ويؤكد صدقها . . فيقول سبحانه وتعالى ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ . . ويقول ذلك قبل أن ينطقوا بحرف واحد . . ويأتي فعلا هؤلاء السفهاء ويسألون ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها . . فيشهدون بذلك على صدق القرآن . . ليس في أمر يأتي به قائل القرآن . . ولا في أمر يأتي به من أنزل عليه القرآن وهو محمد عليه السلام !. ولكن في أمر يأتي على يد خصوم القرآن الذين يريدون أن يهدموه . . وأن يشككوا الناس فيه .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي . . نأتي بعد ذلك الى مسألة تغيير القبلة . . وهي قضية تتعلق بتسليم الانسان لله سبحانه وتعالى في أمور العبادة .

اذا أردنا أن نعبد الله سبحانه وتعالى . . فإننا يجب أن نعبده كما يريد هو أن يعبد . . لا كما نريد نحن أن نعبده . . بمعنى أن الله سبحانه وتعالى اذا قال لنا ان الصلوات خمس . . فإننا لا يجب أن نأتي ونقول لا سنجعلها ثلاثا . . أو أربعا . . أو اثنين . . لماذا لاننا لسنا ندا لله سبحانه وتعالى ولأننا نريد أن نعبد الله بالطريقة التي حددها . . لأنه أعلم منا بطريق العبادة .

على أن ذلك يقتضي وقفة قصيرة لنبسط المسألة للأذهان . . هب أنك مرضت . . فماذا تفعل . . إنك تذهب الى طبيب تثق فيه . . تسأل عن الأطباء . . ثم تختار الطبيب الذي أجمع الناس على أنه طبيب معروف مشهور . . وتذهب اليه فيقول لك أنت مصاب بداء كذا . . وعلاجك هو هذا حتى تشفى . . يجب أن تأخذ هذه الأقراص . . وهذه الحبوب . . وتتبع هذا النظام في الطعام الى آخره . .

انت في هذه الحالة واحد من ثلاثة . . اما انك تؤمن بهذا الطبيب وبعلمه . . فتتبع ما يقوله وتسير على نظام العلاج الذي يضعه لك . . واذا جاءك أحد وسألك مثلا لماذا تأخذ هذا الدواء أو تتناول هذا الطعام تقول هذه أوامر الطبيب . فلا يناقشك ولا يجادلك . . هذه واحدة . .

الثانية انك تنكر علم هذا الطبيب تماما . . فتأخذ ما كتبه لك وتمزقه وتفعل ما تريد . . أو تفعل عكس ما يقول . . أو تفعل ما تهوى نفسك . .

أما الطريقة الثالثة فهي أنك تكون انت نفسك قد درست الطب . . أو أنت أو أحد أقاربك في علم هذا الطبيب من الناحية الطبية أو أعلم منه . . ومن هنا فإنك أو ذلك الذي معك ويفهم في الطب تناقش الطبيب ولكن يجب أن يكون العلم هنا متساويا وكما يقال في الطب يقال في جميع فروع العلوم الأخرى . .

ولكننا ونحن البشر نطبق هذا على الانسان . . ولا نريد أن نطبقه على عبادة الله سبحانه وتعالى . . تعاليم هذا الدين وتكاليفه في افعل ولا تفعل هي من الله سبحانه وتعالى . . وأنا أحد ثلاثة . . انسان مؤمن بالله وقدراته . . وعلمه . . اتبع ما يقول لأنني أعرف أنه أعلم مني ولهذا نجد الخطاب في القرآن دائما يا أيها الذين آمنوا . . أي أن الله سبحانه وتعالى يخاطب المؤمنين فيما يتعلق بالطاعات . . ولا يقول يا أيها الكفار لا تفعلوا كذا وافعلوا كذا . . الخطاب هنا للمؤمن . . والمؤمن هو الذي يدرك يقينا أن قدرات الله وعلمه أكبر وأقوى من قدراته . . ومن هنا فانه يتبع ما قاله الله كما يتبع المريض ما قاله أكبر أطباء العالم ليشفى . . وفرق ولا مقارنة بين علم الله وعلم البشر .

أما الثاني فانسان كافر والعياذ بالله ملحد غير مؤمن . . هذا يفعل ما يشاء فليس بعد الكفر ذنب تماما كما يمزق المريض أوامر الطبيب . . ويتبع هواه . . لا نقاش معه لأنه غير مؤمن . . فليفعل ما يريد . . وسيلقى جزاءه . .

نأتي بعد ذلك الى النوع الثالث . . وهو أن يكون هناك نقاش حول قضايا الايمان في افعل ولا تفعل . . والنقاش يجب أن يدور بين علم متساو . . وعقل متساو وقدرة

متساوية . . فمن منا علمه كعلم الله . . سبحانه وتعالى . . وقدرته كقدرة الله سبحانه وتعالى حتى يستطيع أن يجادل الله . .

قضية الايمان

ولقد جاء الله سبحانه وتعالى بهذه القضية في مجال الايمان ولم يأت بها في الأخبار عن حقائق الكون مثلا . . أو عن معجزات الخلق . . وقال اذا أردت أن تعبدني . . فاتجه الى الكعبة . . إن هذا لن يكلفك شيئا . . ولن يضيف عليك مشقة ولكن هل امنت بي ربا وخالقا . . أم ما زال الشك في قلبك . .

إن الله سبحانه وتعالى قد وضع في هذا معجزة وتشريعا . . أما المعجزة . . فهي قوله تعالى ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم﴾ «واستخدام لفظ « السين » هنا معناه أنه وقت نزول الآية لم يقولوا وأن القول سيتم بعد نزول الآية . . والمعجزة هنا أنه وصف الكفار الذين سيسألون عن سبب تغيير القبلة بالسفهاء . . قبل أن ينطقوا بسؤالهم . .

ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى تحداهم في أمر اختياري يقع منهم . . وكان من الممكن لهؤلاء الكفار ألا يسألوا عن سبب تغيير القبلة . . وأن يقولوا ان هذه مسألة تتعلق بالعبادة لا دخل لنا بها . . وحينئذ كانوا يكذبون القرآن . . ويقول الناس . أين هم السفهاء الذين أخبر الله عنهم سبحانه وتعالى . . بأنهم سيسألون عن تغيير القبلة . . إن أحدا لم يسأل عن ذلك . . والقرآن كلام متعبد بتلاوته لا تغيير فيه ولا تبديل . . وحينئذ كانوا سيلقون ظلالا من الشك على القرآن الكريم . . لأنهم لم يسألوا . . ولكن لأن الله هو القائل . . والله هو الفاعل جاء هؤلاء الناس وسألوا . . رغم أن الله سبحانه وتعالى وصفهم قبل أن يسألوا بالسفهاء . . وهكذا كان خصوم الدين هم الذين جاء على يدهم ما يثبت صحة هذا الدين وهذه هي المعجزة . .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي قائلا : أما التشريع . . فهو يتعلق بعبادة الله سبحانه وتعالى . . وتسليم الانسان له . . ونحن اذا أردنا أن نعبد الله . . فاننا

يجب أن نعبده كما يريد هو أن يعبد . . لأن الله أعلم بطريق عبادته . .

ولنبسط المسألة الى الأذهان . . هب أنك مرضت وذهبت الى الطبيب . . وقال لك افعل كذا وكذا لتشفى . . فأنت اما أن تفعل واثقا أن علم الطبيب أكبر من علمك . . واما لا تفعل مؤمنا بأن هذا الطبيب لا يعرف شيئا . . واما أنك تناقشه . . وفي هذه الحالة يجب أن يكون علمك مساويا لعلم الطبيب ان لم يكن أكثر منه .

فاذا كان ذلك يتم مع البشر . . فكيف مع الله سبحانه وتعالى . . ومع تعاليم هذا الدين بافعل ولا تفعل . . وكل ما أمر به وما شرعه الله سبحانه وتعالى . . إنك أحد ثلاثة . . انسان مؤمن بالله وقدراته وعلمه . . اتبع ما يقول لأنني أعرف أنه أعلم مني بما فيه شفاء النفس في الدنيا . . وحسن الجزاء لها في الأخرة . . ومن هنا اتبع تعاليم القران . . ولذلك يخاطب الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز المؤمنين دائما فيقول : « يا أيها الذين امنوا » ذلك أن المؤمن يدرك يقينا أن قدرات الله وعلمه أكبر وأقوى من قدراته . . ومن هنا فانه يتبع ما قاله الله . . كما يتبع المريض ما قاله أكبر اطباء العالم ليحصل على الشفاء . . وفرق كبير ولا مقارنة بين علم الله . . وعلم البشر .

أما الثاني فانسان كافر ملحد . . وهذا يفعل ما يشاء . . فليس بعد الكفر ذنب . . تماما كما يمزق المريض أوامر الطبيب ويتبع هواه .

نأتي بعد ذلك الى النوع الثالث وهو أن يكون هناك نقاش حول قضايا الايمان . . في افعل ولا تفعل . . والنقاش يجب أن يدور بين علم متساو . . وعقل متساو . . وقدرة متساوية . . ومن هنا علمه كعلم الله سبحانه وتعالى . . وقدرته كقدرة الله سبحانه وتعالى حتى يستطيع أن يجادل الله .

ومن هنا فان الله سبحانه وتعالى يأتي بقضية ايمانية كبرى . . ﴿لله المشرق والمغرب﴾ . . الله موجود في كل مكان . . ﴿وأينما تولوا فثم وجه الله﴾ . . وتغير القبلة لا يكلف المؤمن شيئا . . أي أن اتجاهه في صلاته الى الشرق أو الغرب . . أو اليمين . . أو اليسار . . لا يضيف عليه تكليفا ولا يحمله أي مشقة . . ولكن هنا قضية ايمانية كبرى . . الاتجاه الى الشرق لا مشقة فيه . . والاتجاه الى الغرب لا مشقة فيه . . اذن مستوى التوجه

هنا بالنسبة للمؤمن . . فقول الله اتجه الى الشرق . . مثل قوله تعالى اتجه الى الغرب . . هذه لا تحمل مشقة . . وهذه لا تحمل مشقة . . والمسألة هنا هي أن نعرف يقينا أننا نتبع أوامر الله سبحانه وتعالى فيما قاله . . في افعل ولا تفعل . . فهناك أشياء غيبية عنا أنبأنا بها الله في القران الكريم . . ولو لم ينبئنا بها لما عرفناها . . . ولما وصل اليها الانسان أبدا . . هناك الجنة والنار . . والثواب والعقاب والحساب والاخرة . . وهناك ما وعدنا الله به . . وهناك أشياء في الدنيا تحدث . . وعقلنا قاصر عن أن يعرف الحكمة منها . . وهذه الأشياء يجب أن نعرفها يقينا لأنها أتت عن الله سبحانه وتعالى . . هناك الصلاة . . والزكاة . . واحكام الدين . . والصوم . . الى آخر ما قرره وشرعه الله سبحانه وتعالى من أحكام لعبادته وطاعته . . وهذه لها حكمة كبرى قد لا أدركها أنا . . لأن عقلي لا يمكن أن يكون مساويا لعقل الله سبحانه وتعالى . . ولا تستطيع قدرتي ولا علمي أن يصلا الى قدرة الله سبحانه وتعالى . . ولا علمه . . وحكمته . . ومن هنا فلا مقارنة . . لأن الله ليس كمثله شيء . . والخطر كل الخطر أن يدخل الى قلب المؤمن من يوسوس له . . بأنه يجب أن يناقش هذه العبادات بمنطقه هو وبعقله هو . . وقد أثبتنا من خلال الحديث السابق . . أن ما فوق قدرة العقل موجود . . وان ما فوق قدرة الانسان موجود . . وان لم نكن نعرف عنه شيئا . . وان الله بقدراته يكشف لكل جيل من البشر ما كان الجيل الذي سبقه عاجزا عن اكتشافه ليثبت أن ما فوق قدرة العقل . . وفوق قدرة البصر . . وفوق قدرة السمع موجود . . ولعل ما نعيش فيه اليوم من علم يثبت ذلك . . فالعلم لم يصنعه الانسان . . ولكنه اكتشف الطيران مثلا . . اكتشفه الانسان ولكنه لم يصنع الغلاف الجوي الذي يمكنه من الطيران . . ولكن الذي صنع هذا الغلاف هو الله سبحانه وتعالى . . . ودلنا على استخدامه . . ولكن الغلاف الجوي كان موجودا . . وقدرة طيران الانسان حول الأرض كانت موجودة منذ بدء الخليقة . . وكذلك الميكروبات مثلا كانت موجودة . . ولكنها كانت فوق قدرة البصر . . الى أن تم اكتشاف الميكروسكوب . . وكذلك أن تسمع ما يدور في الدنيا بواسطة استخدام الأثير أو خواص طبقات الجو العليا . . كل ذلك كان موجودا لم يخلقه الانسان . . ولكن الله سبحانه وتعالى أدخله في علم البشر . . ليثبت أن ما فوق القدرة البشرية موجود .

هنا قضية ايمانية كبرى . . بسطها الله وقربها الينا بما وضعه في هذه الأرض من علم أتاح للعقل البشري اكتشافه . . ولكن برغم ذلك كله كما قلت يأتي من يوسوس للانسان ليقول له لماذا تصوم مثلا ؟ . . وماذا يفعل الله سبحانه وتعالى بامتناعك عن الطعام والشراب . . وهو غني عن العالمين . . بماذا سيزيد ملك الله سبحانه وتعالى اذا أنت امتنعت عن الطعام والشراب . . وصمت شهر رمضان . . وما الذي سينقص اذا أفطرت . . أو لماذا تقوم بالصلاة خمس مرات في اليوم . . ولماذا لا تصلي مرتين فقط . . مرة عند استيقاظك من النوم . . وأخرى عند ذهابك الى النوم . . الى آخر هذا الكلام الذي يدخل النفوس محاولا أن يضعف الايمان فيها . . وهنا نقول انك لا تستطيع أن تناقش هذا . . ولا تعرف الحكمة في التكليف به . . لماذا ؟ . . لأنك في عقلك وتفكيرك لست مساويا لقدرات الله سبحانه وتعالى . . وما دمت قد امنت . . ووثقت بأن الله هو الخالق . . وهو الفاعل . . وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق هذا الكون . . وهو القوة الكبرى الذي ليس كمثله شيء . . يعلم ما لا نعلم . . اذا وثقت في هذا . . ودخل الايمان الى قلبك . . ففي هذه الحالة وجبت عليك طاعة الله سبحانه وتعالى فيما يأمرك أن تفعل أو لا تفعل . . لأن الله سبحانه وتعالى هو أعلم منك بهذا كله . . وهو يطلب منك الطاعة والتسليم . . وأنت لم تصل الى الايمان الا اذا استسلمت وسلمت وجهك لله . . فيما يقول في افعل ولا تفعل . . تماما كما أنك لن تشفى الا اذا نفذت تعليمات الطبيب لعلاج مرضك . . والدين رحمة وشفاء للمؤمنين . . وهو يوصلهم الى النفس المطمئنة في الدنيا التي لا يفزعها شيء ولا تحطمها عاصفة . . النفس المجزية في الآخرة . . الموعودة بجنة الله . . ومن هنا كان تغيير القبلة امتحانا للايمان . . شيء ليس فيه مشقة ولا زيادة في التكليف . . ولكنه قضية ايمانية كبرى . . ما دام الله قد قال . . فلا بد أن افعل . .

ولقد جاء الله سبحانه وتعالى بهذه القضية في مجال الايمان والعبادة . . ولم يأت بها في أي مجال من المجالات الأخرى . . أي أن الله سبحانه وتعالى أراد أن تكون امتحانا للايمان في النفس . . وليس مثلا دليلا على اعجاز القرآن . . . أو اخبارا بشيء سيأتي . . أو إظهاراً لحقائق الكون . . أو تحدثنا عن نعم الله على عباده . . أو رواية عن الأنبياء السابقين . . أو وصفا للنار والجنة . . والجزاء والعقاب . . أو أي شيء مما احتواه القرآن

الكريم . . ولكنه جاء بها كقضية ايمانية في افعل ولا تفعل . . فقال أنت تريد أن تعبدني . . واذا أردت أن تعبدني فأنا أقول لك . . افعل كذا وكذا . . وأنا أقول لك اتجه الى الكعبة . . وهذا الاتجاه لن يكلفك شيئا . . ولن يضيف عليك عبئا . . ولكنه اختبار لطاعتك لي . . وايمانك بي . . وهل استقر هذا الايمان في قلبك أم لا . . وهل آمنت بي ربا وخالقا . . أم لا يزال هناك شك في قلبك . . فاذا كنت قد آمنت بي رباً وخالقا . . ايمانا عن يقين . . فانني أقول لك . . إنني وأنا الموجود في كل مكان . . أريدك أن تتجه في صلاتك الى الكعبة . . الى البيت الحرام . . وهذا لن يكلفك شيئا . . ولكنه سيظهر مدى الايمان في قلبك . . ومدى طاعتك لي . . .

وهكذا كانت قضية تغيير القبلة . . قضية امتحان للايمان لنعرف من الذي يلتزم بأمر الله . . . ومن لا يلتزم بهذا الأمر . . ويذكر الله سبحانه وتعالى هذه الحكمة في قوله . . ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾ . . .

اذن فالمشكلة لا مشقة فيها . . ولكنها امتحان للايمان . . وتثبيت له في القلب ليظهر أمام المؤمنين جميعا من يتبع الرسول . . ومن ينقلب على عقبيه . . من يطع الله حقيقة . . ومن يطع الله وفي قلبه شك . . وفي نفسه اهتزاز .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي قائلا : وهذا يدلك على أن كل أحداث الكون . . انما هي مرسومة وموضوعة كاختبارات للايمان في النفس . . وليكون الانسان شهيدا على نفسه يوم القيامة . . والنفس البشرية في كل دقيقة من حياتها هي في اختبار للايمان بالله . . منذ اللحظة التي تستيقظ فيها . . حتى اللحظة التي تنام . . الاختبارات موجودة . . والقلم يكتب . ثم ينام الانسان فيرفع القلم . . فاذا استيقظ يعود القلم مرة أخرى . . ولقد جعل الله سبحانه وتعالى من تغيير القبلة قضية ايمانية كبرى كأساس في الدين . . ووضعها في التكليف ولم يجعل فيها زيادة في المشقة لتكون اختبارا خالصا للطاعة . . ولمن يتبع الله ويتبع رسوله . .

* * *

طريق الله .. والعلم

هناك النفس المطمئنة .. والنفس اللوامة .. والنفس الأمارة بالسوء .. وهذه النفوس كلها تواجه الحياة بطريقة مختلفة .. وتنظر الى الايمان بشكل يجعل كلا منها يصل الى نتائج غير التي تصل اليها الأخرى .. والنفس البشرية من يوم الخلق الى يوم القيامة .. في صراع بين الايمان .. وما يوسوس لها الشيطان ..

والنفس البشرية في حياتها معرضة لأشياء كثيرة .. العقل يقول شيئا .. والعواطف تقول أشياء .. وهوى النفس يحاول أن يجعلها تفلت من كل رقابة وضعت لصالح النفس البشرية ..

تلك كانت مقدمة قبل أن أستكمل حديث فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي عن الله والنفس البشرية .. ولقد توقفنا في الأسبوع الماضي عند تغيير القبلة .. وقال فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ان هناك في الدين قضايا عقل .. وقضايا ايمان .. أما قضايا العقل فالله قد تركها لمنطق العقل وتدبيره .

والمطلوب من العقل أن يفكر ومطلوب منه أن يعمل .. ومطلوب منه أن يكتشف آيات الله في الكون .. والمطلوب من العقل أن يفكر .. الدنيا .. ومطلوب منه أن يرسم طريق حياته الذي يتمناه .. هذه في قضايا العقل .. وهو في الزراعة مثلا يطور زراعته وأرضه .. وفي الصناعة يبحث عن الخامات الجديدة .. ويكتشف الآلات الحديثة الى آخر ما يمكن أن تكون فيه قضايا العقل فيما خلقه الله له .. فاذا جئنا الى قضايا الايمان .. فتلك مسألة أخرى تماما .. هنا في قضايا الايمان .. إما أن تؤمن بالله أو لا تؤمن .. ليس هناك حل وسط في أن تؤمن بالله في أشياء .. ولا تؤمن به في أشياء أخرى .. والله سبحانه وتعالى اذا وضعت شريكا له في شيء ..

تركه ولم يتقبله . . لأنه غني عن العالمين . . فما أشركت فيه شيئا غير الله . . فليكن لمن أشركت . . الله غني ولا يتقبل الشرك . .

اذن فقضية الايمان أن تؤمن بالله أو لا تؤمن . . الايمان بالله معناه أنك قد آمنت . . وصدقت بأن هناك قوة كبرى منزهة عن كل شيء . . قد امنت بأن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء في علمه . . وخلقه . . وفضله . . ورحمته . . وقونه . . وانتقامه . . وعذابه . . وانه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء في كل ما تعرف وما لا تعرف . . ومن هنا فاننا لا يجب أن نقيس علمنا بعلم الله . . ولا قدرتنا بقدرة الله . . ولا فهمنا بفهم الله . . فاذا قال الله . . سبحانه وتعالى افعل . . فأنا لست مؤهلا . . لأن أقول لماذا ؟ . . وأن أناقش . . ذلك ان المناقشة يجب أن تكون بين علم متساو . . وعقل متساو . . فلا نستطيع أن نقيم مناظرة علمية بين أعلم أهل الأرض . . وبين انسان لم يعرف العلم . . عاش طول حياته في مكان مهجور لا يعرف شيئا عن الدنيا . . ثم يأتي هذا الانسان الذي لا يعرف شيئا ليقف ويناقش . . اعلم انسان في الأرض . . يناقشه في العلم . . . لو أننا أقمنا هذه المناقشة لكنا سخرية العالم أجمع . . لأنه لا وجه للمقارنة . . ولاتهمنا الناس بالجنون . . والسفه . . والتفاهة . . وقلة العقل . . مع أننا هنا نستخدم الفارق في العلم البشري فقط . . فما بالك بالفارق بين علم الانسان . . وعلم الله سبحانه وتعالى . .

ولكن العجيب . . والعجيب جدا أننا حينما نستخدم الفرق بين العلم البشري . . وعلم الله سبحانه وتعالى . . نجد بعض الناس يجادل ويدعي أنه مؤهل لمناقشة الله في علمه . . ولمناقشة الله في طريق الحياة التي رسمها للبشر . . ولا يخجل مثل هذا الانسان أن يقف ويجاهر بذلك . . ولا يخجل البشر الذين حوله . . وهم يقولون هذا الكلام الذي يدعو الى السخرية . . ولا مقارنة بين علم الله . . وعلم البشر .

اذن الايمان بالله سبحانه وتعالى . . هو تسليم لقدرات الله التي ليس فوقها قدرة . . تسليم لعلم الله الذي ليس فوقه علم . . وتسليم لله سبحانه وتعالى الذي

ليس كمثله شيء . . هذا هو مدخل الايمان الى النفس البشرية . . وهذا المدخل قد لا يأتي الا بعد تفكر وتدبر في الكون وآياته . . ولكنه عندما تستكين النفس ويطمئن القلب . . ويقول الله افعل كذا فنفعل . . لماذا ؟ . . لأن الذي يقول هو أعلم مني . . ولأنه يحبني . . لأن الله يحب عباده . . ويغفر لهم خطاياهم ويسامحهم ويتوب عليهم . الله يحبني . . ويريد هدايتي . . ومن هنا فهو يفتح لي الطريق . . ويبين لي آياته في الكون . . ويرينا المعجزات في الأرض مما خلق . . بل انه يري كل جيل منا ما كان خافيا على الجيل الذي سبقه . . ومن هنا فانه حين يقول افعل فهو يقولها : لانها طريق السعادة لي . . والراحة لنفسي وقلبي . . لأنها طريق الحياة الطيبة . . الله سبحانه وتعالى وعد المؤمنين بالحياة الطيبة في الدنيا . . والحياة الطيبة هي نفس راضية مطمئنة . . تخلصت من القلق . . ومن الخوف . . ومن الفزع . . ومن كل ما يحطم النفس البشرية ويحيلها الى جحيم . . فاذا قال لي الله سبحانه وتعالى . . افعل . . فهو يريد السعادة لي بهذا الفعل في الدنيا والآخرة . . لأن فعلي لن يزيد في ملك الله شيئا وعدم فعلي لن ينقص ملك الله في شيء . . فالله حين يقول افعل يقدم لي الحياة الطيبة فيما أفعل . . وحين يقول لا تفعل يقيني الحياة الشريرة بما لا أفعل . . ومن هنا . . ومن منطلق هذا الايمان . . وجبت الطاعة . . وليس النقاش . . ففيما يقول الله سبحانه وتعالى فيه أفعل أو لا تفعل . . اذا كنت مؤمنا فانني أعرف أن هذا لخيري وسعادتي . . فانطلق نحوه . . وأفعله . . وأنا أشعر بغبطة وفرح . . إنني قد استطعت أن اختار الحياة الطيبة . . ليس على حسب قدراتي أنا . . وفكري أنا . . ولكن حسب قدرات الله سبحانه وتعالى الذي ليس كمثله شيء . . واذا كنت غير مؤمن . . بدأت أناقش وأفلسف حسب قدراتي ولن أصل الى شيء . . فأنا في الايمان افعل ولا أفعل . . اختار بين حياة رسمت حسب قدرات الله سبحانه وتعالى . . وحياة يصورها لي عقلي . . والفرق بين الاختيارين هو الايمان . . الايمان بأن الذي وضع أسس الحياة الأولى . . هو أقدر مني . . وأعلم مني . . وهو خالقي . . وهو يريد لي الخير . . ويريد أن يخلصني من الشقاء . . ومن الكيد الذي يعانيه الانسان في الحياة . . ومن هنا كان ايماني هو أساس الطاعة . . وليست قدرات عقلي . . أما في أمور الحياة العادية التي تركها الله لاختياراتي . . ولم يقل افعل ولا تفعل . . فهنا يأتي دور العقل

في المفاضلة والاختيار . .

ومن هنا نجد الانسان المؤمن قويا قادرا . . لا تهزه شدائد الدنيا كلها . . لماذا ؟ . . لأنه يحس أنه مهما انعدمت أسباب العقل وتوقفت . . فان الله الذي رسم له طريق هذه الحياة التي يتبعها . . قد وعده أنه سيحييه حياة طيبة . . وهو لا يمكن أن يتخلى عنه أبدا . . بل انه سيفتح له من الأبواب . . . ويوجد له من الأسباب ما يجعل له مخرجا من الضيق الذي يعانيه مصداقا لقوله تعالى :﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ . .

وهكذا كان تغيير القبلة عملا من أعمال امتحان الايمان في النفس . . ذلك أن الانسان المؤمن فيما يتعلق بالعبادة يتبع تعاليم الله الذي هو أعلم وأقدر على رسْم هذا الطريق . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم﴾ . . وقد تحدثت في الحلقة الماضية عن المعجزة في هذه الآية . . وقلت ان استخدام « السين » هنا معناه أن الله تحدى قوما يحاربون دينه . . وصفهم بالسفهاء . . قبل أن يقولوا ما سينطقون به . . وهذا ما تبينه كلمة السين الموجودة في لفظ سيقول . . أي أنهم لم يقولوا . . وطبعا لا بد ان يتبع الفعل القول هنا . . بمعنى أنه لا بد أن تتغير القبلة . . ثم يقولون بعد ذلك . . أو يتحدثون عن تغيير القبلة . . والله سبحانه وتعالى وصفهم بالسفهاء . . وكان من الممكن لكي يكذبوا هذا الدين أن يمتنعوا عن الكلام في تغيير القبلة على أساس أنها أمر يخص العبادة . . ولكن كون أنهم جاءوا وجادلوا . . فكأن الله قد استخدم الذين يحاربون الدين في اثبات صحة هذا الدين .

على أن هناك وقفة في استخدام لفظ السفهاء . . لماذا وصفهم الله سبحانه وتعالى بالسفهاء . . ولم يستخدم لفظا آخر . . لأن السفيه هو الانسان الناقص العقل . . غير كامل التفكير الذي يأتي بأشياء لا تتمشى مع الفكر السليم . . ولقد جاء هؤلاء الملحدون والمحاربون للدين ليجادلوا في قضية هي فوق قدرة عقولهم . . وفي أمر شرعه الله لعبادته فوضعوا أنفسهم في مكان ذلك الذي يستطيع أن يشرع لعبادة الله . . بقدرة وحكمة وعلم . . أكثر واقدر من الله سبحانه وتعالى . . وهذه

سفاهة تفكيرهم . . في أنهم وضعوا عقولهم العاجزة في مقارنة مع قدرة الله سبحانه وتعالى . . في أمر يختص بالعبادة والطاعة . .

على أن الله سبحانه وتعالى يعطينا ما يقرب الينا . . ذلك الذي هو فوق قدراتنا . . لنعرف أو نلمس الحكمة فيه . . وهو يفعل ذلك رحمة بعقولنا ونفوسنا . . فاذا قال الله سبحانه وتعالى . . لا تأخذ مال غيرك . . فليس هذا منعا لي من الحصول على مال غيري فقط . . ولكنه حماية لي من أن يحصل أي فرد في المجتمع على مالي الخاص . . أي أن الله يحميني عندما يضع حرمة المال الخاص . . . يحميني من الملايين التي تعبث في الأرض . والتي يمكن أن تعتدي على مالي وتأخذه . . فهذا التحريم انما هو رحمة بي . . وحماية لي من ملايين البشر الذين لا أستطيع ولن أستطيع أن أقاومهم . . ويأتي الله سبحانه وتعالى بقدرته وقوته ليجعل هذا قانونا عالميا يمشي في العالم كله رحمة للناس . .

وعندما ينهاني الله عن أن أشهد الزور . . أو أن أكذب . . أو أن أسرق الناس في الميزان . . أو غير ذلك . . فهو في الواقع يوفر الحماية لي من كل هذا . . فأنا فرد في مجتمع لو أبيحت فيه هذه الحرمات لكنت أول ضحية فيه . . ولعم الشقاء المجتمع كله . . فالفرق بين حكم الغابة الذي لا يكون الانسان فيه آمنا مطمئنا على نفسه . . وبين الحكم الذي يعطي الأمان للبشر . . هو فرائض الله في افعل ولا تفعل . . وهذه الفرائض كلها لا يمكن أن تحقق أهدافها الا اذا دخل الايمان القلب . .

على أن هنالك سؤالا أخيرا يطرح نفسه هنا . . وهو الكوارث التي تصيب الانسان في الحياة . . في حياته . . وفي نفسه . . وفي بيته . . في حياته حيث الخوف والقلق . . وعدم الاطمئنان الى الغد . . وفي نفسه حيث الحيرة والصراع الشديد . . بين ما يحققه من لذة عاجلة أو مصلحة عاجلة . . أو هدف عاجل يريده . . وبين ما تقتضيه تعاليم الله سبحانه وتعالى بالنسبة لهذه الأشياء . . أما في بيئته فهو ما يحدث في الأرض من فيضانات وزلازل . . وأشياء مدمرة قد تنشر البؤس والدمار في مجموعة من البشر . . وهذه الأشياء الثلاثة هي ما تبقى حول موضوع « الله والنفس

البشرية » . . وكلها لها اجابات وايضاحات تجعل العقل يقترب أكثر . . وأكثر من الله سبحانه وتعالى . .

اذا بدأنا بالنفس البشرية فهذه قصة طويلة بدأت منذ أول الخليقة وتنتهي يوم القيامة . . ذلك أن الانسان يظلم نفسه في كثير من الأحيان ظانا أنه يقدم لها الخير . . ويفعل سوءا فلا يحصل على شيء الا الذنب . . وهو في كلتا الحالتين يحاول أن يبرز ما يفعل بأنه خير . . كيف ذلك . .

***

أسرار النفس البشرية

« الانسان يريد أن يخلد في الحياة فلا يموت ويريد مالا لا ينتهي ولا يذهب . وهذا هو مدخل الشيطان للنفس والله قد جعل الأجل بيده والرزق بيده ليقينا الانحراف ويبعدنا عن الاغراء الكاذب ولكننا رغم ذلك نبحث عن الخلود . . وعن المال الذي لا يزول ولا ينتهي » . .

ان مدخل الشيطان الى النفس البشرية . . حدده الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بأنه ﴿شجرة الخلد وملك يبلى﴾ لا . . هذا هو المدخل الذي استطاع الشيطان أن يخرج به آدم وحواء من الجنة . . وأن يجعلهما يعصيان الله سبحانه وتعالى . . فالانسان يريد الخلود . . انه لا يريد الحياة أن تنتهي . . يود أن يعمر ألف سنة . . ومائة ألف سنة . . والبحث عن الخلود يلازم النفس البشرية منذ أن بدأت حياتها على الأرض . . منذ أن خلقها الله حتى الآن . . الانسان يبحث عن الخلود. وعما يبعد الموت عنه . . رغم أن الله سبحانه وتعالى قد أكد في كتابه العزيز أنه لا مفر من الموت . . فان الانسان يحاول أن يهرب بشتى الطرق . . والابحاث عن اطالة الحياة . . وعن تجميد جسم الانسان حتى يعالج من أمراض تسبب الموت . . قد يكتشف لها دواء في المستقبل . . الأبحاث عن هذا ما زالت جارية . .

ولكن من ذلك الذي يكره نهاية الحياة . . انه الانسان غير المؤمن لماذا ؟ . . لأن الموت خلق كالحياة تماما . . فالله سبحانه وتعالى قال ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ . . اذن فالموت خلق كالحياة . . ولكننا نحب الحياة . . ونتمسك بها . . والموت للانسان المؤمن انتقال من حياة يتمتع فيها ويحاسب فيها على حسب قدراته هو الى حياة يتمتع فيها ويحاسب فيها على حسب قدرات الله سبحانه وتعالى . . والانسان في بحثه عن الخلود . . هو مستعد أن يفعل كل شيء . . وأي

شيء . .

والمدخل الثاني بعد الخلود . . هو ملك لا يبلى . . أي مال لا ينتهي . . فالانسان يريد حياة لا تنتهي ومالا لا ينتهي . . فالله سبحانه وتعالى قد جعل الاثنين بيده . . ليقي الانسان من دخول الشيطان الى نفسه . . فجعل لكل أجل كتابا . . وجعل الرزق بيد الله سبحانه وتعالى بغير حساب . . ومن الذي يستطيع أن يحاسب الله جل جلاله وهو العزيز القدير . .

اذاً الله سبحانه وتعالى أراد أن يقي الانسان من الانحراف في الحياة . . ومن الابتعاد عن الحياة السعيدة الى حياة الشقاء . . فرسم له الطريق . . ووضع له منهج الحياة التي هو خالقها . . وهو الأعلم بها . . وقال في كتابه العزيز ﴿لنحيينه حياة طيبة﴾ ، وقال ﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة . . ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم .. ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم﴾ . .

وبعد أن رسم الله سبحانه وتعالى أسس الحياة وسبلها . . ووضع منهجا لها . . قال لنا ان الشيطان سيحاول أن يغريكم بالمال . . وبالخلود . . وأنا أقول لكم سلفا حتى لا يكون لكم حجة . . ان لكل منكم أجلا . . فاذا جاء أجلكم لا تستقدمون ساعة ولا تستأخرون وأقول لكم ان الشيطان سيعدكم بمال لا يفنى ولا يذهب ولا ينتهي . . وأنا أقول لكم إنه ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ . . وانني أرزق من أشاء بغير حساب . . حتى لا تكون لكم حجة في اتباع الشيطان .

وبالرغم من هذا . . فان الشيطان يجد المدخل بسهولة الى النفس البشرية . وكلما تقدم الزمن . . وتقدم العلم . . وتقدمت الرفاهية التي يستطيع أن يضعها في حياة الانسان . . انفتح في النفس البشرية مدخل أوسع للشيطان . . ذلك أن المال يستطيع أن يحقق ما لم يكن من الممكن تحقيقه في الماضي . الانسان يستطيع الآن أن يمتلك سيارة وطائرة . . وتكييف هواء . . وأن يقدم له المال حياة سهلة . . ويجعله سيدا مطاعا . . ومن هنا كلما اتسعت دائرة الرفاهية التي يستطيع المال أن يحققها في حياة الانسان . . زاد نهم الانسان للمال . . ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يجعل

للاستمتاع البشري حدودا ليفهم الناس أن كثرة المال لا قيمة لها في حياة البشر . . فجعل المرض في كثرة الطعام . . وجعل الداء في الطعام الفاخر الدسم . . وجعل العجز في عدم الحركة إلتي توفره الرفاهية . . وجعل قدرات الجسم تتلاشى في الاسراف في الاستمتاع البشري أيا كان نوعه . . ووضع سر الصحة في الأشياء التي لا تكلف الانسان مالا كثيرا . . فقليل الطعام غير الدسم . . وغير الفاخر . . أساس اعتدال الصحة . . والمشي على القدمين الذي يستطيعه الغني والفقير على حد سواء . . ودون أي مشقة أو تكلفة . . هو الطريق الوحيد الآن لعلاج معظم الأمراض بما فيه أمراض القلب . . والطبيب ينصح أولئك الذين لا يتحركون الا خطوات قليلة لأن المال يرفع عنهم المشقة . . بالمصعد والسيارات الفاخرة . . والخدم . . والحشم الذين يوصلون اليهم كل شيء وهم جالسون في أماكنهم لا يتحركون . . ينصح هؤلاء بأن يسيروا ساعة أو ساعتين كل يوم . . لأن هذا هو أساس الصحة . . والهواء الطلق الذي يوجد في الأماكن الخلوية البعيدة . . هو الهواء النقي غير الملوث . . لم تفسده يد الانسان . . وهكذا كانت الصحة في قلة الطعام غير الدسم . . وفي المشي خصوصا في الأماكن ذات الهواء الطلق . . وفي عدم الاسراف في اي شيء . . وهذا متاح للبشر جميعا . . غنيهم . . وفقيرهم . . بل ان حكمة الله سبحانه وتعالى في أنه ما من نبي الا ورعى الغنم . . ترينا في أحد جوانبها قواعد الصحة التي يدفع بعض الناس الآن عشرات الألوف من الجنيهات ليصلوا اليها . . وراعي الغنم لا بد أن يسير على قدميه فترة طويلة في هواء نقي غير ملوث . . وهو لا يستطيع أن يحيط نفسه بأولئك الذين يعدون له الطعام الفاخر الدسم . . ومن هنا فهو يبقى صحيحا سليما معافى . . حتى يأتي أجله . .

وبالرغم من هذا يبقى الطمع البشري بلا حدود . . بل ان الذي يملك مالا لا يستطيع أن ينفقه فيما بقي من عمره . . لا يكتفي بذلك . . وانما يريد أكثر وأكثر . . والنفس اذا هوت المال بدأت المفسدة . . فأنا أسرق لأحصل على المال . . وأشهد الزور لأنال بعض المال. . وأقول غير الحق . . وأعمل بغير ما يرضي الله . . وأخدع . . وأغش . . وآكل حقوق الناس . . كل ذلك لأحقق لنفسي ما وعدني

الشيطان به كذبا . . وهو ملك لا يبلى . . أي مال لا ينتهي ولا يفنى مهما مر الزمن . . مع أنني لو كنت مؤمنا عن يقين لعلمت أنني لن أصل بعلمي الا الى الرزق الذي قسمه الله لي . . ولآمنت أن الله يرزق من يشاء . . وانني لو اتجهت اليه لإعطائي الرزق . . ومنحه لي . . والرزق الحرام لو صبرت عليه قليلا وعملت لأوصلني الله الى المال الحلال . . لأنه مقسوم لي . .

ومن هنا فانني أظلم نفسي حين ارتكب السوء . . وأنطلق متبعا هوى النفس . . ذلك أنني في الحقيقة لا أصل الى شيء الا الذنب . . ولا أكسب شيئا الا الخطيئة . . على أن هناك من يرتكب من السيئات مقابل الحصول على متع عاجلة . . ومن يظلم نفسه . . والمعنى هنا ليس واحداً . . الكلمة ليست مرادفة . . بل ان الفرق كبير بين المعنيين . .

* * *

عندما يظلم الانسان نفسه

« الانسان الذي يرتكب المعصية .. يفعل ذلك لأنه ضعيف ، يريد الحصول على منفعة عاجلة .. أما ذلك الذي يظلم نفسه فانه يرتكب المعصية .. لمجرد المعصية .. فالانسان الذي يمنع الخير عن الناس حسدا .. والذي يهدم أسرة أو يفرق بين الأب وابنه وبين الزوج وزوجه ظلم نفسه بارتكاب الاثم بلا هدف الا الأذى » .

ان النفس البشرية لا ترضيها الحياة المادية وحدها .. ولا يسعدها المال فقط .. بل هي مزيج من الروح والمادة .. ومن هنا فان أكثر الأمم تقدما في الحياة المادية .. أعلاها في نسبة الانتحار .. بينما كان يجب أن يكون العكس صحيحا .. اذا كان التمتع البشري هو قمة السعادة للنفس .. فقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يضع للتمتع البشري حدودا .. حتى يقيد الطمع البشري .. فالطعام لذة .. ولكن كثرة الطعام تصيب الجسم بالأمراض والعلل .. والشراب لذة .. ولكن الافراط فيه يؤدي الى أمراض قاتلة .. وكذلك كل ما تهواه النفس اذا مشت على الحدود التي أتاحها الله ... حصلت عليه جميلا مبهجا .. وابتعدت عن أضراره ومفاسده .. واذا أطلقت لهواها كل ما تريده فستتمتع أياما .. ثم تقاسي بقية العمر .. ويملأها الندم ..

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي أن هناك من يرتكب السوء .. ومن يظلم نفسه .. وبعض الناس يظن أن استخدام اللفظين في القرآن الكريم .. ظلم النفس .. وارتكاب السوء ملتزمان في المعنى .. فان من يرتكب سوءا ومعاصي .. انما يقود نفسه الى الهلاك في الدنيا وفي الآخرة .. ولكن الذي يرتكب السوء يفعل شيئا .. والذي يظلم نفسه يفعل شيئا آخر ..

الذي يرتكب السوء . . يرتكب المعاصي لفائدة عاجلة . . تزين له نفسه أنه سيحصل بها على شيء . . فالذي يسرق مالا مثلا . . يريد فائدة عاجلة بأن يستمتع بانفاقه . . الذي يأخذ حقوق غيره . . انما يحصل على فائدة عاجلة يأخذها لا جهد له فيه . . ولا حق له فيه . . والذي يقوم بمعصية . . انما يحصل على لذة عاجلة تنتهي بسرعة . . ويبقى الذنب . .

ولكن الذي يظلم نفسه . . انسان آخر تماما . . انه لا يفعل ذلك للحصول على فائدة عاجلة . . ولكنه يرتكب المعصية دون أن يستفيد . . فالانسان الذي يشهد زورا مثلا ليضر انسانا آخر . . قد ظلم نفسه . . ارتكب اثما . . ولم يتمتع بشيء . . والانسان الذي يمنع الخير عن الناس . . لمجرد منع الخير حسدا أو حقدا . . انسان ظلم نفسه . . ذلك أنه لم يعطها شيئا . . وانما أعطاها الذنب . . والانسان الذي يحاول أن يفرق بين المرء وزوجه . . وبين الابن وأبيه . . وان يهدم أسرة . . أو يهدم عملا ناجحا . . دون أن يستفيد هو شيئا . . انسان ظلم نفسه . . لأنه أعطاها المعصية . . ولم يعطها شيئا . . وهذه هي النفس الأمارة بالسوء . . أي أنها تجد لذة حياتها في السوء الذي يصيب الآخرين . . تجد لذة لحياتها في أن تهدم بيتا سعيدا . . أو تمنع رزقا عن انسان . . أو تضيع حقا على صاحبه . . أو تقدم شهادة زور تضع بها انسانا في ضرر بالغ . . وهي تفعل ذلك ليس بدافع الفائدة الشخصية . . ولا الضعف البشري . . ولا الحصول على شيء من متاع الدنيا . . ولا كل ما يقتتل عليه البشر من تفاهات الحياة المادية . . كل هذا لا تحصل عليه . . ولكنها تحصل على السيئات وحدها . . وهذه النفس تورد صاحبها التهلكة دون أن تعطيه شيئا . . وصاحبها يكون في داخل نفسه . . قلقا . . حائرا . . لا ينام الليل . . كالنار يأكل بعضها بعضا . . قد يكون في قمة الغنى . . وقد يكون ليس محتاجا لشيء أعطاه الله من خيرات الدنيا ما يعجز عن انفاقه بقية عمره ، ولكنه مع ذلك يظلم نفسه في أنه يفسد في الأرض . . وينشر السوء . . ويندفع الى ما فيه ظلم البشر . . دون أي هدف الا السوء نفسه . . وهذه النفس لا توجد في انسان في قلبه ايمان . . ذلك أن الايمان يدخل في القلب الرحمة . . ويدخل فيه الخوف من الله . . ويدخل فيه خشية

يوم القيامة . . ويدخل فيه أن الله يسمع ويرى . . اذا كانت هناك ذرة من الايمان في النفس . . فان هذه المعاني توجد فيها ... أما النفس الأمارة بالسوء فليس فيها رحمة . . . ولا في القلب خشية . . وليس هناك خوف من يوم الحساب . . ولا هناك احساس بأن الله يسمع ويرى ومن هنا فان هذه النفس البشرية لا يكون فيها ذرة من ايمان . . وهي لا تحس بجمال هذا الكون . . ولا تتمتع بالحياة رغم ما قد يحيط بها من مظاهر النعيم الدنيوي . . ذلك أنها تعيش في شقاء داخل النفس . . وضعة عدم الايمان . . وفي شقاء خارج النفس من أن كل من يحيط بها يجب أن يكون شقيا . . وأن يناله الأذى . . ومن هنا فاننا عندما نقول ان هذا الانسان قد ارتكب اثما . . ونقول ان هذا الانسان قد ظلم نفسه . . لا نعني نفس الشيء . . الله سبحانه وتعالى قد وضح لنا معنى ظلم النفس . . ومعنى ارتكاب الاثم . . وبين لنا الفرق بين الاثنين . . والاعجاز في القرآن أن كل لفظ له معنى دقيق يعبر عنه . . ولا يخرج التعبير عن هذا المعنى . .

وهناك النفس اللوامة . . تلك التي تلوم صاحبها على الاثم . . وتدفعه الى الخير . . وتجعله يحاسب نفسه . . وهذه النفس هي التي يختلط فيها عمل الخير . . والاثم . . هذه النفس في كثير من الأحيان تصل الى الهدى . . أو الى النفس المطمئنة التي وعد الله بها المؤمنين . . وهي تحث صاحبها دائما على فعل الخير . . ولكن صاحبها انسان ضعيف . يأخذه الهوى مرة . . فيرتكب إثما . . ويندم عليه . . فيتجه الى عمل صالح . . ثم يغلبه هواه . . وهكذا يظل في صراع حتى ينتصر أحدهما على الآخر . .

فأتى بعد ذلك الى النفس المطمئنة . . تلك التي أعطاها الله سعادة الدنيا والآخرة . . والنفس المطمئنة هي نفس إطمأنت الى قول الله وعدله . . اطمأنت الى قدرته وقوته . . اطمأنت إلى علمه ووحوده . .

النفس المطمئنة الى قول الله وعدله . . تعرف يقيناً أن ما وعدها الله به سيتحقق . . وهي تعلم يقينا أن قول الله هو الحقيقة الخالدة . . ومن هنا فهي تعلم أن الله يدافع عن الذين آمنوا . . وان الله وعد في كتابه العزيز هذه النفس بالحياة

الطيبة في الدنيا والآخرة . . وقال فيها ﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم﴾ وهي في اطمئنانها هذا لا تخشى شيئا . . ذلك أنها تعرف أنها اختارت الطريق الصحيح . . فاذا منع الله عنها شيئا تهواه . . أو شيئا تريده . . فلأنه يريد أن يعطيها خيرا منه . . وأن الله سبحانه وتعالى في منعه هذا الشيء . . رغم ما يحيط به من بريق الدنيا . . هو أعلم منا جميعا بالخير والشر . . ومن هنا فان كان قد منع خيرا نعرفه . . فانه يريد أن يعطينا خيرا أكثر منه لا نعرفه . . واذا منع عنا شيئا نريده . . فلأنه يريد أن يعطينا شيئا أحسن منه . . لا تصل اليه ارادتنا وعلمنا في هذه اللحظة . . فقضاء الله بالنسبة لهذه النفس هو خير دائما . . خير في المنع . . وخير في العطاء . . خير التيسير . . خير في التيسير وخير في عدم تيسير الأمور . . خير في كل ما يأتي به . . لأن الخيره فيما اختاره الله . . ولأن النفس لا تستطيع أن تخترق حجب الغد لتعلم الخير والشر . . وتستطيع أن تصل الى الحكمة من كل شيء . . . يحدث . . والانسان في تعقله في كثير من الأحيان يرى الشر خيرا . . ويحسب السوء منفعة . . ولكن الأحداث عندما تتضح . . والزمن عندما يمر يرينا الله الحكمة فيما منع . . والحكمة فيما أعطى . . والنفس المطمئنة لقضاء الله تعلم أن الله ولي الذين آمنوا . . وأن الله يحب عباده المؤمنين ويدافع عنهم . . وأن الله في قضائه مع النفس المؤمنة . . انما يريد أن يمنع عنها شرا لا تراه . . أو يعطيها خيرا أكثر من الذي تمنته . . وفي الحالتين فان قضاء الله هو الخير . .

وهذه النفس تطمئن الى عدل الله . . فهي تعلم أنه لا يوجد ظالم يستطيع أن يفلت من عقاب الله ولا يوجد قوي متجبر هو فوق قدرة الله وقوته . . ومن هنا فهي تلجأ للأقوى الذي تعرفه . . وليس للضعيف الذي يبدو أمامها قويا . . ولا لمن أعطاه الله فظلم الناس بما أعطاه الله له . . إنها تتجه الى المنعم الحقيقي . . وليس الى حامل النعمة . . وتلجأ الى العادل الحقيقي . . وليس الى الانسان الذي يتبع هواه . . والعدل صفة من صفات الله سبحانه وتعالى لا يصل اليها البشر ولا يستطيعون مهما دققوا وبحثوا أن يصلوا الى العدل الحقيقي . . . ولكن قدرة الله سبحانه وتعالى هي

التي تستطيع . . ومن هنا فمهما كان الظلم قاسيا فهي تثق أن عدل الله أكبر . . وأن عدل الله موجود . .

والنفس المطمئنة تثق في قدرة الله وقوته . . ومن هنا فانها لا يهمها ما يعطي البشر . . وما يمنعون من ظاهر الحياة الدنيا . . ذلك أنها تعرف جيدا أن الله قادر على أن يعطيها اذا سألت . . وأن الله قريب يسمعها . . وأن الله قوي يستطيع أن ينتقم لها . . وهي في هذا كله تحس بالاطمئنان يملأها مهما كان الظلام حولها لا تؤرقها الدنيا أبدا . . ولا تهزها الأحداث مهما جرت . . بل ينزل الاطمئنان اليها . . ايمانا ويقينا بأن الغد يحمل مما في قدرة الله ما سيزيح وينهي كل ظلم وقع . . وكل اجحاف تم . . وهي في هذا مطمئنة الى أن الحق يهزم الباطل . . والخير يهزم الشر . . والظلم ليس له أقدام . . وسرعان ما يزول . .

قدر الله

« لقد جعل الله الكون في خدمتك . . ولكنه جعله كذلك لتضيف أنت الى الحياة شيئا . . واذا كانت المسألة أن تترك كل شيء لله ولا تعمل . . فلست أدري لماذا يتخلى هؤلاء الناس عن مبدئهم في أبسط الأشياء وهي الطعام والشراب . . فاذا عطشوا قاموا ليشربوا . . واذا جاعوا قاموا ليأكلوا . . فلماذا لا يترك هذا لقدر الله ؟ » . .

واذا كانت النفس البشرية لغزا . . فان هناك على الأقل ثلاثة أنواع من النفس البشرية يمكن تحديد اطارها بشكل مبدئي . . النوع الأول هو النفس الأمارة بالسوء . . وصاحب هذه النفس يقودها الى الهلاك . . أو الى العذاب دون أن تستفيد شيئا . . هذه النفس تتمثل في أولئك الذين يفعلون الاثم لمجرد الاثم . . ودون الحصول حتى على متاع الدنيا الوقتي . . والأمثلة أمامنا كثيرة . . ذلك الذي يرسل شكوى كيدية في زميل له . . وهو يعرف أنها غير صحيحة . . وذلك الذي يشهد زورا أو يقول كذبا ليمنع خيرا عن انسان . . وذلك الذي ينقل الأقوال الكاذبة ليوقع بين البشر . . وذلك الذي يعد تقريرا مليئا بالأكاذيب ليقدمه ضد انسان غيره . . وذلك الذي يحاول أن يشوه أي عمل يقوم به أي انسان لمجرد أن يهدمه . . صاحب هذه النفس الذي يقوم بهذا لا يستفيد شيئا . . فهو لا يمنع الخير ليأخذه . . ولا يوقف ترقية زميل له لأنه سيرقى . . ولا يرسل شكوى كيدية لينصر حقا . . أو ليحقق فضيلة . وانما هو في ذلك كله يحاول أن يكون مناعا للخير . . دون أن يستفيد شيئا . .

والنفس الثانية هي النفس اللوامة . . التي تلوم صاحبها على الاثم . . وتدفعه الى الخير . . وتجعله يحاسب نفسه . . هذه النفس يختلط فيها الخير والاثم . . .

وتتغلب فيها الطاعة مرة . . والمعصية مرة . . وهي في صراع دائم بين ما يجب أن نفعله . . وما يجب ألا تفعله . . وهذا الصراع يظلِ موجودا حتى ينتصر أحد جانبي النفس على الجانب الآخر . .

ولقد توقفنا في الحديث مع فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي عن « الله والنفس البشرية » . . عند النفس المطمئنة . . تلك التى أعطاها الله سعادة الدنيا والآخرة . . اطمأنت الى قوله وعدله . . وقوته وقدرته . . وعلمه ووجوده . . اطمأنت الى أن الله حق . . وأن الأخرة حق . . وأن الدنيا حق . . فعملت بكل منها . . واطمأنت الى أن الله ينصرها لأنها اختارت الطريق الصحيح . . واطمأنت الى قضاء الله . . ما أعطاها خير . . وما منعه عنها . . فلأنه يريد أن يعطيها ما هو أحسن منه . . قضاء الله بالنسبة لهذه النفس هو خير في المنع . . وخير في العطاء . . وهي تؤمن أن الله يدافع عن الذين امنوا . . وأنه يحب عباده المؤمنين . . وأنه رحيم في قضائه مع النفس المؤمنة وهي تؤمن أنه لا يوجد ظالم أقوى من عدل الله . . ولا جبار يعلو على قدرة الله . . ولا مفسد في الأرض يفلت من عقاب الله . . ومن هنا فهي تعلم حين ترى الظلم أن العدل قادم . . وحين تحس بالجبروت . . أنها بداية النهاية . . حين ترى المفسدين في الأرض أن قضاء الله قريب . . .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي أن النفس المطمئنة تثق في قدرة الله وقوته . . ومن هنا فهي تحس بالاطمئنان يملأها مهما كان الظلام حولها . . وهي تؤمن أن الغد يحمل ما سيزيح ظلما وقع . . وينهي اجحافا تم . . وهي في هذا مطمئنة أن الحق يهزم الباطل . . والخير يهزم الشر . .وإنه ما من معركة بين حق وظلم استمرت طويلا . . فالظلم ليس له أقدام يقف عليها . .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ولكننا في كثير من الأحيان ننظر الى الأشياء بمنظار آخر . . فنحن نرى في بعض ما يحدث اجحافا . . ونحن نريد أن نصل الى ما نحققه دون أن نعمل . . ودون أن نمتحن . . مع أن الجمال في الحياة هو أن تأخذ ناتج عملك . . فلو أن الطالب الذي لا يذاكر والطالب الذي لا ينظر في كتاب طوال العام نجح . .لانعدم الجمال في الحياة . . وانعدمت معه قيمة العمل . .

ولو أن الانسان الذي يعمل في زراعة حقله .. ويتعب ويشقى طوال العام .. يصل الى نفس المحصول الذي يصل اليه من لم يذهب الى أرضه مرة واحدة لانعدم الجمال في الدنيا .. ولانعدم العمل ..

وفي هذا الكون .. هناك أشياء تفعل لك .. وهناك أشياء تفعل بك .. فالشيء الذي يفعل لك في الكون يستوي فيه الناس جميعا .. كافر ومسلم .. يستوي فيه الناس كل الناس .. هذه الأشياء هي : كالشمس مثلا .. الشمس تشرق كل صباح ولا تخص بنورها كافرا أو مسلما .. أو شاكرا لله .. أو جاحدا بنعمه .. كلهم سواء .. عطاء الشمس للجميع .. سواء .. وهي لا تفرق بين شخص وشخص .. والهواء مثلا تتنفسه كل الكائنات الحية دون أي تمييز .. والماء مثلا يشرب منه كل كائن حي بصرف النظر عن دينه وعقيدته وايمانه بالله أو كفره .. هذه الأشياء تفعل لك كثيرا .. الشمس تعطينا النور والطاقة وأسباب الحياة الى آخر ذلك .. والهواء يعطينا أسباب الاستمرار في الحياة .. والماء يعطينا الحياة نفسها .. ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ .. فهذه الأشياء تفعل لك ... وتفعل لك بلا تمييز .. أي أنها لا تميز في عطائها بين عاص .. وعابد .. ومؤمن .. وكافر ..

نأتي بعد ذلك الى الأشياء التي تفعل بك .. وارتقاء الانسان في الكون .. يتم فيما ينفعل بك لا فيما يفعل لك .. ان ما ينفعل بك ان فعلت فيه ينفعل .. اذا حرثت الأرض حرثا جيدا ثم وضعت فيها البذرة ثم واظبت على رعايتها تعطيك ثمرا جيدا .. وان بحثت عن المعادن الصالحة لحياة الانسان في باطن الأرض .. تعطيك معادنها .. ولو لم تفعل فانها لن تنفعل معك .. فالذين يعملون ويجدون في الأشياء تنفعل معهم ..

والذين لا يقومون بأي جهد مع الأشياء التي تنفعل للانسان في الأرض لا يتقدمون .. ويظلون متأخرين وهنا يحدث الخلاف بين ارتقاء عدد من الناس .. وتخلف عدد منهم .. يحدث هذا الخلاف في التعامل مع الأشياء الموجودة في الكون التي تنفعل بك .. ولا دخل للدين في هذه المسألة .. فالأشياء التي تنفعل لك .. كالشمس والهواء والماء .. وما في الأرض .. لا تفرق في عطائها بين مؤمن وكافر

وملحد . . والأشياء التي تنفعل بك . . والتي يجب أن تقدم لها عملا لتحصل على النتيجة . . هذه الأشياء أيضا لا نفرق بين مسلم وكافر ومؤمن وملحد . . فالكافر الذي يحسن حرث أرضه ويرويها . . يحصل على أجود أنواع البذرة . . والذي يتعهد الزرع . . يجني محصولا وفيرا . . والمؤمن الذي يهمل الأرض ولا يزرعها ولا ينفعل معها لا تعطيه الثمرة لأنه لا يطبق قوانين الكون . . ولا يعمل لينفعل مع الأشياء التي تنفعل به في الدنيا . . والملحد أو الكافر الذي يستخدم أحدث الأساليب العلمية . . ويجد ويسعى ليكشف عن المعادن في باطن الأرض . . تظهر له هذه المعادن . . لأنها تنفعل به . . والمؤمن الذي يترك المعدن في باطن الارض . . ولا يبحث عنه . . لا ينفعل به . . ولا يخرج له . .

تلك حقيقة كونية يجب أن نعيها جيدا . .

ولقد جعل الله ما على الأرض زينة لها . . ليجذب الانسان الى العمل . . فما هي الزينة في حقيقتها . . هي ما يخلع على ذاتيات الأشياء ليجعلها أكثر جاذبية . . فالمرأة مثلا تتزين لتصبح أكثر جاذبية للرجل . . وزينة الأرض هي أن تصبح أكثر جاذبية للانسان ليعمل . . فالانسان حين يرى حديقة جميلة . . أو عمارة فخمة . . يتمنى أن يبني أو يعمل مثلها . . فتكون هذه الزينة حافزا له للعمل . . فكأن الله قد جعل ما على الأرض زينة لها ليجذبني اليها . . ثم بعد ذلك هل تكون هذه الزينة هي الغاية . . أم لا تكون . . وهنا الابتلاء . . ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ . . معنى استعمركم . . أي طلب منكم عمارتها . . وذلك لا يتأتى الا بأمرين . . أن تبقي الصالح على صلاحه . . لا تفسده . . وان تصلح الفاسد وتزيد اصلاحه . . وأقل ما تأمر به هذه الآية . . هو أنك لا تأتي للصالح وتفسده . . معنى استعمر الأرض . . أي ابقى الصالح على صلاحه . . أو زاد في اصلاحه . .

والله يخاطب الشيء بالقوة والشيء بالفعل . . زينة الله على الأرض من أثرين . . اثار خلق الله والطبيعة التي وهبها لنا . . وآثار ما فعله الانسان بما علمه الله له . . ليضيف الى ذلك . . وعندما نقرأ في سورة الكهف ﴿ويسألونك عن ذي

القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا . . إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا فأتبع سببا﴾ . . ومعنى ذلك أننا أعطيناه أسباب المنعة والقوة والحكم في الأرض . . ولكنه لم يقتصر على ما أوتي . . لم يقتصر على ما فعل له . اتبع هو سببا . . فيما ينفعل له . . ولقد أورد الله هذه الاية الكريمة ليقول لنا : ان الانسان مهما يعطى لا يجب أن يكتفي بما أعطي له . . ولا يفعل شيئا . . بل يجب أن يأخذ هذا العطاء . . ويعمل من أجل أن يضيف اليه . . وينفعل به مع العناصر التي خلقها الله لتنفعل بعمل الانسان في الأرض . . وذلك مصداقا للحديث الشريف : لا خير فيمن لا يضيف . . والاضافة هنا بمعناها العام . . أي أنه أنت ان استفدت من الكون وجعل الله الكون في خدمتك . فلا بد أن تعطى عطاء للكون تضيف اليه شيئا . . والا أصبحت الحياة جامدة وغير متحركة . . ولا متطورة . . وتوقف تطور البشرية ونموها . . اذ ان الحياة تتطور من أن يضيف الانسان من ذاته ما تفاعل به مع بيئته . . ومع الكون ليصنع شيئا جديدا . . أي أن الله سبحانه وتعالى ينهانا أن نقف أمام قطعة من الأرض . . ولا نفعل شيئا ننتظر المطر ثم يظهر النبات أي نبات . . فتأكل منه . . أو ترعى منه الماشية . . ثم بعد ذلك لا شيء . . لا بد أن يعرف الانسان ويدرس كيف يحرث هذه الأرض . . وما هي النباتات الصالحة لها ليحصل على أجود النتائج . . لا بد أن يتعلم كيف يجعل هذه العناصر التي خلقها الله في الأرض لتنفعل به . . وتعطيه أحسن النتائج وهذا معنى الأية الكريمة . . فأتبع سببا . . أي أنه لم يقف ولم يقتصر على العطاء الذي أعطي له من الله . .

والذي يجب أن نعرفه . . ان منازل الدنيا لا علاقة لها بالاخرة . . فقد يكون رجلا ذا جاه ومال في الدنيا . . أخذ من نعم الأرض الكثير . . ومع ذلك مصيره النار . . وقد يكون رجلا ليس له حظ في الدنيا رزقه يكاد يكفي قوته . هو من أهل الجنة . . تلك حياة . . وتلك حياة . . بل ان المترفين في نعيم الدنيا هم عادة أكثر بعدا عن الله من غيرهم . ولذلك ضرب الله عدة أمثال في القران . . ولكن هذا لا يجب أن يلهينا عن الحقيقة . . وهي أن من يتبع القوانين التي وضعها الله في الأرض . . بالنسبة للحياة الدنيا يأخذ نصيبه منها . . ومن يتبع قوانين الله بالنسبة

للحياة الاخرة يأخذ نصيبه منها . .

وما أوضحت . فان الله قد أمرنا أن نضيف من الأسباب التي أعطاها لنا في سبيل الرزق . . عملا لنحصل على أحسن النتائج . . وهذا العمل هو نوع من العبادة لأننا نطيع قوانين الله في الأرض . . وهو أعطانا أسباب الرفعة في الدنيا . . وفي الاخرة . . وعلينا أن نأخذ بهذه الأسباب . . ونعمل من أجل الدنيا ومن أجل الاخرة . . مصداقا لقوله تعالى : ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ . . فاذا كان هناك تخلف في الدول الاسلامية . . فالاسلام نفسه بريء من هذا التخلف . . لأنه وضع أمامنا كل أسباب الرقي والتقدم . . وطلب منا العمل في الحياة الدنيا . . حتى يتحقق لنا ثمرة هذا العمل . . فاذا كنا قد تركنا أسباب التقدم التي هي موجودة في الاسلام فليس هذا عيب الاسلام . . وانما العيب في عدم تطبيق تعاليم الاسلام . .

وإنني أعجب من بعض الناس الذين يفسرون التوكل على الله بأنه دعوة الى عدم العمل والجهاد . . بينما هو في الحقيقة دعوة للجهاد والعمل . . والتأكد من أن النتيجة طيبة . . لأن الله يبارك هذا العمل ويبارك هذا الجهاد . . الصادر من قلب المؤمن . . ولكن بعض الناس يريدون أن يضعوا في الدين ما ليس فيه . . واذا كانت المسألة هي أن نترك كل شيء لله . . ولا نعمل . . فلست أدري . . لماذا يتخلى هؤلاء الناس عن مبدئهم في أبسط الأشياء . . وهو الطعام والشراب . . فاذا عطش فهو يقوم ليشرب . . واذا جاء الطعام . . فهو يأكل ويبذل جهدا في تناول الطعام ومضغه . . فلماذا لا يترك كل هذا لقدر الله . . اذا كان المطلوب هو عدم العمل ولماذا يأتي الى هذه النقطة بالذات . . ويضيف عملا الى ما أعطاه الله . .

وما تحت الثرى

« وكان يجب أن تتنبه الى قول الله سبحانه وتعالى « وما تحت الثرى » . . وأن تعرف أن الرزق في الأرض لا يوجد فقط فوق السطح . . ولكنه يوجد أيضا تحت سطح الأرض . . وتلك معجزة قرآنية بدأت تتكشف الآن . . والعالم ينفق البلايين ليبحث عن الثروات الموجودة « تحت الثرى » .

نأتي اليوم الى ختام حديث فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي عن « الله والنفس البشرية » . . ذلك الحديث الذي تناول فيه علاقة النفس البشرية بخالقها . . ولماذا حمل الانسان الأمانة . . وأثبت فيه أن من يجادلون في الله سبحانه وتعالى . . انما يثبتون وجوده وأن الله جعل من المضلين اثباتا للايمان . . وأن الله حق . . وأن القرآن حق . .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي بأن الله سبحانه وتعالى خلق لكل شيء في الدنيا قانونا يعمل به . . فالماء له قانون . . والنار لها قانون . . والأرض لها قانون . . والنجوم لها قانون . . وهذه القوانين تعمل بقدرة الله . . وباذن الله . . الله سبحانه وتعالى قائم على ملكه . . مدبر للأمر فيه . . على أنه سبحانه وتعالى فوق الأسباب والمسببات . . والقوانين . . وبذلك فانه في معجزاته لرسله قد خرق لهم القوانين . . فالماء قانونه الاستطراق . . ومع ذلك عندما ضرب موسى الأرض بعصاه . . انشق البحر وتعطل قانون الاستطراق . . والنار خاصيتها الاحراق . . ومع ذلك عندما ألقي ابراهيم في النار تعطلت خاصية الاحراق . وكانت النار بردا وسلاما على ابراهيم . . وقانون الحياة . . ان الانسان اذا فارقها لا يعود اليها . . ولكن الله سبحانه وتعالى خرق هذا القانون لعيسى عليه السلام فجعله يحيي الموتى باذن الله . . الى آخر ما جاء في معجزات الرسل .

على أن الله سبحانه وتعالى وضع معجزات تحدى بها البشر . . ومعجزات لم يتحد بها أحدا . . فمثلا خلق عيسى عليه السلام معجزة . . لم يتحد بها الله البشر . ولم يطالبهم بالاتيان بمثلها . . ولكن كان المقصود بها هو اطلاق القدرة . . كذلك معجزة شق موسى البحر بعصاه لم يتحد بها الله أحدا ولكنها كانت لاطلاق القدرة . .

على أن معجزات الله سبحانه وتعالى تختلف عما يستطيع أن يقدمه البشر . . أو العلم البشري من طاقات أو معجزات . . والعلم البشري لا يستطيع أن يخلق من الضعيف قويا . ولا من العاجز قادرا . . ولكن الانسان يستطيع أن يقوم بالعمل . . عن الشخص نفسه . بمعنى أنني اذا رأيت شيخا ضعيفا وأمامه حمل ثقيل . . فكل ما أستطيع أن أفعله . . هو أن أحمل عنه هذا الحمل . . أو آتي له بآلة أو ونش يحمله . . ولكني لا أستطيع ولا يستطيع بشر أن يبدل هذا الشخص الضعيف الطاعن في السن . بشخص قوي يستطيع أن يحمل هذا الحمل . . ولكن الله سبحانه وتعالى هو القادر على أن يخلق من الضعف قوة . . وأن يجعل الطير تهزم جيشا ضخما من الأفيال في عام الفيل وأن يعطي قدرة السحر لموسى فيغلب السحرة . . ثم يعطيه قدرة شق البحر . . فيضرب الأرض بعصاه فينشق البحر . . وهو يعطي لعيسى القدرة على شفاء المرضى واحياء الموتى بمجرد الاشارة . . ويعطي لابراهيم أن يقطع الطير . . ثم يدعوها فتسعى اليه . . وقد عادت اليها الحياة . . كل ذلك يتم باذن الله ومن معجزاته . ولكنه لا يمكن أن يتم بعلم بشر . . ومن هنا فانك اذا رأيت شخصا ضعيفا لا حول له ولا قوة يهزم شخصا من أقوى رجال العالم نفوذا وقوة . . فاعلم أن هذه معجزة من عند الله . . وأنها أمر من أمر الله . . ذلك أنه هو وحده القادر على أن يخلق من الضعف قوة . .

وهكذا وضع الله سبحانه وتعالى قوانين في الأرض لكل شيء . . وجعل الأسباب والمسببات في يده ولكن كل شيء يمضي بالقانون الذي وضعه الله له . . فاذا أراد الله سبحانه وتعالى بحكمة هو يعلمها أن يعطل هذا القانون . . أو يأتي بعكسه فانه يقول كن فيكون .

ولقد نبهنا الله سبحانه وتعالى في قرآنه الى أشياء لم يكتشفها العقل البشري الا خلال الفترة الأخيرة . . فقال الله ﴿له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾ . . وكان لا بد للعقل البشري أن ينبه لحاسه ﴿وما تحت الثرى﴾ . . الى أن هناك كنوزا وثروات قد وضعها الله سبحانه وتعالى تحت سطح الأرض . . ولكن الانسان في وقت نزول القرآن لم يتنبه الى الآية ﴿وما تحت الثرى﴾ . . ولم يفطن الى أن الله قد وضع من الثروات ومن الأشياء في باطن الأرض . . بقدر ما وضعه فوق سطحها . . وربما اكثر . . ثم تقدم العلم . . وحدثت الزلازل والبراكين . . وخرج ما تحت الثرى الى ما فوقها ليكشف للانسان بقدرة الله عن الكنوز التي وضعها الله تحت الثرى . . فعرفنا المناجم . والمعادن المدفونة في باطن الأرض . . وعرفنا البترول . . وبدأ الانسان يبحث في معنى الآية الكريمة ﴿وما تحت الثرى﴾ . . وفي كل يوم يكتشف جديدا لم يصل اليه علم . وهكذا كانت الآية التي ذكرها القرآن تمس حقيقة كونية كبرى . هي أن الرزق في الأرض . . والخير الذي وضعه الله فيها . . لا يوجد فقط فوق السطح . . ولكنه يوجد تحت سطح الأرض أيضا . . وتلك معجزة قرآنية بدأت تتكشف للعالم . . والآن تقوم الدول الصناعية الكبرى بانفاق الملايين من الأموال . . والبحث عن الثروات الموجودة تحت الثرى . .

على أن الله سبحانه وتعالى حين وضع القوانين في الأرض . . جعلنا نعرف بعضها . . وأخفى بعضها عنا . . وجعل بعضها نعرفه بآثاره دون أن نصل الى حقيقته . . فالجاذبية الأرضية مثلا هي حقيقة علمية نعرف جميعا آثارها . . ولكننا لا نستطيع أن نصل اليها . . رغم أنها موجودة ومؤثرة في حياتنا اليومية . . فأنت حين تذهب الى المعمل ليشرح لك الاستاذ الجاذبية الأرضية . . ويأتي بقطب ممغنط . . ويضعه أمامك . . وقطب آخر غير ممغنط لا نستطيع أن تقول أيهما فيه الجاذبية . . وأيهما ليست فيه الا اذا قمت بالتجربة . . واذا نقلت الجاذبية من قطعة حديد الى قطعة أخرى . . فأنت لا ترى ماذا يحدث في جزئيات القطعة التي لم تكن ممغنطة . . ثم أصبحت كذلك . . انك لا ترى الجزئيات وهي تتأثر بالمغناطيسية . . ولكنك حين

تقرب قطعة مغناطيس بعد ذلك من معدن معين .. تجدها تجذبه .. ومن هنا فانك تعرف الشيء بآثاره دون أن تستطيع أن تدرك ما هو .. وما ينطبق على الجاذبية .. ينطبق على الكهرباء .. فأنت لا ترى التيار الكهربائي وهو يمضي في أحد الاسلاك .. ولكنك اذا وضعت مصباحا في اخر السلك وأوصلته به .. حصلت على الكهرباء .. ولكن مجرد النظر الى السلك الموصل للكهرباء لا يستطيع ان يدلك .. أو أن ينبئك اذا كان هذا السلك كهربائي أم لا ..

ولقد جاءت هذه الحقيقة لتقرب للعقل البشري ما هو غيب عنه .. ولكي يستطيع ان يعرف بآثاره .. وذلك حتى يطمئن هذا العقل الى أنه من الممكن أن تعرف الشيء دون أن تراه .. ومن الممكن أن يعرفه بآثاره وأفعاله دون أن يراه .. والعجيب أن عددا كبيرا من الناس يؤمن بالجاذبية .. ويأخذها على أنها حقيقة علمية .. ولا يجادل فيها .. ثم يجادل فيما قاله الله سبحانه وتعالى .. لأنه يعرفه بآثاره .. دون أن يراه .. وهذه هي حماقة العقل البشري .. أو ما نطلق عليه (هوى النفس) .. فالجاذبية مثلا .. أو الكهرباء .. شيء لا يمنع الانسان مما يريد أن يأخذه ظلما من انسان آخر .. أو مما يريد أن يستمتع به حراما .. أو مما يريد أن يحصل عليه من حقوق الآخرين .. أو يتميز به على الناس بغير عمل ولا جهد .. ومن هنا فان هذه الحقائق الارضية لا تتصادم مع أهواء النفس البشرية .. ولا مع شهواتنا .. ولذلك فان الانسان يعترف بها عن رضى واقتناع .. لأنها لا تسلبه شيئا .. يريد تحقيقه والطمع البشري بلا حدود .. فاذا أتينا الى أوامر الله سبحانه وتعالى .. نجد اننا بدلا من أن نأخذ بآثارها في أنها تخلق المواطن الصالح .. والانسان الذي يسود الأرض .. وتعطينا الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة .. نجد أننا بدلا من أن نأخذ بهذه الآثار والنتائج .. ونرى اتباع ما قاله الله صلاحا للنفس والمجتمع .. وبعدا عن القلق والخوف .. والحياة التي يملأها الرعب داخل النفس .. وعبادة الفرد .. نحن لا نناقش كل هذا .. بل نتركه محاولين أن تكون لنا عقول مساوية لقدرة الله سبحانه وتعالى .. بحيث نستطيع أن نناقش هذه الأشياء مناقشة بدون علم .. وفرق هائل بين علم الله وعلم البشر .. ونمضي في

طريقنا .. أو يمضي بعض الناس في طغيانهم الى أبعد من ذلك . فهم يضعون عقولهم فوق قدرة الله سبحانه وتعالى .. محاولين كما يدعون سفهاً وزيفاً أن يعدلوا ويبدلوا ما شرع الله .. وكأنهم يملكون من القدرة والعلم ما هو فوق قدرة خالق السموات والأرض ..

على أن الانسان الذي يجادل في قدره الله .. ويخترع النظريات .. فهذه شيوعية .. وهذه اشتراكية .. وهذه رأسمالية .. ومذاهب أخرى كثيره يشرعونها محاولين أن يقيموا بها عن جهل وسفاهة .. مجتمعا يدعون أنه أفضل من ذلك .. المجتمع الذي وضع الله قواعده .. وفي هذه الحالة يجب أن نفهم أن هناك نوعين من النظريات .. وأن نفرق بينهما .. النوع الأول هو نوع يتعب صاحبه .. وتستفيد منه البشرية كلها .. هذا النوع هو الاختراعات العلمية المعتمدة على الأبحاث المعملية .. فالانسان الذي يقضي سنوات طويلة من حياته داخل معمل من المعامل . ليخترع راديو .. أو تليفزيون .. أو تليفون .. انما يعاني هو حتى يصل الى اختراعه .. فاذا تم الاختراع استفادت منه البشرية كلها ..

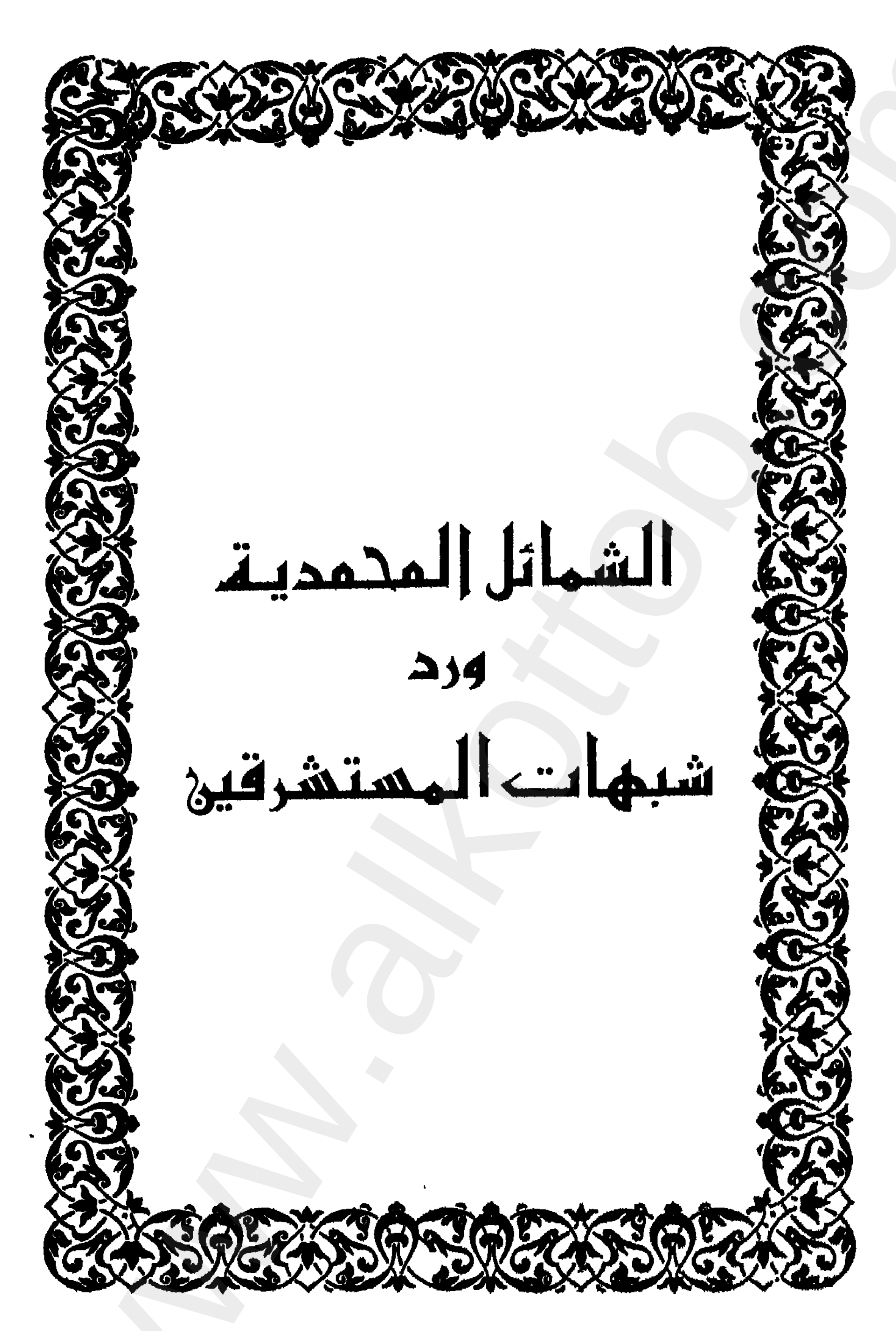
أما النوع الأخر من النظريات البشرية .. فهو النظريات التي تتبع هوى النفس .. ففي هذه الحالة فان صاحب النظرية هو الذي يتمتع ويقوى نفوذه .. ويزداد جاها ومالا وسلطانا .. بينما يعاني .. منها المجتمع .. فأي فلسفة معينة .. لنظرية سياسية أو غيرها .. انما يستفيد منها صاحبها لأنها تنبع من هوى النفس .. أما الذين يتبعونه فهم الذين يعانون ويكابدون .. وحولنا في الدنيا كلها .. وفي كل بلد من بلاد العالم أصحاب نظريات سياسية تخالف ما شرع الله .. هم يتمتعون .. والشعب يعاني من الارهاب والبطش والظلم والتعذيب ..

والانسان في هذا الذي يشرعه .. انما ينسى خلقه .. واعجاز الله سبحانه وتعالى في الخلق .. فلو أن الانسان عرف أن قدره وحياته .. وهل هو شقي أم سعيد .. وكل ما سيصيبه في الحياة الدنيا الى يوم الساعة .. مكتوب على نطفة صغيرة لا يمكن أن ترى بالعين المجردة .. لعرف وعلم مدى قدراته بالنسبة لقدرة الله سبحانه وتعالى الذي وضع كل هذا العلم في شيء لا يصل حجمه الى جزء صغير من

المليمتر .. ولعرف أن سجل حياته كلها موجوده في هذا الحيز الضيق بقدرة الله سبحانه وتعالى .. ونحن حين يخترع انسان جهازا صغيرا دقيقا يمكن أن يؤدي عمليات معقدة مع صغر حجمة نهلل لهذا الاختراع .. ولكننا في الحقيقة يجب أيضا أن نسجد لقدرة الله الذي استطاع أن يضع كل حياة البشر في حيز لا يذكر .. وأن نعرف أننا مع تقدم العلم هنالك فرق رهيب .. بين القدرة البشرية .. وبين قدرة الله سبحانه وتعالى التي يحاول الانسان أن يجادل فيها ..

واذا كان الله سبحانه وتعالى قد كتب على نفسه الرحمة فلأنه خبير بعباده .. لطيف بهم .. فكفر انسان بربه جريمة يستحق عليها عذاب الدنيا والآخرة .. ولكن الله في رحمته بخلقه يفتح باب التوبة مرات ومرات .. ويغفر ويسامح .. ويعطي الانسان الفرصة بعد الفرصة حتى ساعة الموت .. عله يدرك الاعجاز في هذه الدنيا .. ويدرك عجز العقل البشري أمام قدرة الله ..

على أن النفس البشرية في حياتها كلها متعلقة بالله سبحانه وتعالى .. حتى تلك النفس التي ظلمها صاحبها فهي تتوق الى الله وتسعى اليه .. وفي لحظات عندما تجد نفسها عاجزة أمام قدرته .. وترفع يديها الى السماء وتصيح يا رب . . ويكون عدلا الا تفتح أبواب السماء ولكن رحمة الله تفتح أبواب السماء وتتنزل على العاصين لتريهم طريق التوبة . . والله نسأل أن يهدينا جميعا الى صراطه المستقيم ..



الشمائل المحمدية
ورد
شبهات المستشرقين

مناقبه الخلقية والخلقية
«حليته صلى الله عليه وسلم»

رسول الله ﷺ هو عند ربه بالمكان الذي نعرفه له ، وهو عند المؤمنين به بالمكان الذي يرضى الله عن وجوده في نفوس من آمن به . ورسول الله ﷺ حينما يتكلم المنصفون عن صفاته الخلقية انما يتكلمون عن صدى ما استمالتهم صورته ﷺ استمالة ـ كما يقول الأدباء ـ كانت قيد الناظر اليه . أي أن الناظر اليه ﷺ كان يقيده كل حسن فيه وما ذلك الا لأن الطاقة الحبية والطاقة القلبية لا تجعل لناظر الى رسول الله ﷺ معدي عن استدامة النظر اليه ، والنظر اليه كما عرفنا يعطي اشعاعات اليقين ويعطي اشعاعات الايمان والدليل على ذلك أن من رآه ﷺ كان صحابيا ومعنى ذلك أن للرؤ ية الذاتية تأثيرا في كيان المؤمن برسول الله ﷺ ، وكون الواصفين له يدققون الوصف له في أدق الأشياء يدل على أنهم لم يفتهم شيء من صفاته ﷺ ، وان اختلف الواصفون في شيء فانما هو اختلاف اللقطات أو اختلاف التعبير عن اللقطات ، فان مثلا آلات التصوير حينما تصور انسانا فعلى قدر جودة الآلة وعلى قدر قدرة ومهارة من يستعمل هذه الآلة تخرج الصورة طبق الأصل ، ولكنهم في الجملة يلتقون على أشياء ، هذه الأشياء تميزه ﷺ ببنية كاملة متكاملة بحيث يكون للقلب منه غذاء وللعين منه غذاء وللأذن منه غذاء ، بمعنى أن ادراكات المؤمن كلها يكون لها غذاء منه ﷺ .

ونحن اذا نظرنا الى جملة ما وصف به ﷺ نجد الجامع لذلك هو رواية سيدنا الحسن ابن علي عن خاله هند بن أبي هالة ، قال الحسن :

(سألت خالي هند بن أبي هالة عن حلية رسول الله ﷺ) والتعبير هنا بكلمة حلية رسول الله ﷺ ولم يقل عن صفة رسول الله ﷺ دليل على أنه يلحظ أن كل وصف فيه حلو ، فكأن وصوفه كانت حلية في ذلك الكمال النبوي . (وأنا أبدو أن يصف لي منها شيئاً . .

لماذا ؟ . . أتعلق به) يعني حين يتصور ذاته الشريفة تحدث له صورة في نفسه عن هذه الذات لينقلها الى المؤمنين به فتحدث لهم أيضا صورة نفسية عن هذه الذات . وولع النفس المحبة بالصورة المادية الشكلية لمن تحب أمر نعرفه عند الكتاب وعند الأدباء وعند الشعراء بل وعند النبوة أيضا . . . فان رسول الله ﷺ حينما عرج به الى السماء وتكلم عن سيدنا موسى وتكلم عن سيدنا عيسى وتكلم عن سيدنا ابراهيم ، سئل من أصحابه : ما كان شكل ابراهيم ؟ . . ما كانت صفة موسى ؟ . . ما كان شكل عيسى ؟ . . فيقول ﷺ : « أما موسى فرجل آدم طوال كأنه من رجال أزد شنوءة » أعطى وصفا مقربا لسيدنا موسى بالأدمة في لونه وبهذا الطول . . وحينما يتكلم عن سيدنا عيسى يقول : « كثير خيلان الوجه » ومعنى كثير خيلان الوجه في عرفنا الحسنات التي نقول عنها : فلان في وجهه حسنة ، أي في وجهه خالات كثيرة « يقتر وجهه » يعني مندى دائما رطب (كأنه يخرج من ديماس) أي كأنك حين تراه تراه خارجا من حمام وما يتبع ذلك من كثرة العرق المتصبب منه . وبعد ذلك يقول عنه عليه السلام : « أشبه أصحابكم به عروة بن مسعود الثقفي » فكأن من يريد أن يتخيل صورة عيسى عليه السلام فعليه أن ينظر الى عروة .

وبعد ذلك يقول عن سيدنا ابراهيم : « أما ابراهيم فأشبه الناس به صاحبكم هذا » يعني ذاته الشريفة .

ورسول الله ﷺ لم يقل ذلك الا لأنه يعلم أن النفس المحبة تشتاق على أن تأخذ فكرة ولو جمالية عمن تحب . . حتى اذا ما تصور المعاني تصورها في مجنب يمكن للعين أن تستوضحه ويمكن للنفس البشرية أن تأنس بذلك القالب ، . . . . فهو حين يسأل الحسن خاله هند بن أبي هالة عن حلية رسول الله ﷺ يريد أن يعطي نفسه ذلك الزاد التصوري ، ويريد أن ينقل لنا ذلك الزاد التصوري ، والا فمن منا يتخيل كيف كان شكل رسول الله ﷺ ؟ . . كيف كان طوله ؟ . . كيف كان لونه ؟ . . كيف كان شعره ؟ . . كيف كانت مشيته ؟ . . كل ذلك أمر شغل الناس جميعا ، فلو لم تأت هذه المسألة في سيرته ﷺ لكان ذلك هو العجب . . ولكن بمجيئها يثل أنه أعطى شيئا تتطلبه النفس البشرية ، فماذا قال هند بن أبي هالة في حلية رسول الله ﷺ ؟ قال :

« كان رسول الله ﷺ فخما مفخما » ومعنى فخما مفخما أن العين لا تتقحمه ساعة ينظر اليه الانسان تجد له فخامة . . يجد له عظمة . . يجد له هيبة . . اذن لا تتقحمه العين يعني يعطي شيئا من الجلال وشيئا من المهابة وهذا أمر يتطلبه موضعه من رسالة الله في الأرض . . فخما مفخما . . ثم ينتقل الى وجهه ليعطينا الصورة . . والوجه هو السمة الأصيلة في تشخصات الأشخاص ، فيقول : « يتلألأ وجهه تلألأ القمر ليلة البدر » . . .
وبعد ذلك يعطينا الفكرة عن قوامه ﷺ فيقول : « هو أطول من المربوع وأقصر من المشذى » والمربوع الذي كما نقول في عرفنا : أنه مربع ، يعني : طوله أقرب من عرضه . . والمشذى هو الطويل البائن في نحافة . . تخيل الصورتين : الطويل البائن الطول في نحافة والرجل المربوع الذي يكاد طوله يقرب من عرضه . . الصورة اذن ليست الصورة الكمالية التي توجد للطول . . هو أطول من المربوع وأقصر من المشذى . . يعني بين بين . . يعني هو في أوسط القوام . . وبعد ذلك يقول (عظيم الهامة) ومعنى عظيم الهامة أن رأسه وما يحملها من رقبة ساعة تراها ترى عظمة تستميل وتستلفت النظر . . وبعد ذلك يقول عنه (وكان رجل الشعر) ، والرجل من الشعر هو الذي بين الجعودة والسبوطة يعني (بعرفنا) ليس بالشعر الناعم أو الشعر المجعد يعني أنه شعر متموج . . (اذا انفرقت عقيقته . فرق والا فلا ، يتجاوز شعره شحمة أذنيه اذا هو وفره) ومعنى اذا هو وفره ان ذلك لم يكن حالة رسول الله ﷺ دائما . . فلأنه كان مثلا في النسك يحلقها بالموسى . . اذن فحين يأتي أمر نسكي يتطلب منه ﷺ أن يحلقه . . يحلقه . . بالدليل القوي (اذا هو وفره) . . وكأنه كان يوفره مرة ولا يوفره مرة أخرى . . وبعد ذلك ينتقل من موضوع شعره فيتكلم عن شيء آخر . . يتكلم عن لحيته يقول : (كان كث اللحية) . . .

وبعد ذلك ينتقل الى عينيه فيقول (أدعج) والأدعج هو من كان سواد عينيه شديدا . . وبعد ذلك ينتقل الى شيء آخر فيقول (كان ضليع الفم) أي متسع . . وهذا أمر تحمده العرب . . وخصوصا فيمن كانت رسالته البيان ولذلك يقولون : مفوه . . أي يتكلم بالكلام ، وفمه ليس ضيقا بحيث يحجز الصوت حجزا يجعله أشبه بالصفير ولكن الصوت يأتي من كل جوانب فمه وذلك أدعى الى أن يأخذ الصوت كل الأنغام التي تؤثر في

السامع ، . . وبعد ذلك يقول (معتدل البدن متماسكا) ومعنى متماسك أن سمنته ومعنى الشنب في لغة العرب أن أسنانه رقيقة دقيقة . . فيها مائية تعطى بريقا . . وبعد ذلك يقول (مفلج الأسنان) مفلج الأسنان يعني فيه فضاء بين أسنانه وذلك ادعى الى طيب الفم لأن بقايا الطعام لا تتخلل الفضاء بين أسنانه فتتعفن ، . . وبعد ذلك يقول (معتدل البدن متماسكا) ومعنى متماسك أن سمنته ليست مرهلة أو كما نقول مضمر ، أي إن كان فيه شيء من السمنة فليس من السمنة المسترخية . . وبعد ذلك ينتقل نقلة أخرى فيقول : (وكان ﷺ ضخم الكراديس) وهي رؤوس العظام ومعنى ضخم الكراديس أنه منبسط يعني ليس كالأحدب أو المتجمع أو المنقبض بل هو مفرود القوام . . وبعد ذلك يتكلم عنه ﷺ فيقول : (وكان ﷺ أشعر الذراعين) أي ذراعه به شعر (والمنكبين وأعالي الصدر ، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالفرط) يعني أنه دقيق . . شعرة متواترة وراء شعرة . . فانظروا الى هذه الدقة التي استوعبت حليته ﷺ . . وبعد ذلك يقول : (خمصون الأخمصين) أي أن وسط قدمه بالداخل لا يلتصق بالأرض ، وهذا عيب خصوصا فيمن يطلب منهم أن يكونوا عدائين أو جرائين أو . . الخ وهو ما يسمى (فلات فوت) ومع ذلك كان يقول : (وكان مسيح القدمين) يعني أنه لا توجد تجاعيد في بشرته . . فاذا صببت عليها الماء لا يحتجز منه شيء بل يسيل عنها الماء ويتدحرج عليها كأنها من البلون . . وبعد ذلك ينتقل الى وصف آخر فيقول : (كان ﷺ شثن الكفين والقدمين) ومعنى ذلك كما نقول في عرفنا : غير ظاهر العروق . . (وكان سائل الأطراف) يعني أصابعه فيها شيء من الطول والاسترسال . .

وحينما يتكلم بعد ذلك عن رسول الله ﷺ ينتقل الى شيء آخر فيقول « وكان دائما خافض الطرف » وخافض الطرف يعني مغمضا بعض الشيء . . (نظره الى الأرض أطول من نظره الى السماء ، جل نظره الملاحظة يسوق أصحابه ويبدأ من لقيه بالسلام) ومعنى يسوق أصحابه أنه حينما كان يمشي دائما يكون أصحابه أمامه ويكون هو ﷺ خلفهم . . ولما سئل عن ذلك مرة قال : « خلو ظهري لملائكة ربي » . . ويبدأ من لقيه بالسلام . . وذلك شأن المتلطف . . كل هذه الصفات . . ، الصفات الخلقية تعطينا أن رسول الله ﷺ استوقف أنظار هؤلاء حتى استوعبوها هذا الاستيعاب لينقلوها الينا لتعطينا شيئا من راحة النفس حين نتصور كيف كان رسول الله ﷺ .

منطقه صلى الله عليه وسلم

الرسول ﷺ أسوة . . وأسوة إنما تأتي فيما يمكنه أن يصنعه المتأسي بالمتأسى به . . صفاته ﷺ الخلقية لا مجال لأحد أن يقول : أتأسى بها لأنها هبة الله سر للانسان . . اذن الصفات الخلقية التي تكلم عنها الحديث انما كانت مدخلا ليعطينا الصورة عن الأشياء الأخرى حتى تقع التصورات المعنوية التي يمكن أن أحمل سلوكي عليها على شيء موضح في الذهن يستطيع الانسان أن يجعل هذه الخلال قائمة به . . اذن فالصفة الخلقية لا تصل لنا بالأسوة فيها أبدا لأن هذه هبة الله . . ولا نقدر أن نقول لرجل : تأس برسول الله أن تكون طويلا . . أو تأس برسول الله أن تكون قصيرا . . أو . . . الخ . ولكن الأسوة الحقيقية هي فيما يصدر عن هذه الذات الكاملة من الصفات الخلقية التي يمكن أن يكون للأسوة فيها مجال . . ولأن رسول الله ﷺ مهمته عن ربه البيان . . لقد كان أول شيء انتقل اليه الحسن في سؤاله خاله هند بن أبي هالة قال : صف لي منطقه . . فأعطانا هند صورة عن منطقه فقال :

(كان ﷺ متواصل الأحزان) أي أنه كان يحزن للمهمة التي كان يقوم بها . . وهذا الحزن هو ما يفسره الحق في قوله سبحانه ﴿لا تحزن﴾ ﴿لعلك باخع نفسك على آثارهم﴾ . . . حينما يجد انصرافا عن الدعوة وهي دعوة متضحة في ذهنه وبفطرته ، وبتكوينه يعجب أن هؤلاء لا يؤمنون بها . . فهو يحزن لهم ولا يحزن لأمر يتعلق به هو . . ولذلك يجب أن نلتفت جيدا الى أن الحزن من رسول الله ﷺ انما يؤخذ لو أن الحزن كان لأمر يتعلق بشيء ناله ، ولكن الحزن كان لأمر يتعلق بشيء ينال الآخرين . . وهذا يدل على حرصه ﷺ . . . فاذا أنا حزنت مثلا لأن ابني لا يطيع كلامي أو لأن ابني لا يلتفت الى واجبه فهو لا يعتبر حزنا لأمر عائد عليّ وانما هو حزن على من يحزن عليه . . لا على نفسه . . فقال له عنه (كان متواصل الأحزان دائم الفكرة) دائم الفكرة لأن مهمته تستلزم

هذا . . كيف يقابل هؤلاء . ؟ . . كيف يكون منهج الدعوة ؟ . . ماذا يصنع في أتباعه المضطهدين ؟ . . ماذا يصنع في القوم يتكالبون على الضعفاء ويريدون أن يفتنوهم عن دينهم ؟ . . وبعد ذلك يقول : (وكان طويل السكوت) . . ثم ينتقل الى كلامه ﷺ فيقول : (يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه) يعني - بعرفنا - لا يتكلم من طرف مناخيره . . فكلامه يملأ فمه حتى يأتي من هذا الشدق . . أي كما قلنا سابقا (مفوه) . . وبعد ذلك قال : (يتكلم بجوامع الكلم) ومعنى جوامع الكلم : الكلمة الموجزة تحمل المعاني المطلوبة . . لماذا ؟ . . لأن عنده اعجاز وما دام عنده اعجاز اذن فيمكن أن يلم كثيرا من المعاني في اللفظ الموحي والمعبر . . . (يقول القول فصلا لا فضول فيه) أي لا زيادة فيه عن المطلوب . . ولا تقصير فيه عن المطلوب . . وبعد ذلك يقول : (كان دمثاً) ومعنى دمثاً أنه كان ﷺ لين الخلق يأنس اليه من يلقاه . . ويأنس اليه من ينظر اليه . . ويأنس اليه من يتحدث اليه . . يقول : (لا يذم ذواقا ولا يمدحه) أي لا يذم طعاما قدم اليه ولا يمدحه . . لا يذمه لأنه نعمة . . ولماذا لا يمدحه ؟ . . لأن مدح أي ذواق ربما كان تعريضا لأن الطعام الآخر الذي لم يمدحه مكروه فلا يذم ذواقا ولا يمدحه . . (لا يقاوم غضبه اذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له ، ولكنه كان لا يغضب لنفسه ولا يستفزه شيء) .

وبعد ذلك يتكلم عن لحركته الأدائية لحركة حين يتكلم فيقول : (اذا أشار أشار بيده كلها) يعني لا يشير بالاصبع كما اعتاد الكثير من الناس . . ولكن لماذا اذا أشار أشار بكفه كلها ؟ . . فكأنه ادخر المسبحة للتوحيد فقط . . لا يشير بها الا للتوحيد فقط . . فيشير بكفه كلها . . (واذا تعجب قلبها) أي اذا تعجب من أمر صار يقلب كفه . . (واذا تحدث اتصل بها) ومعنى اتصل بها أن يضرب بابهام اليمنى راحة اليسرى . . (واذا غضب أعرض وأشاح) ومعنى أنه اذا غضب أعرض وأشاح أنه رؤوف حتى في حالة غضبه . . لا يريد أن يرى من أغضبه شكله وهو غضبان . . (واذا فرح غض طرفه جل ضحكه التبسم) أي لا يقهقه . . (ويفتر عن مثل حب الغمام) .

* * *

مدخله صلى الله عليه وسلم ومجلسه

لنستدل على دقة التوثيق في كل ما نقل . . ينتهي هنا كلام الحسن رضوان الله عليه . . ثم ينتقل الكلام الى أخيه الحسين ، قال الحسن في الحديث : (فكتمتها عن الحسين زمانا) أي كتمت هذه الأوصاف التي قالها هند للحسن عن أخيه الحسين . . . (ثم حدثته بها فوجدته قد سبقني اليه فسأل أباه عليا) وليس هند ، ولكن سأل عليا أباه . . وعلي هو من هو أداء وبيانا . . وحبا واستقبالا لصفات رسول الله ﷺ . . . فسألته عن مدخل رسول الله ﷺ ومخرجه ومجلسه وشكله وكل شيء يتعلق به . . فلم يدع من ذلك شيئا ـ الرواية هنا للحسين ـ قال الحسين : (سألت أبي عليا عن دخوله ـ ﷺ ـ فقال : كان دخوله ـ ﷺ ـ لنفسه مأذونا له في ذلك) يعني تميز رسول الله ﷺ في أنه كان اذا دخل على قوم لا يستأذن . لماذا ؟ . . لأن عنده الاشراقيات . . وعنده النور الذي يعرف أنه لا يدخل على انسان وهو في حال لا يجب أن يراه عليه رسول الله ﷺ . . . وما دام هذا الأمر ، ما هو معنى الاستئذان ؟ . . الاستئذان ألا أقتحم على أحد حجابه . . لماذا ؟ . . لأنه ربما كان في وضع لا يجب أن أراه عليه . . ولكن رسول الله ﷺ باشراقياته يعرف أنه حين يدخل لا يكون من دخل عليه في حال يجب أن يستره عن رسول الله ﷺ ، ولان رسول الله ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم . . (وكان اذا آوى الى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء : جزءا لله) لأن هذا هو المعين الذي يتلقى منه الكماليات . . (وجزءا لأهله ، وجزءا لخاصة نفسه) فاذا ما نظرنا الى هذا الجزء الذي هو خاصة نفسه . . كان ماذا يصنع فيه ؟ . . (جزأه ـ أي الخاص بنفسه ـ بينه وبين أمته فيرد ذلك على العامة بالخاصة) يعني الخاصة الذين يفهمون اليه ، يقول لهم هذا في هذا الجزء من خاصة نفسه ما ينقلونه الى العامة . . لأنه ليس من المعقول أن عامة المسلمين كلهم يذهبون الى بيت رسول الله ﷺ : والمكان الضيق الذي به الرسول ﷺ ، فكان يرد ذلك على العامة والخاصة . . (وكان من سيرته في جزء الأمة ايثار أهل الفضل باذنه)أي يأذن لهم بالدخول عليه . . (وقسمتهم الوقت) كان كل واحد لمقامه من رسول الله ﷺ تقديما أو اعطاء وقت زائد على قدر فضلهم

في الدين (فمنهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحاجتين ومنهم ذو الحوائج) اذن فكأن رسول الله ﷺ يجعل مقاييس الإذن وطول المدة معه أو طول الحديث معه يتحكم فيه منزلة الرجل من الدين ، وما دام التحكم المنزلة من الدين ، فهذا يعطينا دستورا للحاكمين أن يكون المقياس مقياسا دينيا . . وليس مقياس النفاق والغش . . فعلى مقدار حظه من دين الله بأخذه اذن رسول الله ﷺ وبأخذ قسمته . . (منهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحاجتين ومنهم ذو الحوائج ثم بعد ذلك يتشاغل بهم) يعني لا يكونون معه ثم يسرح بعيدا عنهم . . بل هم يتشاغلون به ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة من مسألته عنهم . . يعني حين يدخل يسأل الانسان عن حال نفسه ، وهذه عملية نفسية . . لماذا ؟ . . لأن هذا الانسان القادم اليك اذا كان عنده شيء من مشاغله الخاصة يشغله لا يحسن استقبال ما تقول . . ورسول الله ﷺ يريدهم أدوات استقبال . . الفرصة التي يجتمعون معه فيها ينقلون الى الناس شيئا ، فاذا ما كانت هناك أمور تشغله في خاصة نفسه ربما شغلته هذه الأمور . . أو ربما أخذت هذه كل فكرة يجب أن يستوعبها عن رسول الله ﷺ من مسألته عنه واخبارهم بالذي ينبغي لهم . . ثم بعد ذلك ثمن الاذن عليه وثمن القسمة الزمنية التي يعطيها بطلب منهم أن يؤدوا مطلوبات هذه القسمة وهذا الاذن فيقول : (ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، وأبلغوا في حاجة من لا يستطيع ابلاغي حاجته) وهذا يعطينا الدرس على أن الذين تكون لهم أسباب الى السلطان أو أسباب الى الحاكم أو أسباب الى الوالي يجب أن يكونوا رسل خير . . وسفارة للذين لا يستطيعون ان يقتربوا من مكانه وأن يأتوا الى حضرته ليسمعوا عنه . . ليبلغ الشاهد منكم الغائب وأبلغوني حاجة من لا يستطيع ابلاغه حاجته . . ثم يعمم الحكم فيقول : (فانه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع ابلاغه ثبت الله قدميه يوم القيامة) معنى ذلك أنه يعطي الأسوة المطلوبة في أن يكون الذين يحظون بآذان الحاكمين أو يحظون بمجالس الحاكمين أن يكونوا وسائل خير عندهم لمن لم يستطع أن يصل الى ذلك المكان . . والثمن أن يثبت الله قدميه يوم القيامة . . قال في رواية سفيان بن وكيع (يدخلون رُوادا) ومعنى يدخلون روادا أي لا يتطلبون الدخول لقصد الدخول وانما يتطلبون الدخول لكي يكونوا روادا يحملون الخير الى الناس . . . (ولا يتفرقون الا عن ذواق ويخرجون أدلة) يعني فقهاء كل واحد منهم يستطيع أن ينقل ما سمعه من رسول الله ﷺ ، وأن يقول ما فقهه عنه وبذلك تنتشر دعوته ﷺ عند من لم يحضر مجلسه بواسطة من حضر هذه المجالس .

مخرجه صلى الله عليه وسلم

قال الحسين : فسألته عن خروجه ﷺ كيف كان يصنع فيه ، فقال : « كان ﷺ يخزن لسانه الا مما يعنيهم ويؤلفهم ولا يفرقهم » ومعنى يخزن لسانه أنه لا يهزل في كلامه . . لا يتكلم الا في الموضوع الذي يعلم أنه يؤلف القوم ويعني هؤلاء القوم . . (وكان يكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم) يكرم كريم كل قوم لأن ما معنى كريم كل قوم ؟ . . هو الذي يجد عنده القوم راحتهم في ذوات نفوسهم . . في ذوات أيديهم الضيقة . . وما دام انسان خصاله الكريمة متعدية الى الغير ، وما عنده من خير الله متعد الى الغير فمثل هذا يؤتمن أن يكون واليا على هؤلاء لأنه اذا كان قد تعدى منه الخير وهو غير ظالم فهذا يطمئن على أنه ان ولي الأمر فلن يأخذ شيئا لنفسه . . فانه يكرم كريم كل قوم لأنه يستحق أن يكرم . . وبعد ذلك يوليه عليهم . . وبعد ذلك قال : (يحذر الناس من غير أن يطوي عن أحد بشره وخلقه) يعني فطن . . يعرف حين يتكلم انسان أن يزنه بالميزان الاحتراسي . . بالميزان الحسي . . لأن الرسول ﷺ كان عرضة لأن يدخل عليه المنافقون . . كان عرضة لأن يدخل عليه من يدس عليه ، فكان ﷺ يحذر الناس لكن هذا الحذر لا يتعدى الى انفعاله على الغير . . (من أن يطوي عن أحد بشره وخلقه ، يتفقد أصحابه) ومعنى يتفقد أصحابه أنه اذا غاب واحد سأل عنه . . أين فلان ؟ ولماذا ؟ . . مريض . . في حاجة . . في اي شيء . . هذه تدل على حسن رعايته لأصحابه . . واذا ما نظرنا الى مجرد سؤال القائد أو صاحب الجاه عن انسان تردد عليه ثم انقطع . . وهذا يعطيه معنوية في ذاته . . يعطيه أنه مذكور . . يعطيه أنه غير منسي . . يعطيه أنه اذا غاب افتقد . . هذا كله لصالح أمر الدعوة . . (يتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس) لأنه ربما كان انسان عنده حياء لا يستطيع ان ينقل الى رسول الله ﷺ ذات نفسه أو ظروفه الخاصة فيسأل فلانا عن حال فلان . . ربما أنه كان يستحي أن يقول لرسول الله ﷺ شيئا . . (يحسن الحسن ويصوبه ، ويقبح القبيح ويوهنه ، معتدل الأمر غير مختلف ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو

يميلوا) لا يغفل عن شيء مخافة أن تكون فيه أسوة بالغفلة ، وهذا يعطينا قاعدة أن الوالد أو الذي يتولى صدارة شيء لا بد أن يحاسب نفسه قبل أن يطلب حساب الغير . . لماذا ؟ . . لأنه اذا غفل من له الولاية على الأمر في شيء فالتابع يكون في شيئين وتابع التابع في ثلاثة وتابع تابع التابع في أربعة . . اذن فالعصمة تأتي هنا من أن يكون من بيده الأمر الأعلى لا يغفل عن شيء حتى لا يستغله من هو دونه ليفعل فعله . . واذا ما نظرنا الى الفساد الموجود في أي ادارة أو أي جهة هي أن المرؤوسين أو المتبوعين يجربون على الرئيس الأعلى شيئا من النقص أو شيئا من التهاون أو عدم الدقة والاحتياط في الأمور . . ومعنى ذلك يكونون هم كما يحبون . . ومن هنا ينشأ الفساد . . فلا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا . . (لكل حال عنده عتاد) أي لكل حال من الأحوال عنده قوة وميزان يعطي الحال على قدر حجمه . . (لا يتجاوز الحق ولا يقصر عنه ، الذين يلونه من الناس خيارهم) يلونه من الناس أي في مجلسه . . (وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة) يعني اذا جلس معه ينصحه ويقول لهذا كذا ولهذا كذا وليس لمن يغشه . . لكن اذا نظرنا في مقاييس الحكم الفاشل أو الادارات الفاسدة نجد أن الذين يلون الناس من الناس هم الذين ينافقونهم . . هم الذين يحسنون لهم القبيح . . هم الذين يقبحون لهم الحسن . . هم الذين ينقلون الى أذن الحاكم أو الوالي أشياء غير واقعة لكي تخدم اغراضا عندهم . . ولكنه ﷺ كان الذين يلونه من الناس خيارهم وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة . ويعني أعمهم نصيحة هو الذي ينصح في كل أمر يرى فيه وجهة الخير لصالح منهج الدعوة .

وبعد ذلك يتكلم سيدنا الحسين رضي الله عنه عن شيء آخر يتعلق برسول الله ﷺ . . ويستهل هذا الحديث أن سيدنا رسول الله ﷺ يجلس ولا يقوم الا على ذكر . . لأن معنى لا يجلس ولا يقوم أي لا ينتقل من حال الى حال . . أي بداية ونهاية . . معنى يجلس أنه كان قائما ومعنى يقوم أنه كان جالسا . . اذن الرسول ﷺ بين قائم وجالس . . فاذا كان ﷺ لا يقوم ولا يجلس الا على ذكر يعني أنه حين يكون في أمر آخر يذكر الحق سبحانه وتعالى . . ومعنى يذكر الحق : أن يكون الذي صرفه عن القيام الى الجلوس أمر يتعلق بالله سبحانه وتعالى . . والذي صرفه عن الجلوس الى القيام أمر يتعلق بالله سبحانه وتعالى . . وما دام الله على ذكره حين يجلس اذن كل أموره دائما على ذكر من الحق سبحانه وتعالى . .

وبعد ذلك حينما يتكلم عن المجلس يقول : « لا يوطن الأماكن وينهي عن ايطانها » يعني ليس لأحد مكان مخصوص . . بحيث اذا أتى لا بد أن يجلس فيها . . (**فكان اذا انتهى الى قوم جلس ﷺ حيث ينتهي به المجلس**) فاذا كان الرسول ﷺ اذا ذهب الى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس . . يكون قدوة لكي لا يكون لأحد مكان خاص . . بحيث يحفظ له . . ان كان غائبا . . أو يقوم غيره عنه إن أقبل عليه . . (**يعطي كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب أحد أن أحدا أكرم عليه منه**) تلك هي عدالة الرعاية . . لا ينصرف بحديثه ولا بعينه ولا بأذنه الى واحد دون الآخر . . بل يوزع هذه الحظوة على الجميع بالتسوية . . لماذا ؟ . . لأنه اذا ما اتجه الى انسان ولم يتجه الى آخر . . هذا الانسان ربما أخذ منزلة والرسول ﷺ معصوم . . وحينما يكون هو أسوة فهو يعلمنا أن الحاكم لا يصح له أن يوزع عنايته ورعايته على واحد خاص . . بل يجب عليه ما دام أعلن لأن يدخلوا عليه مجلسه وأن يجلسوا عنده ، فعليه أن يوزع نظره . . ويوزع أذنه . . ويوزع تحيته . . ويوزع كلامه ان تكلم على الجميع . . حتى لا يعرف أحد أن فلانا خير منه عند رسول الله ﷺ ، لأن المقاييس كما قلنا هي المقاييس الايمانية . . (**أفضلهم عنده أعمهم نصيحة وأشدهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة**)

وأيضا فان الحسين رضي الله عنه حينما تكلم عن الرسول ﷺ في هذه المسألة زاد أمر آخر بعدما قال : (**من جالسه أو قاومه لحاجته**) يعني أخذ رسول الله ﷺ وجلس معه ليتكلم معه في حاجة أ قاومه أي أخذ وهو قائم . . (**صابره حتى يكون هو المنصرف عنه**) اذن الإذن لمن ؟ . . الإذن ليس له . . انتهاء المقاومة ليس له . . انهاء الوقت ليس له . . وانما هو لمن يجالسه أو لمن يقاومه . . (**ومن سأله حاجة لم يرده الا بها أو بميسور من القول . . قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء . . مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة . . لا ترفع عنده الأصوات ولا تقبل فيه الحلم ولا تنسى فلتاته**) هب أن واحدا قال كلمة أو فلتة صارت منه . . لا ينقل من مجلس رسول الله ﷺ الى غيره وكأنها لم تحدث أبدا وكأنها حذفت .

أدبه صلى الله عليه وسلم مع جلسائه

يقول الحسين أيضا في روايته عن أبيه ان رسول الله ﷺ (كان دائم البشر . . لين الجانب . . سهل الخلق) وهذه هي الصفات العامة . . وبعد ذلك قال : « يتغافل عما يشتهي » يعني إن حدث شيء أمامه وهو لا يشتهيه يتغافل عنه وكأنه لم يره . . لأنه ﷺ يقدر نوازع النفس البشرية . . فلا يحب أن يخجل صاحب الشيء بأنه رأى منه . . (يتغافل عما لا يشتهي ولا يقبس منه. قد ترك نفسه من ثلاث : من الرياء ومن الاكثار ومما لا يعنيه . . وترك الناس من ثلاث : لا يضر أحدا ولا يعيره ولا يطلب عورته . . لا يتكلم ﷺ الا فيما يرجو ثوابه) يعني لا فضول عنده . . ان كان في هذه الكلمة ثواب تكلم بها . . واذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤوسهم الطير) ومعنى على رؤ وسهم الطير كناية عن أنه اذا كان فيه جماعة فكل واحد منهم يخاف أن يحرك رأسه مخافة أن يطير الطير . . (فاذا سكت تكلموا) هذا أدبهم مع حديثه ﷺ . . ويتكلم بعد ذلك عن أدبهم عند حديث أخوانهم فيقول : « حديثهم حديث أولهم » يعني بالدور . . ولا أحد يقاطع لمتكلم . . (فاذا تكلم عندهم انسان لا يقطعون عليه كلامه حتى يفرغ فاذا فرغ تكلموا) وبعد ذلك لا يتعالى عليهم رسول الله ﷺ ويبين لهم مكانته العظيمة . . (يعجب مما يعجبون منه . . ويضحك مما يضحكون منه . . ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق) يعني واحد لا يعرف قدره ﷺ وبعد ذلك اشتد في منطقه كان يتطلف معه ويصبر عليه حتى أن بعض أصحابه كانت أمثال هذه المسائل قد تغيظهم وقد تهيجهم ليقوموا فيقتلوه . . ولذلك لما جاء الرجل الى النبي ﷺ وطلب من رسول الله ﷺ شيئا فأعطاه الرسول ﷺ ما عنده . . قال له : يا أخا العرب أحسنت اليك ؟ فقال : لا أحسنت ولا أجملت !! . . واحد يقول لرسول الله ﷺ : لا أحسنت ولا أجملت . . ماذا يكون موقف صحابة رسول الله ﷺ : دعوه . . ثم أخذه بيده ودخل البيت وزاده خيرا مما عنده في بيته . . ثم قال : يا أخا العرب أحسنت ؟ . . قال : أحسنت وأجملت . . فبورك فيك من أهل وعشيرة . . فقال ﷺ له :

اذا نحن خرجنا الى أصحابي فقل عندهم ما قلته حتى ترضي خواطرهم . . فلما خرجوا قال : لقد قال أخي كذا وكذا وكذا . . فقال الرجل : نعـم . . فلما هدأوا . . قال لهم رسول الله ﷺ : « انما مثلي ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت منه فتبعها أصحابه فزادوها نفورا . . فقال الرجل للقوم : يا قوم دعوني وناقتي فأنا أعلم بأمرها . . فسكتوا . . ثم أخذ يجمع شيئا من الأرض ويمدها الى الناقة . . فجاءت الناقة لتأخذ ما في يده حتى أناخها وامتطاها . . فمثلي ومثل هذا كمثل الرجل وناقته ، ولو أنكم قمتم فقتلتموه أو صنعتم لي معه شيئا لدخلتم النار » . . هذا هو موقفه ﷺ من أنه يصبر للغريب على الجفوة في المنطق . . وبعد ذلك يقول الحسين رضي الله عنه : « وكان لا يقبل الثناء الا من مكافىء » يعني الذين يتطوعون بالمديح لا يقبل منهم . . أيما كلمة ثناء فقال ردا على موقف : « جوزيت خيرا » لأنه صنع كذا وتقبله . . (لا يقبل التطوع بالثناء ويقبله من مكافىء) يعني من مكافىء على جميل قدمه رسول الله ﷺ . . وبعد ذلك يقول : « وكان لا يقطع على أحد حديثه حتى يجوزه هو فيقطعه بانتهاء أو بقيام » وهنا انتهى الحديث . . الا أن حديث وكيع بن أبي سفيان زاد شيئا . . إنه سأل عن سكوته ﷺ فقال : « جمع له ﷺ السكوت في أربع : في الحلم والحذر والتقدير والتفكير » أما التقدير - كما قلنا سابقا - في تسويته النظر والاستماع بين جلسائه . . وأما التفكير ففيما يبقى وفيما يفنى . . (وجمع الحلم في الصبر - فكانه لا يغضبه شيء يستفزه لذاته - وجمع له في الحذر أربع : أخذه بالحسن ليقتدى به ، وتركه القبيح لينتهى عنه ، واجتهاد الرأي في اصلاح الأمة ، والقيام لأمته بما جمع لهم من أمر الدنيا والآخرة) صلى الله وسلم عليه وعلى آله .

* * *

المعجزات النبوية

للسنة النبوية معجزات أفردت بالتأليف تحت عنوان (أعلام النبوة) وهي تخبر بأشياء مستقبلة ، ليس للمخبر دخل في وقوعها ، حتى لا يعتبر الوقوع منه افتعال لتصديقه فيما يقال .

والمعجزة ليست مهمة لمن نقلت اليه ، ولكن لمن شاهدها ، لأن الله أجراها على يدي رسول الله ﷺ ، ليثبت بها ايمان من عاصره ، حتى يقوى على تحمل تبعات أولية الايمان في عالم الكفر .

فتفجر الماء من بين أصابعه ﷺ مثلا ، واشباع العدد الكثير بالقليل من الطعام ، كل ذلك مقصود به من شاهد هذه الوقائع . أما من لم يشهدها ، فان اتسع ظنه لحصول ذلك على يديه ﷺ فبها ونعمت ، ومن لم يتسع ظنه لذلك ـ بسبب ما قد يراه خللا في الأسانيد ـ فحسبه معجزة القرآن الباقية الخالدة . .

والذي يعطينا اليقين في اعجازات النبوة ، هو ما صدر عن رسول الله ﷺ من قول أكده مستقبل الزمن الآتي بعد القول .

فمثلا حين يخط الرسول ﷺ يوم بدر على الأرض مكان مصرع كل واحد من صناديد الكفار ، ثم تدور المعركة ، فليس لمحمد ﷺ ولا لأتباعه قوة تستطيع أن توجد المقتول في المكان الذي رسمه ﷺ ، لأن المعركة كر وفر بدون اعداد سابق ثم يحدث وأن تأتي مصارع القوم في أماكنها التي حددها الرسول ﷺ !

ولنتناول بتفصيل أكثر قصة سرية مؤتة ، حينما أخبر ﷺ بتتابع الثلاثة : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وقال : ان قتل زيد فالأمير جعفر فان قتل ، فعبد الله بن رواحة . فان قتل ، فليرتض المسلمون رجلا من بينهم .

والذي يعنينا في هذه الغزوة ، ما أخبر ﷺ ـ وهو بالمدينة ـ حين نادى في الناس : الصلاة جامعة ، ثم صعد المنبر وعيناه تذرفان ، وقال : أيها الناس ، أخبركم عن جيشكم هذا الغازي ، انهم انطلقوا فلقوا العدو فقتل زيد شهيدا ، فاستغفروا له . . ثم أخذ الراية جعفر فشد على القوم حتى قتل شهيدا ، فاستغفروا له . . ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة وأثبت قدميه حتى قتل شهيدا فاستغفروا له ، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد . .

كل ذلك ولم يكن أحد قد عاد من الغزوة ، والا لوجد المشركون ـ في رد هذه المعجزة ـ دليلا على أنه أخبر بعد أن أبلغ من بشر ، ولما قدم يعلى بن أمية رضي الله عنه على النبي ﷺ وهو أول وافد بخبر الجيش . . قال له النبي ﷺ : ان شئت فأخبرني . وان شئت أخبرتك . قال : فأخبرني يا رسول الله لأزداد يقينا . فأخبره رسول الله ﷺ الخبر كله ، ووصف له ما كان . فقال : والذي بعثك بالحق ، ما تركت من حديثهم حرفا واحدا . وان أمرهم لكما ذكرت .

من اعلامات النبوة أيضا : قوله ﷺ لجابر بن عبد الله (جذ . . واقض) وذلك أن جابر قد اقترض مالا من يهودي ، وكان ميعاده حين جني ثمر البلح ولكن نخل جابر لم يثمر في هذا العام ، فقال صحابة رسول الله ﷺ : يا رسول الله سل اليهودي أن ينظر جابرا لأن نخله خاس هذا العام ـ يعني لم يثمر ـ فطلب رسول الله ﷺ من اليهودي أن ينظر جابرا . فقال : لا يا أبا القاسم . .

فذهب الرسول ﷺ الى نخل جابر وسار خلاله وذلك في قصة طويلة ، ثم قال : يا جابر (جذ . . واقض) ، أي إجن الثمار وسدد ما عليك .

فذهب جابر فجذ وقضى . . ورجع الى رسول الله ﷺ فرحا مستبشرا ، وأخبره بما كان . فقال الرسول ﷺ : إشهد أني رسول الله .

فقوله جذ واقض ثقة منه في أن الله لن يخذله فيما أنطقه به ، والا لما جازف رسول الله ﷺ بين أصحابه بكلمة قد لا يصدقها الواقع . .

ومن أعلامه ﷺ ، ما حدث في غزوة الحديبية ، حين انتهى أمر المفاوضات الى أن يتفاوض عمرو بن سهيل عن قريش مع الرسول ﷺ . . وحين كتابة العهد ، قال ﷺ لمن

يكتب : أكتب هذا ما تعاهدنا عليه : محمد رسول الله قال عمرو : لو كنا نشهد أنك رسول الله ما وقفنا منك هذا الموقف . فأصر عمرو ألا توجد هذه الصفة وأصر علي بن أبي طالب ـ وهو الكاتب ـ أن يكتبها حينئذ . قال رسول الله ﷺ لعلي : أكتب ما يحب . أكتب عبد الله . فلم يقبل علي ، فقال له الرسول ﷺ ستسام مثلها ، أي ستتعرض لمثل هذا الموقف ، فتقبل . ثم توفي الرسول ﷺ ، وانتهى أمر الخلافة لعلي . وكان ما كان بينه وبين معاوية بن أبي سفيان في يوم صفين . فلما أرادوا أن يكتبوا عهدا ، قال علي لمن يكتب : أكتب هذا ما تعاهد عليه ابن أبي طالب أمير المؤمنين ، فقيل له : لو صدقنا أنك أمير المؤمنين ، ما حدث بيننا وبينك هذا ولكن انزعها من العهد . فنزعها . .

وذلك مصداق لكلام الرسول ﷺ لأنه لا ينطق عن الهوى .

شبهات أثارها المستشرقون والرد عليها

أثار بعض المستشرقين أباطيل بهدف التشكيك في الرسالة النبوية الشريفة ، ومن هذه الأباطيل :

١ ـ ما أثاروه عن صلته ﷺ بزوجاته وقد رأى بعضهم أن فيها نوعا من الخروج على مألوف الناس أو نوعا من الاستمتاع والانشغال بهذه المتعة عما في الحياة الروحية التي قامت دعوته على أساسها ، كذلك علاقاته بزوجاته .

٢ ـ بعض الآيات التي عاتب فيها الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ هل هذه تنتقص من الكمال النبوي وكمال المصطفى ﷺ ؟ . .

٣ ـ قوله : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ وقوله : ﴿ ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ﴾ والرسول اليوم ليس معنا . . فكيف يستغفر ؟ . . وهل معنى ذلك أنه لا مجال للاستغفار ؟ . .

* * *

شبهة تعدد الزوجات

ما يقوله المستشرقون ويروجونه وفتنتهم بالاستشراق دليل على رقة الدين عندهم .. هم يريدون أن يجدوا لأنفسهم شيئا مبررا ، هذه المسألة نبحث فيها مع مسلم لتثبيت اسلامه ومع غير المسلم .. لو كنا نريد أن نبحث مع غير المسلم فانا لا نبحث معه في جزئيات تتعلق بالرسول لأنه هو مؤمن بأنه غير رسول .. وما دام هو مؤمن بأنه غير رسول فماذا يضيره أن يكون ذلك الرسول سلوكه كذا وكذا وكذا ! .. ولكن ليأتي معي نبحث في رسالته أولا فان اقتنع بأنه رسول فبعد ذلك لنا ميزان آخر .. لأن أنا آمنت بالرسول بواسطة المعجزة التي جاءت على يده فاصبح الرسول عندي هو الحكم في كل كمال .. لا آخذ تصرفا من الرسول ثم أنصب أنا ميزانا من موازين الكمال أضعه لأقيس تصرفات الرسول عليه لأقول هذا يليق وهذا لا يليق .. لأن الأصل أن يكون فعله هو الكمال وهو المقياس .. أما أن أضع أنا مقياس كمال وأقول : تعال يا محمد يا ابن عبد الله يا من بعثت رسولا لكي أقيس تصرفاتك على الميزان الذي أضعه !! .. فهذا لا يمكن أبدا .. اذن فالأصل ان الرسول ما دام ثبت عندي أنه رسول صادق في التبليغ عن الله ففعله هو الميزان .. وبعد ذلك نأتي : لماذا يتهرب الناس الذين يتكلمون في الزوجات من موقفهم من الله الى موقفهم من الرسول ؟ .. محمد ﷺ لم يتزوج وانما زوج .. اذن المفروض أن يصعد الخلاف في المسألة الى الله وليس لمحمد لأن الآية تقول : ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن﴾ فكأن ربنا هو الذي يطلق لمحمد .. وهو الذي يزوجه .. وآية امرأة زيد بن حارثة ﴿فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها﴾ فمن الذي زوج ؟ .. الذي زوج هو الله .. اذن محمد منفعل .. وليس فاعلا للعملية .. فمن يريد أن يبحث .. عليه أن يصعد المسألة الى الله تعالى ويقول : لماذا فعل ربنا هكذا ؟ .. ثم الذين يبحثون هذا البحث نقول لهم : تعالوا ما دام أن المسألة احصائية .. هل الرسول وسع عليه أم ضيق ؟ .. صحيح أن النبي ﷺ كان جامعا لتسعة .. ومن كان جامعا لأكثر من أربعة من

أصحابه قال له : « امسك أربعا وفارق سائرهن » . . لكن هو لم يفعل هذا في نفسه . . لماذا ؟ . . كان يجب أن يسأل لماذا ؟ . . فيقول له : هؤلاء بخصوصهن مطلوبات . . بدليل أننا لو بحثنا لوجدنا الاباحة في المعدودات لا في العدد . . وهناك فرق أن يكون المباح المعدود والمباح العدد . . المباح المعدود . . يعني أن يكون عددهن تسعة بحيث اذا ماتت واحدة أو طلقها فعليه أن يأتي بواحدة غيرها . . هذا يكون لو أبيح له العدد . . وانما الذي أبيح له معدودات بحيث اذا نقصت واحدة فليس له أن يأتي مكانها واحدة . . وليس له أن يستبدل واحدة مكان أخرى ﴿لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن﴾ . . اذن نتكلم عن المعدودات لا عن العدد ، بدليل أنه لم يكن هناك نسق عاطفي في كل هذا الزواج . . الرسول ﷺ في سن الخامسة والعشرين تزوج خديجة وكانت فوق الأربعين . . وبعد أن ماتت تزوج سودة بنت زمعة ، فما حظ سودة بنت زمعة من جمال يعجب رسول الله ﷺ ؟ . . لقد كان زواجا لأجل الخدمة فقط . . ثم تزوج عائشة وهي بنت تسع سنوات لدرجة أنها لم تدخل عليه الا بعد ثلاث سنين لكي تكون مهيأة لبيت الزوجية . مع أنه قيل إنه لم يدخل بها الا في سن الخامسة عشرة . . وبعد ذلك نجد أن أم سلمة صاحبة عيال . . والخامسة .'. وغيرهن . . كل واحدة لها قصة . . اذن فالاستثناء هنا للمعدودات لا للعدد . . وكان يجب أن نخضع لهم لو أن ذلك عدد رسول الله ﷺ في الأزواج . . نقول : لا . . هذه معدودات رسول الله ﷺ في الأزواج وأيضا فان أي صحابي كان عنده أكثر من أربع أمسك أربعا وفارق سائرهن . . المفارقة هذه ستجد لها من يتزوجها . . ولكن هؤلاء أمهات المؤمنين . . فاذا قلنا : يا رسول الله امسك أربعا وطلق خمسا فأين يذهبن ؟ . . وأمهات المؤمنين لا يحل لأحد أن يتزوج منهن . . اذن فهذه بخصوص هؤلاء . . وهناك أيضا نظرة عاطفية أخرى حيث نجد أن في نساء رسول الله ﷺ من كانت تهب قسمتها لعائشة . . امرأة تهب قسمتها لضرتها ! ! . . ما مدلول ذلك ؟ . . انها تفطن جيدا لماذا تزوجها رسول الله . . انه تزوجها ليعطيها نيشانا بأنها أم المؤمنين فقط . . وما دام ليعطيها نيشان أم المؤمنين فقط فهي مدركة أنها لا تغني الرجل في مثل هذه المسائل .

وبعد ذلك نأتي الى ما استنبطه المرحوم مصطفى صادق الرافعي في أن نساء النبي

كبشريات أجتمعن عنده لكي يسألنه النفقة عندما رأين عنده أشياء أخذها من بني قريظة وأموالا أخذها من اليهود فأردن أن يكون هذا المال سببا في رفع مستواهن . . فلما اجتمعن يسألنه النفقة أنزل الله تعالى قوله : ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا﴾ لو أن النسق العاطفي موجود أو الاستمتاع موجود لأحضر لهن ما يتزين به ويرفههن وينعمن به . . ولكن قال لهن : ان هذه مسألة مقطوع منها ولا كلام فيها ﴿ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا﴾ . وبعد ذلك يعطي المنهج النبوي : ﴿وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما﴾ . . وهذا لا يتفق مع الاستمتاع ، اذن فالمسألة هذه اذا كان يبحثها مسلم نقول له : لا تضع أنت أيها الأخ المؤمن برسول الله وبصدق تبليغه عن الله معيارا من معايير الكمال . . ثم تأتي الى رسول الله ﷺ لتقول تعالى لأعرض تصرفاتك على المعيار الذي أضعه . . والا بذلك نكون أحللنا ونقلنا المعيار من يد رسول الله ﷺ وتصرفه الى أتباعه . . هذا من ناحية المسألة الأولى . . أما عن قوله ﷺ « حبب الي من دنياكم الطيب والنساء » حبب أي لم أحب . . فهو لم يقل أحببت حتى ينصرف الأمر الى أن هذه من غريزته ، فحبب الي كأنه أمر تكليفي عابه عليه من جعل الحب في قلبه . . وحبب الي من دنياكم يعني لست فاعلاً هذا الحب مثل (زوجناكها) تماما . . فكأن رسول الله ﷺ لا يجب أن نأتي تصرفاته ونقول كان يصح كذا أو لا يصح كذا . . وانما الأصل أن نقول : فعل أو لم يفعل ؟ . . فعل . . فهذا عين الكمال . . وكوني لم أفهم هذا الكمال فهو موضوع آخر .

* * *

شبهة العتاب

أما موضوع العتاب : فان المستشرقين اتخذوها أرضية لكي ينشروا اعتراضاتهم التي يشككون بها في القرآن الكريم . . مثلا يقولون : إن هناك آية في القرآن تقول عن الرسول : ﴿ما ينطق عن الهوى إن هو الا وحي يوحى﴾ ما دام إنه لم ينطق عن الهوى إن هو الا وحي يوحى . . ساعة نطقه بما عدل الله له . . فعن أي شيء نطق ؟ . . ساعة نطق بالأمر الذي عدله الله له فيها بعد أو عتبه عليه . . هم لا يفرقون بين النطق عن الهوى . . والنطق بالوحي . . أي أن رسول الله ﷺ لا يتكلم كلمة وعنده من الله وجه الحق فيها ثم هواه الشخصي يلفته عما عنده من الله . . فلان ما ينطق عن الهوى : ليس معنى ذلك أن يسارف الحقيقة انما المهم عنده أنه لم تكن عنده الحقيقة متضحة قبل أن ينطق ثم عدل عن الحقيقة ليخدم هوى في نفسه . . هذا معنى ما ينطق عن الهوى . . هو عندما كان يجتهد الرأي لم يكن عنده حكم قاطع في المسألة من الله ثم زين له هواه أن يخالف . . اذن ما ينطق عن الهوى . . يعني نطق رسول الله ﷺ كان عما انقدح في نفسه من الحق . . ولم يكن هناك حق معلوم له من الله ثم صرفه هواه عنه . . وهذا معنى كونه ما ينطق عن الهوى . . ثم الذين يأخذون على رسول الله ﷺ أن الله عدل له أو عتب عليه :

أولا : نقول لهم ها هو رسول وبشر . . ومن عدل له أبشر مثله أم ربه ؟ . . وأي استنكاف من بشر في أن يعدل له ربه منهجه !! فان المعدل هو الله وليس انسان مثله . . ولماذا لا نأخذ بما قاله رسول الله ﷺ هو عن نفسه : « يجد علي فأقول أنا لست كأحدكم ويؤخذ مني فأقول ما أنا الا بشر مثلكم » فكأن الرسول بتجريده عما يوحى اليه يصح أن يكون منه كذا ويصح أن يكون منه كذا . . ولذلك واحد يقول : ووجدك ضالا فهدى . . فكيف كان ضالا فهداه ؟ . . فنقول : ما هو الضلال ؟ . . ابحث عن معنى الضلال . . الضلال هو ألا تصل الى منطقة الهدى . . وصولك الى منطقة الهدى عنده فرعان : الأول : أن تكون عالما بمنطقة الهدى ولا تزال غيا ، والثاني : ألا تكون عالما بها . . يقال

فلان ضل الطريق . . معنى ضل الطريق : أكان عارفا بالطريق الصح ثم بعد ذلك تعمد أن يذهب الى الطريق الغلط ؟ . . أم لم يكن عارفا الطريق أصلا ؟ . . الرسول ﷺ قصارى ما كان عنده أنه لا يعجبه طريق قومه لا في توجههم لآلهتهم ولا في سلوكهم . . انما ما هو المنطق . . المنطق والخط الذي يجب أن يسير عليه ؟ . . فقال له ربه : انك كنت متضايقاً لا تعرف الطريق وأنا هديتك للطريق . . اذن فليس معنى ذلك أنه كان عنده منعة حتى ثم خالفه فيقال إنه ضل . . اذن فنحن نقول له : هو ما ينطق عن الهوى صحيح . . يعني أن كل ما صدر من حكم منه لم يكن فيه بلاغ عن الله . . لم يكن يعلم وجه الحق في شيء ثم جعل هواه يعدل الى شيء آخر . . بل محمد ملكه الدليل على أن هذا هو الحق . . وبعد ذلك ننظر نظرة أخرى فنقول : الأشياء التي عاتب الله فيها رسوله : أعاتب عليه أم عتب عليه لصالحه ؟ . . أمثلة : الرسول ﷺ عندما غضبت بعض نسائه من أنه عمل كذا فحرم على نفسه بعض ما أحل الله . . الخطر كل الخطر في أن يحلل ما حرم الله . . انما هو حرم على نفسه ما أحل الله . . ومن الممكن أن أي فرد يرفض أكل طعام معين . . أي حرمه على نفسه (كل الطعام كان حلا لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه) . . الذي حرم على نفسه ضيق على نفسه أم وسع ؟ . . بالطبع ضيق . . اذن العتاب من الله لصالح محمد وليس عليه . . يقول له : لماذا تضيق على نفسك ما وسعه الله لك ؟ . . فهذا عتاب عليه صحيح انما الأمر يتعلق به أم يتعلق بالغير ؟ . . هذا أمر يتعلق به . . فهذه يجب أن تكون في ميزان له لا في ميزان عليه ﴿لم تحرم ما أحل الله لك﴾ .

* * *

قصة ابن مكتوم

بعد ذلك نأتي لموضوع آخر . . موضوع الأهون . . موضوع ابن أم مكتوم . . وهو من المواضيع التي تكلم فيها المستشرقون بحجة النيل من اعجاز القرآن . . وصدق الرسالة . . تعالَ يا أخي : الرسول ﷺ ترك ابن أم مكتوم وهو الأسهل الى الأصعب . . ابن أم مكتوم يريد أن يسأل الرسول ﷺ أسئلة جوابها سهل عنده ﷺ في الوقت الذي يتكلم فيه مع ناس عندهم خصومة وجدب . . اذن الرسول ﷺ انتقل من الأسهل على نفسه الى الأصعب . . فعتاب ربنا عليه هنا هو لماذا فعل هكذا ؟ . . (وما عليك الا يزكى) . . فكأن الرسول ﷺ وضع نفسه في موضع صعب من صناديد قريش بأن يقيم عليهم الحجة و . . و . . و . . الخ . . فكأنه اعتقد أنهم إن لم يهتدوا فعليه وزر . فقال له : لا وزر عليك . . يعني لماذا تكلف نفسك الأمر الصعب في الدعوة وأنت عليك البلاغ فقط وتترك الأمر السهل . . اذن فالعتاب لصالحه أم لغير صالحه ؟ . . خذها من ناحية أن رسول الله ﷺ ترك أمرا كان سهلا عليه جدا ولا يكلفه عنتا ولا يكلفه مشقة ثم ذهب الى أمر آخر يتطلب عنتا ومشقة . . ثم ينظر الى الحيثية . . الحيثية أن هؤلاء الذين تصدى لهم الرسول ﷺ كان يرى أنهم لو اهتدوا فلا أقل من أنهم لن يفتنوا المؤمنين . . ولا أقل من أن يؤمن أتباعهم . . فالأمر لصالح الدعوة بمشقة على نفسه . . اذن فعتب الله عليه في قوله : ﴿عبس وتولى . ان جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى . فأنت له تصدى﴾ ثم قال ﴿وما عليك ألا يزكى﴾ يدل على أن الرسول ﷺ كان يحمل نفسه على الأمر الشاق ويترك الأمر السهل فالله عتب عليه . . تماما كما لو دخل الانسان منا على ابنه مثلا فوجده يذاكر في اليوم عشر ساعات أو عشرين ساعة فيعاتبه . . ولكن لماذا يعاتبه ؟ . . هل لأنه قصر أم لأنه حمل نفسه أكثر مما يطلب منه ؟ . .

* * *

أسرى بدر

ثم ننظر الى هذه الأمور من ناحية أخرى . . فهي تدل على أمانة رسول الله ﷺ في التبليغ عن ربه . . فهو ينقل الينا أمرا يتعلق بحكم عاتبه الله فيه . . وبعد ذلك انتهى أمر العتب الى نسخ حكم عمل الرسول أم تأييده ؟ . . ولنضرب لذلك مثالا بأسرى بدر ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ وفي تفسير هذه الآية قيل إن الرسول ﷺ استشار أصحابه وكل منهم كان له رأي . . فعمر رأى رأيا وأبو بكر رأى رأيا . . وعبد الله بن رواحة رأى رأيا وغيرهم . . ثم أخذوا برأي معين وعملوا به . . وفي اليوم التالي دخل عمر على الرسول ﷺ وأبي بكر فوجدهما يبكيان . . فسألهما ، فقال الرسول ﷺ : أبكي للذي كاد أن يصيبنا . . هنا قال هؤلاء المشككون : إن القران جاء يخطئنا ـ حاشاه ـ رسول الله ﷺ . . لكننا نطرح الرواية والتفسير على ذلك : هل عدل الخطأ أم أقره ؟ . . لم يعدل الخطأ . . الله سبحانه وتعالى احترم الظروف المرجحة لأخذ هذا الرأي . . وبعد ذلك قال : ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ فالحكم لم يتغير . . ومعنى أن الحكم لم يتغير ـ ومع ذلك قال لنا ذلك ـ إن الرسول ﷺ كان مبلغا أمينا . . لو أن الحكم كان قد تغير نقول : إن رسول الله ﷺ اضطر أن يذكر هذه الحكاية لأنها حيثية تغيير الحكم . . فكان فيه رأي بأخذ الفداء . . والآخر بقتل الأسرى . . ثم رجح أخذ الفداء . وبعض المفسرين يقول : سبق في علم الله تعالى أنه سيبيح لهم أخذ الفداء ، ولكن ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ . . يعني كان المفروض أن تنتظر الى أن ينزل الحكم .

* * *

حكاية زيد بن حارثة

ولذلك فان الحق سبحانه وتعالى ساعة أن يأتي باستدراك على حكم قاله ﷺ ببشريته يعبر عنه التعبير الدقيق . . مثلا زيد بن حارثة لما جاء أبوه وعمه وعرفا أنه عند رسول الله ﷺ وأرادا أن يأخذاه من رسول الله ﷺ وخيره : إما ان يذهب مع أبيه واما أن يظل معه . . فاختار رسول الله ﷺ . . . الذي اختار رسول الله على أبيه كيف يجازيه رسول الله ؟ . . سماه زيد بن محمد . . شرف كبير لزيد بن حارثة أن يكون زيد بن محمد . . . وبعد ذلك أراد الله أن يبطل مسألة التبني فقال : ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ تعبير دقيق . . كلمة أقسط . . فكأن ما صنعته يا محمد قسط عدل ولكن نريد ما هو أعم وأسمى من هذا . . اذن فالرسول ﷺ كان يتخول أن يأتي الأشياء على مقتضى العدل . . فهذا ببشريتك ، ولكن عندي مسألة أعم تعم زيد بن حارثة وغيره . . مبدأ اسلامي وهو ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين﴾ يعني بعد أن كان زيد بن محمد أصبح مرة أخرى زيد بن حارثة . . وهذا بالنسبة لزيد نكسة . . لكن الله سبحانه وتعالى لم يفجعه هذه الفجيعة إلا لكي يطبق مبدأ عاما..زيد بن حارثة يقول : أنا كنت خادم شرف . . لكن بسبب تطبيق هذا المبدأ العام . . أرجع من زيد بن محمد الى زيد بن حارثة !! . . فيقول له الله لكن سوف أعطيك نيشانا من عندي فوق ما أعطاك محمد . . فاذا كان محمد أعطاك شيئا فرب محمد سيعطيك ما هو خير مما أعطاك . . زيد ، هو الصحابي الوحيد من صحابة رسول الله ﷺ الذي يذكر اسمه في القرآن متلو . . ويتعبد بتلاوته . . ﴿فلما قضى زيد منها وطرا﴾ !! . . بعد أن كان زيد بن محمد أصبح اسمه كلمة في القرآن نقرأها ونتعبد بها . . فهل أخذ شرفا أم لم يأخذ ؟ . . اذن نخلص من هذا فنقول : الرسول ﷺ حينما يكون بصدد أمر ليس عنده حكم فيه يتخيله فيختار الأصلح فيصنعه .

اذن فقوله سبحانه : ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ . . الحق سبحانه ساعة أن قدم كلمة العفو . . فهذا معناه قطع كل شيء . . معنى عفا الله عنك كما نقول في عرفنا أن المسألة منتهية . . لا شيء فيها . . لكن ربنا يقول لرسوله هذا الكلام ليعلم أناسا آخرين ليس عندهم وحي . . فالرسول ربه سبحانه وتعالى هو الذي يعدل له إن اخطأ مثلا . . لكن غير الرسول من يعدل له ؟ . . اذن لا بد أن كل واحد يعمل المسائل عن بيان . . حتى يتبين لك . . اذن العلة في مثل هذه المسألة حتى يتبين لك الذين صدقوا . فهذا وجد له من يصحح له ، لكن أمثالنا وأمثال خلفائه وأمثال اتباعه لا يوجد من يصحح لهم .

أما عن قوله تعالى : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ وقوله : ﴿ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما﴾ فنقول : الرسول ﷺ كما قلنا هو مسك الختام في البلاغ عن الله . ما دام مسك الختام في البلاغ عن الله . . فالحق يعلم أزلا أن الرسول ﷺ ستأتي دعوته وأمته ستكون اخر الأمم التي عليها بعث الساعة وأنها الأمة التي يبلغ فيها العقل البشري نضجه وتفتحه وطموحه واكتشافاته . . الخ . والعقل البشري هو وان كان الميزة التي ميز الله سبحانه وتعالى بها الانسان . . الا أنه أيضا الخطر الذي يصاب من ناحيته الانسان !! . . لماذا ؟ . . لأن العقل البشري يفتن . . وساعة أن يفتن يريد أن يعطي لنفسه أكثر من مجاله . . ولو أنه كما قلنا ان العقل البشري يبحث أول ما يبحث في أن يعقل مهمته . . ويعلم أنه آلة ادراك . . والعين آلة ادراك . فكما أن العين لها مجال في أن ترى والأذن لها مجال في أن تسمع كذلك أنت لك مجال في أن تفعل . . فالعقل البشري كلما قدم طموحه واكتشافاته لأسرار الكون ازداد بنفسه غرورا . . هذا الغرور مردود بشيء واحد هو أن ما يعتبره العقل البشري شيئا يؤدي الى غروره كان يجب أن يجعله شيئا يعرف به قدره . . لأن معنى أن واحدا اكتشف شيئا اليوم أنه كان عاجزا عنه بالأمس . . اذن اكتشافات العقل ليست دليلا على قدرته وانما هي دليل على عجزه . . فلو لم يكن عاجزا بالأمس ما اكتشف اليوم . لو أنك أيها العقل صالح لادراك حقائق الأشياء لأدركتها دفعة واحدة لمجرد وجودك . . فهذا الانسان بعقله هذا كلما تقدم في كشفه لحقائق الكون كلما بعد عن فطرة التدين . .

ولنضرب لذلك مثلا ونقول : كان الناس حينما لا يجدون ماء لزرعهم ومواشيهم وأنفسهم . . ماذا كانوا يصنعون ؟ . . كانوا يفزعون الى الاستسقاء . . لأنه لا بديل عن ذلك . أما الآن اذا لم نجد الماء نتحايل فربما كانت هناك ماسورة بها كسر أو أن أجهزة الضغط بها عطل أو . . أو . . الخ . . اذن أصبح فيه وسائط من نشاطات العقل أبعدتنا . . فالوسائط بيننا وبين الفزع خزان لتخزين الماء فيه مدة طويلة . . ولكن لو لم يكن العقل قد جاء بهذا الخزان وعمل الأواني المستطرقة . . و . . و . . الخ . فكان بمجرد امتناع الماء فزعنا الى الله . . أي أننا نبعد عن الايمان بقدر عطاء العقل وهذه كارثة . . وأنه من المفروض كلما اكتشفنا سرا من أسرار كون الله تعالى في الوجود أن نزداد بالله تعلقا .

● ألا يمكن أنه بعد أن يبعد بنا العقل عن الايمان بمقدار ما يحقق من مكاسب ثم يقف عاجزا أن يجعلنا أشد ارتباطا بالله ؟

اذن كان ولا بد أن تكون الدعوة التي ستعاصر وثبات العقل في الابتكار دعوة دسمة مقابل هذا . . فدعوة الرسول هذه عظيمة لأنها ستوالي العقل المتطور . . العقل الواثب . . ولذلك فان الحق سبحانه وتعالى لا يعطي عطاءه في كتابه دفعة واحدة . . والا لو أنه أعطى عطاءه في كتابه للقرن العشرين فقط ثم بعد ذلك يأتي القرن الثلاثون فماذا يكون فيه من عطاء الله ؟ . . فينبغي اذن أن يعطي الكتاب الكريم أسرار الله المودعة فيه بأقدار على قدر ما يناسب طموح العقل . . واذن سيظل عطاء القرآن الى أن تقوم الساعة بحيث يجعلنا هذا العطاء نتحقق من قوله تعالى : ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ . .وبعد ذلك حينما يأخذ العقل قمته ولم يعد في كونه سرا حتى يبحث العقل عنه فيقول : ﴿أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا﴾ .

اذن فالرسالة المحمدية جاءت ويعلم الحق أنها موقوتة وعلى ميعاد مع وثبة العقل الطموحة في الابتكار . . لو لم يكن في هذه الرسالة ما يقابل هذا لبعد الناس عن منطق الله .

والنقطة الأخيرة هي المنفرة . . الرسول ﷺ خاتم وآخر أذن تستقبل رسالة السماء

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا﴾ . ولا يأتي بعد ذلك رسول . . اذن فالرسول هو منول الفتح الى الله . . والفتح الى الله يعطي خير الله . . لكن الانسان لا يستقبل الخير دائما باليقظة المطلوبة له فتخغل نفسه . . فالرسول مع ذلك يقول : أنا آخذ بيدك لأرجعك الى الفتح . . اذن فالحق سبحانه وتعالى جعل ميزان المؤمن في الحكم على ايمانه يتصل بالرسول ﷺ ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ . . اذن فهذا ميزان الايمان . . اذا أردت أن أعرف مرتبتي من الايمان فانظر موقفي من الرسول ﷺ في هذه المسألة . . وكلمة (يحكموك) . . لماذا لم يقل يحكموا الله ؟ . . لأن الرسول هو الذي ينطق عن الله ولكن فيه أحكاماً كثيرة ، الرسول ﷺ قالها هو فلا نستطيع أن نقول فيهـا ، قال الله فيها كذا . . اذن فمعنى (يحكموك) أي فيما بلغته عن الله وفيما استنبطته أنت من نفسك واجتهدت فيه . . ولذلك تجد أن آيات القران الكريم في مسألة الطاعة مرة تقول : ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ ، فيكرر الأمر . . ومرة يقول : ﴿أطيعوا الله والرسول﴾ . . ومرة يقول : ﴿أطيعوا الرسول﴾ . . لماذا ؟ . . لأن فيه وأموراً اشترك فيها الرسول مع الله ، وأموراً جاء الله بها اجمالا والرسول فسرها ، قلنا هنا طاعة وهنا طاعة وأمور لم تأت عن الله . . اذن عندما يقول : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك﴾ وهو لا يحكم الا بما تلقاه عن الله أو بما اجتهد فيه توفيقا ووافقه الله سبحانه وتعالى عليه ، وبعد ذلك نأتي في مسألة الذنوب . . اذن فهو أخذنا من مقام الفتح الايماني وبعد ذلك يأخذ أيضا في مقام الأوبة الى الله .

* * *

الرسول صلى الله عليه وسلم أعاد
« انسجام الانسان مع الوجود كله »

واذا أردنا أن نتعرض لتقييم الحق لرسوله ﷺ وجدناه حين يخاطب جميع الرسل يخاطبهم مباشرة فيقول : ﴿يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك﴾ . . ﴿يا نوح اهبط بسلام منا﴾ . . ﴿فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك﴾ . . ﴿يا عيسى بنَ مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله ﴾ . . . .

ولكنه سبحانه وتعالى حينما يتوجه بالخطاب الى حبيبه الأعظم ﷺ . . . لم يقل يا محمد . . ولا يا أحمد . . انما قدم بين يدي ندائه قوله : ﴿يا أيها النبي . . ﴾ . . ذلك أمر يرفع رسول الله ﷺ الى أقرب المكانات من ربه . .

ونجد الحق سبحانه وتعالى حين يقسم على أشياء ليؤكدها يقسم بأشياء كثيرة من أجناس شتى . . فيقسم بالجماد . . ويقسم بالنبات . . ويقسم بالحيوان . . ويقسم بالملائكة . . ولكننا لم نره أقسم ببشر مطلقا الا برسوله ﷺ حين يقول : ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ أي : وحياتك . . . يا محمد . . فكأن عمر رسول الله وحياة رسول الله أمر له مقامه عند ربه . .

واذا كان الناس حين يمدحون انسانا بحسن الخلق . . ونبل الصفات . . وجمال الخلق . . فانهم يمدحونه لأنهم عرفوا الصفات وقيموها ببشريتهم . . وتقييم البشر للأشياء خاضع لعلمهم بهذه الأشياء . . فان الحق حين يقيم الخلق على أرفع مستوى خلقه في الانسان فيقول : ﴿وانك لعلى خلق عظيم﴾ فحين يقول الحق سبحانه وتعالى ذلك الخطاب لرسوله ، فليس المقصود هنا الخلق المتواضع عليه عند البشر . . لكن الخلق المطلوب لله ورسول الله اجتاز هذه المنزلة فكان صاحب الخلق العظيم بتقييم الله العظيم .

والحق سبحانه وتعالى حين يريد هدى الى خلقه يرسل لهم رسلا . . والرسل يأتون بمنهج الله الى الناس . . ولكن المنهج يفيد الناس في حركاته . والناس يألفون دائما شهوات انفسهم . . فتطرأ عليهم الغفلة فينسون شيئا من المنهج . . وحين ينسون يأتي المجتمع لينبههم الى ذلك .

اذن فالانسان قد يكون أوابا الى ربه حين تكون نفسه لوامة . ولكن قد تأتي عليه فترة من الزمن فلا تلومه نفسه فعلى المجتمع حينئذ أن ينبهه الى نفسه وأن يعيده الى رشده ليهديه . . فاذا ما فسد المجتمع . . فماذا يكون الموقف ؟ . . لا بد أن تتدخل السماء مرة ثانية لتأتي بالمنهج الجديد . . ولا بد أن يكون على لسان رسول جديد بمعجزة جديدة . . ولكن الله سبحانه وتعالى قد شاء أن يختم الرسالات برسالة سيدنا محمد ﷺ ولم يأت نبي بعده . .

اذن فالرسول ـ ﷺ ـ هو الخاتم . . ومعنى الخاتم : ان الله أودع في أمته خصيصة . . تقوم مقام تعدد النبوات . . وتعدد الرسالات . .

اذن فالرسول ﷺ هو الخاتم لرسالات السماء . . ولهذا أن تكون في رسالته عناصر البقاء . . وفي أمته عناصر الحفاظ على هذه الرسالات . . ولذلك يقول المصطفى ﷺ : « الخير في وفي أمتي الى يوم القيامة » . . ولكن الخير حين يكون محصورا فيه . فمحمد ﷺ أهل لأن يتلقى كمالات متعددة . . ولكن الأمة لا يستطيع فرد منها أن يأخذ الكمال المحمدي . . فالخير فيه ﷺ بأجمعه وكله ، . . ولكنه في أمته موزع . . فواحد يأخذ منه صفة . . وثاني يأخذ منه صفة بحيث اذا تجمعت صفات الكمال في أمته ﷺ أمكن أن يكون النموذج الشائع في أمته كلها .

جاء الرسول ليعيد انسجام الانسان مع الوجود كله . . أي الوجود بجماده ونباته وحيوانه . . وكل هذا مسخر لله ، فلا يمكن أن يصدر عنه شيء الا بمراد الله منه . . ولكن الانسان نفسه هو الذي جاء منه الطائع . . وجاء منه العاصي . . ولذلك يعرض الحق هذه القضية في عدم انسجام الانسان مع الوجود الخاضع . . الساجد . . الخاشع . . فيقول تعالى : ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم

والجبال والشجر والدواب . .﴾ تلك هي أجناس باجماع ساجدة . . خاضعة لله . . ولكنه حين جاء عند الانسان لم يأت ذلك الإجماع فقال سبحانه ﴿وكثير من الناس﴾ ﴿وكثير حق عليهم العذاب﴾ وكان المفروض أن ينسجم الانسان مع الوجود كله . . فيكون خاضعا لمنهج الله كما أن الوجود كله خاضع لمنهج الله . . ويأتلف معه . . وينسجم معه . . ولا ينسجم شيء من الوجود مع الانسان الطائع . . أما الانسان العاصي فهو يشكل شقاقا بينه وبين أجناس الوجود : وجود ساجد . . مسبح . . خاشع . . وانسان متمرد عاص !!.

حين يأذن الله سبحانه وتعالى ليعيد للانسان بمنهج الله انسجامه مع الوجود .. فلا بدعة اذن أن يفرح ذلك الوجود بمن يعيد اليه انسجام الانسان معه . . وذلك هو الشأن معه ﷺ . . جاء ليعيد انسجام الانسان مع الوجود كله ليأتي بالمنهج النهائي لهدى الانسان . . ليكون الانسان خاضعا لبقية أجناس الكون لله تعالى . . اذن فلا عجب أن يفرح به الوجود من جماد ونبات وحيوان . . ولا عجب أن تفرح به الملائكة . . ولا عجب أن يفرح به طائع الجن . .

فاذا حدثنا أن ميلاده ﷺ قد قرن بأشياء حدثت في الكون من ارهاصات في الوجود كله بميلاده . . فيجب علينا ألا نستبعد ذلك . . لأنه هو الرسول الذي يعيد للانسان انسجامه مع الوجود كله . . وهذا الوجود كما نعرفه ليست فيه الحياة التي نعرفها في نفوسنا . . ولكن له حياة . . وله تعقل في التلقي عن الله . . وله فرح وله حزن . . وقد شاء الحق سبحانه وتعالى أن يعرض لنا هذه القضية عرضا اجماليا . . لنعرف أن الكون كله عبد الله . . وخاضع له فقال سبحانه : ﴿وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ أي كل شيء في الوجود مسبح ولكننا ألفنا التسبيح بألفاظ وبلغة . . فلما لم نسمع عن الكون ألفاظا ولغة . . قال بعض العلماء : إنه تسبيح الدلالة على وجود الله وعلى وحدانيته . . نقول لهم : مرحبا . . له أيضا تسبيح الدلالة ولكن ذلك لا يمنع من التسبيح الحقيقي . . لأنه ان كان تسبيح دلالة كما يقولون فالحق يقول﴿ولـكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ وأنتم قد فقهتموه . . اذن فهو غيره .

والذي يدل على ذلك أن الحق سبحانه عرض من أجناس الوجود أشياء وجعلها

تشترك أيضا مع الانسان فيقول في شأن داود عليه السلام : ﴿يا جبال أوبي معه﴾ أي رجعي تسبيح الله . . أي يجب أن يوافق ترجيعك يا جبال ترجيع داود ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن﴾ . . والجبال مسبحة مع داود ومع غير داود . . ولكن الأمر أن يتفق تسبيح الجبال مع تسبيح داود ليكون كأنه عرس توحيدي في الكون . . ويعرض الحق سبحانه أيضا أن لجميع الأجناس منطقا ولغة . . جهلنا به هو-الذي جعلنا لا نفقهها . . فاذا علم الله انسانا من خلقه لغة هذه الأشياء أمكنه أن يتفقه تسبيحها ونطقها . . ويقول الحق سبحانه : ﴿قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾ . . وسمعها سليمان . . وحمد الله على أن أنعم عليه بفهم لغة النمل . . وقد يقال إن تلك أمور تعلمتها النملة لتحافظ على نوعها . . بدليل ﴿لا يحطمنكم سليمان وجنوده﴾ فهي تحافظ على بقاء النوع . . والرد على هذا القول : بلا . . لأنه حينما عرض الحق سبحانه أيضا قصة هدهد سليمان . . فماذا قال الهدهد ؟ . . لقد قال : ﴿وجئتك من سبأ بنبأ يقين . اني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم﴾ . . هذا كلام الخبر . . ولكن يهمنا في قضية العقيدة والتوحيد . . انها أمر سائر في كل أجناس الكون أن يقول الهدهد ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾ . . هذا ما حز في نفس الهدهد . . اذن فالهدهد يعرف من يجب أن يسبح ومن يجب أن يسبح له . . ﴿ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض﴾ .

اذن فاذا عرضت لنا السيرة العطرة أن أشياء من الكون فرحت برسول الله ﷺ وحدثت أشياء منها ، فذلك أمر لا نستبعده على كون مسبح لله . . عارف بحق الله . . وأيضا لنا نحن المطلوبين بأن نؤمن بهذا . . ولكن الذين آمنوا هم الذين شاهدوها وسمعوها . . ومن سمعوها حجة على أنفسهم ونحن نتلقى عنهم الخبر . . فان كنا موثقين لهم في الخبر صدقناه . . وان لم يتسع ظننا لتوثيق الخبر فنحن أحرار في أن نصدق أو لا نصدق . . ولكن منطق الأشياء ومنطق الوجود لا يمنع وجود شيء من ذلك . . فاذا حدثنا أن ايوان كسرى قد شق . . فماذا في ذلك ؟ . . وماذا في ذلك من العجب ؟ . . أنستبعد أن يؤقت شق الايوان بميلاد الرسول ؟ . . أنستبعد على الله أن يخمد نار فارس ويؤقته مع ميلاد الرسول ؟ . . نستبعد على الله أن يؤقت أن تغيض بحيرة ساوة مع الميلاد ؟ . . لماذا

هذا اذن !! . . فالقران حين يعرض لهذه القضية يعرض لما حدث في الكون في عام الفيل . .

ففي عام الفيل جاء قوم ليهدموا الكعبة . . بيت الله الذي اختاره لنفسه . . وحوله ونحوه نلتف جميعا في الصلاة . . هذا البيت له قالب أريد به ضر وهدم . . فلماذا لا نفهم أن الحق سبحانه وتعالى حافظ على مبنى البيت في ذلك العام وأوجد فيه الشخص الذي يحافظ على معناه في ذلك العام . . فتكون المحافظة على المبنى بمنع أبرهة من هدمه . . هي بعينها المحافظة على بقائه لربه بميلاد محمد ﷺ ؟ . . واذا كان الحق سبحانه قد عرض لنا هذه القضية فانه قد عرضها عرضا عجيبا . . هذا العرض العجيب يتجلى في قوله سبحانه ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول﴾ .

ورسول الله ﷺ لم ير وقتها ولكنه علم بالقضية من الله . . والمسألة كلها متعلقة بمحمد ﷺ ﴿فعل ربك﴾ والرب تفيد التربية والكمال والبلوغ بالمربي الى درجة الكمال . . فما دام ﴿فعل ربك﴾ فتكون لمحمد علاقة بالمحافظة على ذلك البيت الحرام .

فهرست